صفحات من تاريخ العباسيين



تأليف
الدكتور وفاء محمد على

دار الفكر العربي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

صدق الله العظيم

بين يدى الكتاب

هذه اربع صفحات من تاريخ العباسيين رايت انها تستحق الدراسة لعدة اعتبارات : اما لأن موضوعا منها يحتاج الى استقراء واستجلاء للوصول الى الحقيقة ، او لأنها تمثل مرحلة من مراحل الدولة قوة او ضعفا ، أو لأنها لم تنل حظها الكافى من الدراسة رغم أهميتها . وقسمتها طبقا لموضوعها الى صفات يمكن أن تطلق عليها ، وعلى هذا بدت متنوعة فى موضوعاتها متباينة فى دراستها وهذه الصفحات هى :

١ — صفحة دامية تناولت فيها تلك الحقبة الدامية فى تاريخ الدولة العباسية التى كان اقسى ما فيها أن تكون بين أخوين دفع احدهما فيهما حياته لينال أخوه ملك الدولة كاملة ، وأعنى بهما الأمين والمأمون ولدى الخليفة هارون الرشيد ، وقد حاولت أن أجلو الحقائق وأحدد المسئولية ونتائج هذه الحرب التى أكلت الأخضر واليابس ، وقد وجدت بعد الاستقراء الجيد الأمين أنه قد قست عليه كثيرا اقلام المؤرخين ووصفته بصفات قاسية ؛ فلم يكن الأمين غافلا كل الغفلة ، ولا لاهيا كل اللهو ، بل كان فيه كثير من الصفات التى كانت تؤهله لحكم الدولة حكما جيدا لو لم يتدخل المنتفعون من الفرس أو الراغبون فى المنفعة من أمثال الفضل ابن سهل ليحرضوا أخاه ويمنوه ، رغبة فى استعادة مكانة الفرس .

٢ — صفحة زاهية ، تناولت فيها دور الموفق طلحة البطل اخى الخليفة المعتمد بالله الذى أعاد للدولة العباسية رواءها وأيقظها من سباتها ، وكان له جولات ضد أعداء الدولة ، وكانت احدى هذه الجولات ضد حركة الزنج التى كانت تمثل خطرا على الدولة العباسية فى عقر دارها .

وقد قام الموفق بجهود واضحة فى حرب الزنج ، واستخدم معهم وسائل حربية تدل على عبقرية حربية فريدة ، فخطط للحرب ، واستخدم الخدع ، واستخدم الأساليب النفسية من ترغيب وترهيب كأحسن ما تستخدم هذه الأساليب ، وحاصر أعداءه اقتصاديا ، حتى تحقق له فى النهاية النصر عليهم .

٣ — صفحة غادرة ، تناولت فيها فترة تكاد تنسى عند ذكر تاريخ مصر

الاســـلامية حتى ليكاد البعض يذكر الدولة الأخشـــيدية وكأنها تاليــة للدولة الطولونية ، دون وجود تلك الصفحة الغــادرة ، صفحة الحـــكم العباسى المباشر لمصر ، والتى حاول العباسيون تصويرها وكأنها فتح لمصر ، واستخدم فى خلالهـــا العباسيون مع الطولونيين والمصريين أسوأ ما يمكن استخدامه من وسائل متناسين دور مصر الطولونية بالنسبة لهم ذلك الدور الذى اتخذ صورة الود بل ووصـــلا الى درجة المصاهرة .

ولم يكن غريبا والحال كذلك أن يلتف المصريون حول ابن الخلنجى الذى مثل لهم أملا فى عودة تلك الدولة التى تمتع المصريون فى أكنافها بكل خير .

٤ ــ وختمت هذه الصفحات بصفحة تصور فترة ضعيفة واهية بالنســبة للعباسيين حيث وجدت دويلات للمتغلبين تخيرت منها دولتين هما : دولة العلويين فى طبرستان ، ثم الدولة الصفارية ، وبينت كيف نشـــأت هاتان الدولتان وكيف اتسعتا والعلاقة بينهما وبين الخلافة العباســـية ، وسياسة العباسيين آنئذ التى كانت تحــاول التخلص من الدول الاقليمية دون الاصــطدام المباشر معهـــا ، وان اضطرت حينا الى ذلك الصدام .

والصفحات جميعا تلقى أضواء كاشفة على عدة موضوعات أعتقد أنها كانت فى حاجة ماسة الي الدراسة لأهميتها .

والله سبحانه وتعالى أرجو أن أنال الأجرين ، والا فكفانى أن أفوز بالأجـــر الواحـــد .

والله سبحانه الموفق لـــا فيه الخير والسداد وعليه جل جلاله قصد السبيل ..

دكتور وفـــاء محمـــد عـــلى

القـــاهرة فى ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م


صفحة دامية
حول الصراع بين الأمين والمأمون[٤٠]

حول الصراع بين الأمين والمأمون

سار العباسيون فى تولية العهد سياسة مؤداها أن يولوا العهد لأكثر من واحد ؛ فولى أبو العباس السفاح أبا جعفر المنصور ثم عيسى بن موسى ، أما المنصور فولى من بعده ابنه المهدى ثم عيسى بن موسى — الذى تنازل عنها — واختار المهدى من بعده الهادى ثم هارون الرشيد .

وكانت عادة تولية العهد لأكثر من واحد توقع العداوة والبغضاء ، وكان هارون الرشيد نفسه قد قاسى من ذلك النظام وأوشك أن يؤدى به الى القتل[1] فى عهد أخيه موسى الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) الذى حاول نقل الخلافة الى ابنه جعفر ، واتخذ من الوسائل لتحقيق هدفه الكثير فحاول اقصاء هارون بمنحه الكثير من الأموال ، فأمر له بمليون دينار ، وأن يحمل اليه نصف الخراج ، وأن يأخذ من أموال الخزائن ما يشاء كل ذلك حتى يخلع نفسه (٢) ، ثم أراد بعد ذلك قتله وقتل يحيى بن جعفر البرمكى الذى كان نصحه بعدم تحويل الخلافة عن أخيه الى ابنه فكان نصيبه الحبس .

ولم يتم التخلص من الرشيد ويحيى بقتلهما حيث سبقتهما يد الخيزران أم الخليفة الى قتل ولدها الهادى الذى كان قد أساء اليها كثيرا (٣) كما أن الرشيد رأى بنفسه ما صنعه أبوه المهدى وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى يئس وخلع نفسه من ولاية العهد (٤) .

ولذلك لا نعجب أن يتعجب ابن الأثير من لجوء الرشيد الى تولية المأمون بعد الأمين ثم يقول : « وحبك الشىء يعمى ويصم » (٥) ، ويعبر ابن تغرى بردى عن الخطر الذى يكمن فى هذا النظام حيث يقول : « وهذا البلاء والتدميغ الى

---

(١) الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ١٧٣ ،
H. IBRAHIM, History and Islamic Culture, P. 115.
(٢) الريس : الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٤٠٣ .
(٣) انظر كتابنا نفوذ النساء فى الدولة الاسلامية .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٠٧ .
(٥) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ١٠٧ .

يومنا هذا ، فان كل من ملك من الملوك الى زماننا هذا يخلع ابن الملك الذى كان قبله ، ثم يعهد لابنه من غير أن يقعد قاعدة يثبت بها ملكه ، بل جل قصده العهد ، ويدع الدنيا بعد ذلك تنقلب ظهرا لبطن » . (٦) على أية حال عقد الرشيد لابنه محمد بولاية العهد فى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، وأخذ له البيعة من القواد والجند .

تم ذلك وللأمين من العمر خمس سنين ، وقد شملت بيعته كذلك بلاد خراسان حيث سار اليها الفضل بن يحيى البرمكى ، وفرق أموالا عظيمة ، وأعطى الجند هناك اعطيات متتابعة ، ولما رأى الرشيد أن أهل الشرق بايعوا محمدا كتب الى الآفاق فبويع له فى جميع الأمصار ، وكان جماعة من بنى العباس أنكروا بيعته لصغر سنه (٧) .

وفى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ولى الرشيد الفضل بن يحيى خراسان مضافا الى ما كان اليه من ولاية الجبل وجرجان وطبرستان ، واتخذ الفضل جندا من خراسان سماهم العباسية ، وبلغت عدة هذا الجند مليون رجل (٨) .

واتخذت الأمور خطا جديدا حين بايع الرشيد فى سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م — حين كان بالرقة — أبنه عبد الله المأمون من حد همدان الى آخر المشرق (٩) ، ولما كان القاسم بن الرشيد فى حجر عبد الملك بن صالح فانه راى أن يبايع الرشيد للقاسم أسوة بأخويه ، فكتب له كتابا يسأله أن يجعل القاسم ثالثا فى ولاية العهد (١٠) ، فبايع الرشيد للقاسم وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور

---

(٦) ابن الاثير : الكامل ص ٩ ص ١٠٧ حاشية « ٤ » .
(٧) مجهول : العيون ص ٢٩٢ .
(٨) مجهول : نفس المصدر ص ٢٩٦ .
(٩) مجهول : نفس المصدر ص ٣٠٣ وانظر :
Shaban, Islamic history Vol 2, p. 39.
وكان جعفر بن يحيى هو الذى سعى فى بيعته ، وقام بالأمر حتى عقده له . الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١١ .
(١٠) مجهول : العيون ص ٣٠٤ ، وكان مما كتب اليه فى ذلك :

يا أيها الملك الذى	لو كان نجما كان سعدا
للقاسم اعقد بيعة	واقدح له فى الملك زندا
الله فرد واحد	فاجعل ولاة العهد فردا

العيون ص ٣٠٤

والعواصم (١١) .

وكان لهذا معنى واحد وهو ان الأمين عندما يتولى الخلافة سيكون « مقصوص الجناحين ، منزوعا منه السلطان فى أعظم بقاع الاسلام وأكثرها أعوانا وجندا » (١٢) .

وهكذا وضع الرشيد بذور انقسام البيت العباسى من بعده (١٣) ، ولا نشك ان ذلك الأمر غاب عن فطنة الرشيد ، كما سيتضح من أقواله وأفعاله ، وكيف كان يغيب ذلك عنه ، وهو لم يغب عن فطنة عامة الناس الذين كأنما رأوا بعين الغيب ما سوف يحدث فقال بعضهم :

رأى الملك الرشيد اضل رأى	بقسمته الخلافة والبلادا
أراد به ليقطع عن بنيه	خلافهم ويبتدلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	واورث شمل الفتهم بدادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجرى من دمائهم بحور	زواخر لا يرون لها نفادا (١٤)

وعبر ابن الأثير عن رأى الناس وصدق هذا الرأى حيث قال : « قال الناس : لقد القى بينهم شرا وحربا ، وخافوا عاقبة ذلك » ثم قال : « فكان ما خافوه » (١٥) .

ولا يمنع هذا أن البعض رأى أن الرشيد أحكم الملك بعده بهذا التصرف ، وقال فى هذا قائلهم :

وقلد الأرض هارون لرافته	بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا (١٦)

وأغلب الظن أن الرأى الأول — وهو الصحيح الذى أيدته الأحداث — كان

---

(١١) مجهول : العيون ص ٣٠٤ ، وانظر
H. Ibrahim, Islamic and history culture, p. 121.
(١٢) الخضرى محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ١٧١ .
(١٣) Shaban, Islamic history, Vol 2. p. 40.
(١٤) مجهول : العيون ص ٣٠٤ .
(١٥) ابن الأثير : الكامل ص ٩ ص ١١٢ .
(١٦) ابن الأثير : نفس المصدر ص ٩ ص ١١٣ ، والعيون ص ٣٠٤ .

يمثل الراى العام الرشيد ، فى حين أن الراى الثانى يمثل راى المقربين من السلطان زلفى ونفاقا لصاحب السلطان .

وخير دليل على صحة الراى الأول ان الرشيد نفسه كان يراه ، ولذلك فانه أوصى الفقهاء والقضاة ان « يجهدوا رايهم فى كتابين ، احدهما على محمد الأمين يشترط عليه الوفاء لعبد الله المأمون بما اناطه به الرشيد من اعمال وما صيره اليه من الضياع والجواهر والأمول ، أما الكتاب الثانى فهو نسخة البيعة المأخوذة للأمين والمأمون والشروط على محمد وعبد الله من الأحكام والسياسات ، واشهد اهل بيته ووزراءه وقواده ومواليه وكتابه ومن كان معه فى الكعبة ، وكان ذلك جميعه فى بيت الله الحرام ، وقرىء الكتابان على محمد وعلى عبد الله (١٧) .

ولعل احساس الرشيد بالهوة التى تردى فيها دفعه الى أخذ العهود والمواثيق حتى لكأنه يحس فى قرارة نفسه بأن الأخوين سيقتتلان بعد وفاته (١٨) .

وقد حكى عن سعد بن عامر البصرى انه قال : « فى هذه السنة ، وقد استعظم الناس أمر الشروط والأيمان فى الكعبة ، فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيره ويقول :

وبيعة قد نكثت أيمانها   وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له : ويحك ما تقول ؟ قال اقول : ان السيوف ستسل والفتنة ستقع ، والتنازع فى الملك سيظهر ، قلت : وكيف ترى ذلك ؟ قال : اما ترى البعير واقفا والرجلان يتنازعان ، والغرابان قد وقعا على الدم ، والتطخا به ، والله لا يكون آخر هذا الأمر الا محاربة وشرا » (١٩) .

على أن القارىء للكتابين اللذين علقا فى الكعبة يلمس ميلا ظاهرا الى المأمون وحيفا على الأمين ، وكأنما يريد الرشيد بكتابيه أن يحكم حيا وميتا ، وليس لمحمد الأمين اذا ما صار خليفة أن يتصرف من منطلق هذا المنصب بل

---

(١٧) ابن الأثير : الكامل ص ٥ ص ٢٧٨ وانظر
H. IBRAHIM, Islamic and history Culture, p. 121.

(١٨) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٠ .

(١٩) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٣٦٤ .

عليه ان يعترف بانفصال الأجزاء الشرقية حيث لا سلطان له عليها ، ويبدو بذلك وكأنما الخلافة انقسمت الى قسمين (٢٠) .

كما يلاحظ قارىء العهدين كثرة التوكيدات التى يأخذها الرشيد على الأمين ، كما يلمس توقع الرشيد لما سوف يحدث ، وهو بطريقة غير مباشرة يمهد الطريق امام المأمون ، ويزين له الطمع فى الخلافة حتى باختلاق أحداث توصله اليها ، ثم هو يغل يد الأمين غير ناظر الى ما قد تقتضيه سياسة الدولة فى عهده ، او ما يجد من تطورات تستوجب منه أن يتصرف على خلاف ما كان يرى الرشيد .

ومما جاء فى العهد الذى أخذ على الأمين : « فليس لمحمد ابن امير المؤمنين ان يحول عنه (اى عن المأمون) قائدا ولا مقودا ، ولا رجلا واحدا ممن ضم اليه من اصحابه الذين ضمهم الى امير المؤمنين ، ولا يحول عبد الله ابن امير المؤمنين عن ولايته التى ولاه اياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان واعمالها كلها ما بين عمل الرى مما يلى همذان الى أقصى خراسان وثغورها وبلادها ...... ولا يحول بينه وبين العمل فى ذلك كله برايه وتدبيره .... واذا نزع اليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين الى عبد الله أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه من عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصيا له أو مخالفا عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده الى عبد الله ابن امير المؤمنين بصغر له وقماء حتى ينفذ فيه رايه وامره » ، « فان أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها واعمالها ، والذى من حد عملها مما يلى همذان والكور التى سماها أمير المؤمنين فى كتابه هذا او صرف احدا من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين اليه ممن قدم قرماسين ، أو أن ينتقصه قليلا او كثيرا مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه ، او بحيلة من الحيل صغرت او كبرت فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو ولى الأمر بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من اهل خراسان واهل العطاء وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين ، والقيام معه والمجاهدة لمن

(٢٠) Shaban, Islamic history, Vol, 2, p. 39 & H. IBRAHIM, ibid, p. 121.

خالفه ، والنصر له والذب عنه مـا كانت الحيـاة فى ابدانهم . وليس لأحد منهم جميعـا من كانوا او حيث كانوا ، أن يخالفه ولا يعصـيه ، ولا يخرج من طاعته ولا يطيع محمد ابن امير المؤمنين فى خلع عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين ، وصرف العهد عنه من بعـده الى غيره ، او ينتقصـه شـيئا مما جعله له امير المؤمنين فى حياته وصـحته ، واشـترط فى كتـابه الذى كتبـه عليه فى البيت الحرام فى هذا الكتاب . **وعبد الله ابن امير المؤمنين المصدق فى قوله** ، وانتم فى حل من البيعـة التى فى اعناقكم لمحمد ابن امير المؤمنين ان ينقـاد لعبد الله ابن امير المؤمنين هارون ويسلم له بالخلافة (٢١) .

ثم ان الرشـيد يمنع خلع القاسـم فى عهـد الأمين ، ولكن اذا آلت الخلافة الى المأمون فهو حر فى ابقاء القاسم او خلعه « وليس لمحمد ابن امير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن امير المؤمنين ان يخلعـا القاسم ابن امـير المؤمنين هارون ، ولا يقـدما عليه احـدا من أولادهما وقراباتهما ، ولا غيرهم من جميـع البرية ، فاذا أفضت الخلافة الى المأمون ابن امـير المؤمنين ، فالأمر اليه فى امضـاء مـا جعله أمير المؤمنين من العهـد للقاسـم بعده ، او صرف ذلك عنه الى من راى من ولـده واخوته ، وتقديم من اراد ان يقـدم قبله ، وتصيير القاسـم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدم عليه قبله ، يحكم فى ذلك بما أحب وراى » (٢٢) .

ويتجلى من ذلك انحياز الرشد الى المأمون ومحاولة كف يده دون كف أخيـه ولكن ماذا يحـدث اذا نقض المأمون مـا عاهد عليـه ، هـل يعزله الأمين ؟ الحق اننا لا نرى مـا يشير الى ذلك فى العهد الذى كتب على المأمون فكل مـا اخذ عليه اذا نقض عهد أخيه نراه فى قوله : « فان انا نقضت شـيئا مما شرطت وسميت فى كتـابى هذا او غيرت او بدلت او نكثت او غدرت ، فبرئت من الله عز وجل ولايته ودينه ومحمـد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ولقيت الله يوم القيـامة كافرا مشركا .... وكل مال لى او املكه الى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة » (٢٣) .

هكذا نرى الرشـيد يميل كل الميـل على الأمين ، ولا يميل بعض الميـل على

---

(٢١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ٨ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
(٢٢) الطبرى : نفس المصدر ص ٨ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٢٣) الطبرى : نفس المصدر ص ٨ ص ٢٨٣ .

المأمون ، وكأنما هو بذلك يرد على زبيدة تقديمها للأمين على المأمون الذى كان يصغر المأمون بستة اشهر ، ويحاول الوفاء لأم المأمون التى ماتت فى نفاسها بعد ولادة المأمون (٢٤) .

وهو بذلك قد رسم طريقا للشر بين الأخوين توقعه هو بنفسه كما دل على ذلك كتاباه .

ثم ان الرشيد فى كتابه الى عماله يوضح بعدا آخر حين يقول أنه اراد بما فعله « الصلاح لهما ولجميع الرعية ، والجمع للكلمة ، واللم للشعث ، والدفع للشتات والفرقة ، والحسم لكيد اعداء النعم من اهل الكفر والنفاق والغل والشقاق ، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون ادراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما » (٢٥) فالرشيد يدرك وجود « اهل الكفر والنفاق والغل والشقاق » الذين سيحاولون الوقيعة بين الأخوين ، فكيف يكون بما فعله قد جمع الكلمة ولم الشعث ، وكيف له ان يتوقع ذلك وقد جعل المأمون بين قوم أمه من الفرس فى خراسان بينما محمد فى قسمه فى وسط من العصبية العربية ، والرشيد بنفسه كان أول من قاسى من محاولات السيطرة الفارسية التى تمثلت فى اسرة البرامكة ، واضطر الى الوقوف منهم موقفا متشددا انتهى بنكبتهم وتشتيت شملهم .

ونحن بادىء بدء لو كنا فى وقت هذه البيعة لتوقعنا ما سوف يحدث بعد ذلك ، ولقلنا مع القائلين : قد القى بينهم شرا وحربا ، ولخفنا عاقبة ما سيحدث ، ولصدق ما خفناه كما توقع ابن الأثير ، ولكنه حب الرشيد للمأمون الذى قاد الى اسوأ النتائج ، وحب الشىء يعمى ويصم كما قال ابن الأثير كذلك .

اذن فمسئولية الرشيد واضحة فيما تلا من أحداث ، وقد كان ممن دفعه الى ذلك جعفر بن يحيى البرمكى تعصبا للمأمون الذى اخواله من الفرس ، وتجلى موقف جعفر هذا لما حلف الرشيد ابنه الأمين فى الكعبة ، فقد اراد الأمين الخروج من الكعبة ، فقال له جعفر بن يحيى : « فان غدرت بأخيك خذلك الله » ، حتى فعل ذلك ثلاثا فى كلها يحلف له . وكان ذلك سببا لكراهية زبيدة لجعفر

---

(٢٤) AMIR Ali, Ashort history of the Saracenes.

(٢٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٢٨٤ .

ابن يحيى فكانت احد الأسباب وراء نكبة البرامكة (٢٦) .

وقد كان ميـل الرشيد للمأمون دون الأمين موضـوع حوار بينه وبين زبيدة زوجته أم الأمين التى عددت له محاسن ابنها عندما قال لها الرشيد : « ليس ابنك يا زبيدة اهلا للخلافة ولا يصلح للرعاية » فقالت له : « ابنى والله خير من ابنك ، واصلح لمـا تريد ، وليس بكبير سـفيه ، ولا صغير فهيه ، واسـخى من ابنك نفسـا ، واشـجع قلبا ، فقال هارون : ويحك ، ان ابنك قـد زينه فى عينك مـا يزين الولد فى عين الأبوين ، فاتقى الله ، فوالله ان ابنك لأحب الى ، الا أن الخلافة لا تصلح الا لمن كان لها اهلا ولها مسـتحقا ، ونحن مسـئولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم ، وننقلب اليه باثمهم » (٢٧) .

هل تحيز الرشيد للمامون لنقص فى الأمين ؟

لم يكن تحيز الرشيد للمأمون لنقص فى الأمين ، فالأمين نشىء تنشئة صالحة جيـدة ، (٢٨) ، فقـد كان يؤدبه الأحمـر النحوى الذى قال فى ذلك : « بعث الى الرشيد لتأديب واده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يـا أحمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسـه ، وثمرة قلبه ، فصـير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، اقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، ورو‌ه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره جوامع الكلم وبداه ، وامنعه الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشـم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنـه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » (٢٩) .

وهكذا رسم الرشيد بنفسـه للأحمر النحوى طريقة تأديبه وتقويمه واعداده لجلائل الأمور . ولم يكن الأمين بأقل من المامون فى مذهبة وجوابه يشـهد له بذلك الكسائى أحـد علماء عصره المشهورين حيث يقول : « دخلت على الرشيد ، فلما

---

(٢٦) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٣٦٤ .
(٢٧) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ١٧٤ .
(٢٨) AMIR Ali, A short history of the Saracenes
(٢٩) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٣٦٢ .

قضيت حق السليم والدعاء وثبت للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق الا خاصته ، فقال لى : يا على الا تحب أن ترى محمدا وعبد الله ؟ قلت : ما اشوقنى اليهما يا امير المؤمنين واسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما . فأمر باحضارهما ، فلم البث أن اقبلا ككوكبى افق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا ابصارهما ، وقربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه ، فدنوا ، فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرنى أن استقرئهما وأسالهما ، ففعلت ، فما سالتهما عن شىء الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لى : يا على ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت يا أمير المؤمنين :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة ... يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت فى الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما اغر ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فامتع الله امير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما . ثم قلت لهما هل ترويان من الشعر شيئا ؟ فقالا :

نعم ، ثم انشدنى محمد :

وانى لعف الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكل لا يوافقه شكلى
واجعل مالى دون عرضى جنة ... لنفسى،ومفضال بما كان من فضل

ثم أنشد عبد الله :

بكرت تلومك مطلع الفجر ... ولقد تلوم بغير ما تدرى
ملك الأمور على مقتدر ... يعطى اذا ما شاء من يسر
ولرب مغتبط بمرزئة ... ومفجع بنوائب الدهر
وترى قناتى حين يغمدها ... عض الثقاف بطيئة الكسر

فما رايت احدا من أولاد الخلفاء واغصان هذه الشجرة المباركة ادرب السنا ولا إحسن الفاظا ولا اشد اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ، ودعوت

لهمـا دعاء كثيرا ، وامن الرشـيد على دعائى ، لم ضمهمـا اليـه ، وجمـع يده عليهما ـ ، فلم يبسـطها حتى رايت الدموع تتحدر على صدره ، وقد قال الرشيد للكسائى بعد ان امـر ولديه بالخروج : « كانك بهما وقـد حم القضـاء ، ونزلت مقادير السـماء ، وبلغ الكتـاب اجله ، قـد تشتتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهـر تماديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهمـا حتى تسـفك الدمـاء ، وتقتـل القتلى ، وتهتك سـتور النسـاء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى » (٣٠) .

وها هو العمانى يقوم بحضرة الرشـيد خطيبا فيقرظ محمدا ويحرضـه على تجديد العهـد له ، فلما انتهى النعمانى من كـلامه قال له : ابشر يا عمانى بولاية العهد له ، فقال : اى والله يا امير المؤمنين سرور المعشـب بالغيث والمراة النزور بالوليد والمريض المدنف بالبرء ، لأنه نسـيج وحـده ، وحامى مجـده وشـبيه جده (٣١) . فقال الرشـيد : فما تقول فى عبد الله ؟ قال : مرعى ولا كالسـعدان ، فتبسـم الرشـيد وقال : قاتله الله **ما اعرفه بمواطن الرغبـة** ، اما والله انى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسـك المهدى وعز نفس الهادى (٣٢) .

وكما نرى ، كانت شـخصية الأمين باكثر من شـهادة لا تقل عن شـخصية المأمون : فهو مثله فى الثقافة والتعليم (٣٣) ، فهو يقرا القرآن ويعرف النحو ويحفظ الشـعر يزينه الهدوء والوقـار ، وهو الى جانب ذلك كمـا يقول المسـعودى : « فى نهاية الشـدة والقوة والبطش والبهـاء والجمال » (٣٤) .

وكان الأمين كذلك يتميز بقـوة جسـدية خارقة حتى انه ليروى انه صـارع اسـدا فقتله حيث قصـده الاسـد حتى دنا منـه « فضرب الأمين بيـده الى مرفقة ارمينية ، فامتنع منـه بهـا ، ومـد السـبع يـده اليه فجذبها الأمين وقبض على اصل اذنيـه ، وغمزه ثم هزه أو دفع به الى خلف فوقع السبع ميتا على مؤخره ،

---

(٣٠) المسعودى : مروج الذهب ﺣ ٣ ص ٣٦١ .
(٣١) المسعودى : نفس المصدر ﺣ ٣ ص ٣٦٢ .
(٣٢) المسعودى : نفس المصدر ﺣ ٣ ص ٣٦٢ .
(٣٣) AMIR Ali, A short History of the saracenes, p. 255.
(٣٤) المسعودى : المصدر السابق ﺣ ٣ ص ٤٠٣ .

وتبادر الناس الى الأمين فاذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها ، فأتى بمجبر فرد عظام أصابعه الى مواضعها ، وجلس كأنه لم يعمل شيئا ، فشقوا بطن الأسد فاذا مرارته انشقت عن كبده » (٣٥) .

ولكن رغم كل ذلك فان الرشيد كان يميل الى المأمون ويفضله ، ومما يدل على ذلك تعقيبه على الأعرابى : « ما أعرفه بمواطن الرغبة » .

وهو برغم ميل العرب بصفة عامة الى تولية الأمين كان يرى انهم « ذوو خطل لا يفهمون اذا ما معشر فهموا » ، فهو كان يرى المأمون بعين الرضا ، ويريد أن يرى من يزين له ذلك ، كما كان هناك من مصلحتهم تزيين ذلك الأمر له .

ويوضح ذلك قول الأصمعى : « بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى أخرى ثم انشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الراى لا نكس ولا برم

وأترك مقالة اقوام ذوى خطل لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما . ثم قال لمسرور الخادم : على بيحيي ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والاسلام جذع والايمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف ، واعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خيرة ما قد علمت ، وان أبا بكر صير الأمر الى عمر ، فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى ، فكان بعده ما علمت من الفتن التى صارت الى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته والتبذير لما

---

(٣٥) المسعودى : نفس المصدر حـ ٣ ص ٤٠٣ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٧ .

حوقه يده (٣٦) ، ومشاركة النســاء والاماء فى رأيه . وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الراى ، الموثوق به فى الأمر العظيم .

فان ملت الى عبد الله اسخطت بنى هاشـم ، وان افردت محمدا بالأمر لم آمن من تخليطه على الرعية ، فاشر على فى هذا الأمر برايك مشـورة يعم فضـلها ونفعها ، فانك بحمد الله مبـارك الراى لطيف النظر ، فقال : يا أمير المؤمنين . ان كل زلة مستقالة وكل راى يتلافى خـلا هذا العهد فان آلخطأ فيه غـير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر مجلس فيه غير هذا .

فعلم الرشيد انه يريد الخلوة ، فامرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث اسـمع كلامهما . فما زالا فى منـاجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على ان عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (٣٧) .

ودخلت زبيدة على الرشـيد بعد ذلك فقالت : « مـا انصـفت ابنك محمدا حيث وليته العراق واعريته عن العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله دونه ، فقال لها : وما انت وتميز الأعمال واختبار الرجال ؛ انى تد وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ؛ وصـاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسـالم ، ومـع هذا فانا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك أن بويع » (٣٨) .

ولا ينطبق على قـول الرشـيد هذا الا قـول ابن الأثير الذى نكرره مـرة اخرى : « وحبك الشىء يعمى ويصم » .

لقد اشرك الرشـيد اذن المامون مـع الأمين بمؤامرة او بمشـورة برمكية ، ولا شك ان اختيـار خراسـان لتكون للمامون هى ثمرة من ثمـار هذه المشـورة ليكون فى خراسان بين اخواله ، فهو تقوية لهم وهم تقوية له .

---

(٣٦) ولعل ما يراه الرشيد تبذيرا هو مـا عبر عنه الأمين حين روى شعرا امام الكسـائى فاعجبه حيث قال :

وانى لعف الفقـر مشترك الغنى	وتارك شـكل لا يوافقه شكلى
واجعل مالى دون عرضى جنـة	لنفسى،ومفضال بما كان منفضل

(٣٧) المسعودي مروج الذهب حـ ٣ ص ٣٦٣ .

(٣٨) المسعودي : نفس المرجع حـ ٣ ص ٣٦٣ .

وكان هذا يعنى أن الأمـور لن تسـتقر بين الأخوين اذ كان الوضـع بصورة لصراع لابد أن ينفجر بين العرب والفرس على : لأيهما تكون السيادة .

وهذا مـا يجعلنا نميل الى ترجيح أن الغـدر كانت بذوره من ناحية الشرق وان بدت ثماره من جهة العراق ، وهذا ما سوف يوضحه توالى الأحداث .

مـاذا بعـد وفـاة الرشـيد

بـذور الغـدر :

فى سـنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م اراد الرشـيد الخروج الى خراسـان لحـرب رافع بن الليث (٣٩) ، فقال الفضل ابن سـهل للمأمون : لسـت تدرى مـا يحدث للرشـيد وهو خـارج خراسـان ، وهى ولايتك ، ومحمـد المقـدم عليك ، وان احسـن مـا يصـنع بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيـدة واخـواله بنو هاشـم ، وزبيدة واموالها ، فاطلب اليه ان يشـخصك معه ، فاشخصه معه الرشيد (٤٠) .

وكان نتيجة ذلك أن فـاز المأمون بتجديد البيعـة له على القواد الذين مـع الرشـيد ، واشهد من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجنـد مضـمومون الى المأمون ، وان جميع مـا معه من مـال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون (٤١) . وهكذا أثبت الفضـل بن سـهل بعد نظره .

ويمكن من هذا الوجه اعتبار خروج المأمون مع الرشـيد بمشـورة الفضـل ابن سـهل بداية الغدر ، وبداية خروج المأمون على الأمين ، وايذانا بقرب بـدء الصراع بين الفرس والعرب .

ونغمة الحقـد الفارسى على العـرب تظهر فى تحريض الفضـل بن سـهل للمأمون فقد قال له : « ومحمـد الأمين المقـدم عليك ، وان احسـن مـا يصـنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة واخواله بنو هاشم » ، فهى عصـبية الفرس ضـد

---

(٣٩) رافع بن ليث بن نصر بن سـيار خـرج مخالفا لهارون فى سمرقند ونزع عنه الطاعة واعلن خلعه له . الطبرى حـ ٨ ص ٣١٩ .

(٤٠) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك حـ ٨ ص ٣٣٨ ، الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦٦ ، العيون ص ٣٣٨ .

(٤١) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ .

العصبية العربية ، حيث كان محمد الأمين اول خليفة عباسى لم تلده أمة ، حيث كان أبوه وامه عربيين هاشميين ، وفى هذا قال الشاعر :

ملك أبوه وامه من نبعة   منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة من ذرى بطحائها   ماء النبوة ليس فيه مزاج

على أية حال ، توفى الخليفة هارون الرشيد بطوس فى أول جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م (٤٢) ، ووصلت أخبار الوفاة الى محمد الأمين فى بغداد بعد خمسة عشر يوما (٤٣) ، فتحول الأمين من قصر الخلد الذى كان نازلا فيه الى قصر أبى جعفر المنصور ، وامر الناس بالحضور ليوم الجمعة فصلى بهم ، وبعد أن تضيت الصلاة ، صعد المنبر ، وبعد أن حمد الله واثنى عليه نعى الرشيد الى الناس ، وعزاهم وعزى نفسه فيه « ووعدهم خيرا ، وبسط الآمال ، وآمن الأسود والأبيض » (٤٤) ، وبايعه العامة والخاصة والجند والقواد ، وامر للجند بمدينة السلام برزق سنتين .

الخلاف بين الأمين والمأمون :

كانت وفاة الرشيد وولاية الأمين تعنى كما أدرك الرشيد وكما أدرك الناس بداية الخلاف العملى بين الخليفة وتسيمه المأمون لأنهما وان كانا اخوين يتنافسان ، فالأمين يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام ، بينما المأمون يميل ان يتمتع بما حباه به الرشيد من امتيازات تماما ؛ ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب « فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الأخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد » (٤٥) .

وان كان ذلك الخلاف قد ظهرت النية عليه قبل وفاة الرشيد من جهة المأمون بتحريض الفضل بن سهل ؛ ولم يكن الأمين اسبق الى الغدر اذا

---

(٤٢) وله خمس وأربعون سنة ، وكانت خلافته ثلاثة وعشرين عاما . الذهبى دول العالم جـ ١ ص ١٢١ .

(٤٣) الطبرى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٣٦٥ ، وكان المأمون فى مرو
AMIR Ali, A short history of the Saracene, p. 254.

(٤٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٣٦٥ ،
AMIR Ali, A short history of the Saracenes. p. 254.

(٤٥) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ١٧١ .

كان لابد من تحديد أيهما بدأ بذلك ، وقد رأى الطبرى أنهما « عزم كل واحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذ عليهما العمل به » (٤٦) .

وقد كان الأمين — من ناحيته — عمل على ما ينجم عن خطر وفاة الرشيد الذى كان المأمون بصحبته وذلك حينما بلغه اشتداد المرض بالرشيد ، فارسل كتبا مع بكر بن المعتمر فى قوائم صناديق منقورة ، والبسها جلود البقر ، واوصاه بعدم اطلاع احد عليها مهما حدث ، حتى اذا توفى الرشيد دفع بالكتب الى الرجال الذين أرسلت اليهم ، فلما توفى الرشيد اطلع الفضل ابن سهل على رسائل الأمين (٤٧) التى كانت الى حسين الخادم والى عبد الله المأمون والى صالح بن الرشيد ، وقد ارسل كتاب الأمين الى المأمون فى مرو .

وهكذا أوضح محمد الأمين قدرته على وضع الأمور فى نصابها منذ أول وهلة بعد وفاة الرشيد ، وجاء فى كتابه الى المأمون : « .... وخذ البيعة عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك الأخيك ثم لنفسك ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين على الشريطة التى جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له واثباتها ، فانك مقلد من ذاك ما قلدك الله وخليفته ، واعلم من قبلك رأيى فى صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن انكرته عن بيعته أو اتهمته على طاعته ، فابعث الى برأسه مع خبره ، واياك واقالته ، فان النار أولى به » (٤٨) ، وكان مما كتبه لأخيه صالح : « ..... واعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيى فى استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، واداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم ، فان شغب شاغب أو نعر ناعر ، فاسط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » (٤٩) .

ويبدو من صيغة هذه الخطابات ان الأمين على نية الوفاء لأخويه وأنه على نية العدل فى رعيته والتصرف بحزم مع من يريد بالخلافة شرا ؛ وتلك بداية طيبة للخليفة الجديد .

---

(٤٦) الطبرى : المصدر السابق حـ ٨ ص ٣٦٥ .
(٤٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٥ .
(٤٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٦٧ .
(٤٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٦٧ .

ولدى وصـول كتـاب الأمين الى المأمون نعى الرشـيد على المنبر فى مرو ، وشق ثوبه ونزل ، وأمر للناس بمال وبايع لمحمد ونفسـه ، وأعطى الجنـد رزقا سـنة (٥٠) .

وكان يمكن للأمور أن تسـير سـيرا طبيعيـا بين الأخوين ؛ ولكن نظرة الى ما قاله الفضـل بن سـهل للحسـن الحاجب — والرشـيد مشرف على الموت — تبين أنها مـا كان لها أن تسـير كذلك ، فقد قال الفضـل للحسـن الحاجب : « الرشـيد ميت احـد هذين اليومين ، وأمر محمد بن الرشيد ضـعيف والأمـر أمر صاحبك ، مـد يدك » . فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة (٥١) .

امـا بعد وفـاة الرشـيد فان القـواد والجنـد الذين كانوا معـه وبايعوا المأمون ، رجعوا عن ذلك ، وصمموا على اللحاق بالخليفة الأمين ، وقال الفضـل ابن الربيع : « لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى مـا يكون من أمره » (٥٢) ، وأمـر الناس بالرحيل فرحلوا فرحين ليلحقوا بأهلهم ومنازلهم فى بغداد ، ضاربين عرض الحائط بالعهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون (٥٣) .

ولم يكن للأمور أن تسير سـيرا طبيعيا والفضـل بن سـهل ينفخ من روحه المتعصـبة فى نفس المأمون (٥٤) حيث أشـار عليه بأن يرسـل كتبـا الى القـواد

---

(٥٠) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٨ ص ٣٧٠ .

(٥١) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٨ ص ٣٧٠ وأنظر .
AMIR Ali, A short history of Saracenes, p. 255. p. 255.

(٥٢) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٨ ص ٣٧٠ ، العيون ص ٣٢٠ ، الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٧ .
ويمكن قراءة الدوافع النفسية التى دفعت الفضـل بن الربيع الى الوقوف خلف الأمين فى الدراسة القيمة التى أوردها صاحب « موسـوعة التاريخ الاسـلامى » ﺣ ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ وانظر .
AMIR Ali, Ibid, p. 255.

(٥٣) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك ﺣ ٨ ص ٣٧٠ ، الوزراء والكتـاب ص ٢٧٧ ، وانظر .
AMIR Ali, A short history of Saracenes,

(٥٤) ويشبه دور الفضل بن سهل مع المأمون دور يحيى البرمكى مع الرشيد .
ماجد : تاريخ الخلافة العباسية ص ٢١٣ ، ويشبه بعض المؤرخين الفضل بن سهل بالامام الذى التفت حوله الخراسانية الجديدة كما كان ابو العباس الشبعار الذى =

الناكثين بعهده تلحقهم ليغيروا رايهم ، وهو يعلم أن ذلك لن يتحقق ، وخالف فى ذلك راى غيره من قواد المأمون الذين اشاروا عليه بتجريد جند تلحق بهم ، وقال للمأمون : « ان فعلت ما اشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد » (٥٥) .

ووصلت الكتب الى القواد العائدين الذين اظهروا وحدة رايهم فى التوجه الى الأمين وعدم العودة الى المأمون ، وقال الفضل بن الربيع : « انما انا واحد منهم » ؛ بل لقد تشدد بعضهم كعبد الرحمن بن جبلة الذى شد على رسول المأمون ، وامر رمحه على جنبه ، وقال له : قل لصاحبك : والله لو كنت حاضرا لوضعت الرمح فيك ، هذا جوابى » ثم نال من المأمون (٥٦) .

ولم يعدم المأمون تحريض الفضل بن سهل سافرا هذه المرة حيث قال له فيما قاله بنفسه : « أعداء قد استرحت منهم ، ولكن افهم عنى ما اقول لك ؛ ان هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام ابى جعفر فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ، وقال بعضهم : طلب بدم أبى مسلم ، فتضعضع العسكر بخروجه بخراسان ، فكفاه الله المؤنة ، ثم خرج بعده يوسف البرم وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤنة ، ثم خرج استاذ سيس يدعو الى الكفر ، فسار المهدى من الرى الى نيسابور فكفى المؤنة ، ولكن ما أصنع : أكثر عليك ، اخبرنى كيف رايت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رايتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، قلت وكيف بك وانت نازل فى أخوالك ، وبيعتك فى أعناقهم ! كيف يكون اضطراب أهل بغداد ! اصبر وانا أضمن لك الخلافة ــ ووضعت يدى على صدرى ــ قال : قد فعلت ، وجعلت الأمر أليك فقم به . قال : قلت والله لأصدقنك » (٥٧) .

هكذا بدا الأمر سافرا ، فالفضل بن سهل يضمن الخلافة للمأمون ، والمأمون يوافق ويوكل الأمر اليه ، مع وضوح أبعاد الخطر الناجم امامه ، حيث يلوح له

= سارت خلفه الخراسانية القديمة . العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٠ د. حسن محمود .

(٥٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٧١ ، والعيون ص ٣٢١ .

(٥٦) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٧١ ، العيون ص ٣٢١ .

(٥٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٧٢ ، الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

بالاعتماد على العصبية الفارسية ذات الأثر البعيد فى كيان وسياسة الدولة العباسية .

وهكذا يتضح بجلاء أن بذور الخلاف قد بدات من الشرق قبل وفاة الرشيد وتبلورت بعد وفاته وسوف تلوح ثمارها فى بغداد خاصة بعد انضمام الفضل بن الربيع الى الأمين حيث كان يمنى نفسه بالسيطرة على الأمين ، وبأن يكون معه الحاكم الفعلى (٥٨) .

وبدأ الصراع سافرا بين العصبيتين العربية والفارسية متسترا تحت ستار الصراع بين الأمين والمأمون .

على أنه من الجدير بالذكر أن بعضا من رؤساء القوم عارضوا الفضل ابن سهل فيما منى به المأمون ومن هؤلاء عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ ، وقد وصف الفضل شعور هؤلاء المعارضين وتقززهم من رأيه حيث قال : « فكأنى جئتهم بجيفة على طبق ، وقال بعضهم : هذا لا يحل . اخرج ، وقال بعضهم : « من الذى يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه » (٥٩) .

وقد أبلغ الفضل خبرهم الى المأمون الذى كان الطمع فى الخلافة قد استولى عليه فقال للفضل : « قم بالأمر » (٦٠) .

ورأى الفضل بن سهل أن يحتال للأمر بتقريب بعض رؤساء القبائل اليه ، وأن يظهر المأمون بمظهر الحريص على الحق وعلى العمل على احياء السنة ، وأن يقعد على اللبود ، وأن يرد المظالم . ولخص الفضل تنفيذ خطته فقال : « فكنا نقول للتميمى نقيمك مقام موسى بن كعب ، وللربعى : نقيمك مقام أبى داود خالد بن ابراهيم ، ولليمانى : نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم ؛ فكنا ندعو كل قبيلة الى نقباء رءوسهم ، واستملنا الرءوس وقلنا لهم مثل ذلك ، وحططنا عن خراسان ربع الخراج ، فحسن موقع ذلك منهم ، وسروا به ،

---

(٥٨) AMIR Ali, A short History of the Saracenes. p. 255.
(٥٩) الطبرى : المصدر السابق حـ ٨ ص ٣٧٢ ، الجهشيارى : المرجع السابق
(٦٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٧٢ .

وقالوا : ابن اختنا ، وابن عم النبى صلى الله عليه وسلم » (٦١) .

وهكذا ، وبتأثير الفضل بن سهل تفاقمت الأمور بين الأخوين ، خاصة وقد شاءت الاقدار ان يكون الى جوار الأمين الفضل بن الربيع الذى راح من ناحيته يحرضه ضد اخيه ، ولا شك أنه كان حريصا اشد الحرص الا تتحول الأمور الى المأمون ولاسيما بعد موقفه منه .

وكان لابد للأمور ، أن تسفر عن وجهها القبيح ، ولاح ذلك فى سنة ١٩٤ هـ / ٨١٠ م ، وفى ذلك يقول الطبرى : « وفيها مكر كل واحد منهما بصاحبه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وظهر بينهما الفساد » (٦٢) .

فمن ناحية الأمين رأى له الفضل بن الربيع أن يقدم ابنه موسى (٦٣) ، ولم يكن هذا رأى الأمين عند بدء خلافته ، ويقرر الطبرى ذلك صراحة فى قوله : « ولم يكن من رأى محمد ولا عزمه ، بل عزمه — فيما يذكر عنه — الوفاء لأخويه ، عبد الله والقاسم » (٦٤) .

وكانت حجة الفضل بن الربيع لدى الأمين أن البيعة كانت للأمين قبل أخويه ثم ادخلا فيها واحداً بعد واحد (٦٥) ؛ وآزره فى هذا الراى القائد على ابن عيسى والسندى وغيرهما .

وتأثر الأمين بآرائهم خاصة وهو يشتم رائحة الخطر تفوح من ناحية اخيه مما يهدد القسم الشرقى من الخلافة وعليه أن يعمل على وحدة الخلافة وكرامتها (٦٦) ، وذلك بأن يحول دون انفصال الأجزاء الشرقية .

---

(٦١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٧٢ ، العيون ص ٣٢١ ، الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٦٢) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٧٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٧ .
(٦٣) H. IBRAHIM, Islamic and history culture, p. 122.
(٦٤) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٧٤ وأنظر :
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 258.
(٦٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٧٤ .
(٦٦) ماجد : العصر العباسى الأول ص ٢٩٥ .

وكان الأمين — فى هذا الصدد — يرى أن ما حدث من تقسيم كان بتدبير من البرامكة ، وبخاصة جعفر بن يحيى الذى غرس لبنى العباس غرسا مكروها لابد من اجتثاثه من جذوره لتستقيم الأمور (٦٧) .

واذا كان الأمين قد رأى ذلك مدفوعا بحقه كخليفة يجب أن تجتمع عليه كلمة الأمة لأن ولاية الخليفة عامة (٦٨) ، فقد رأى المأمون من جهته — وبتحريض الفضل ابن سهل — توحيد الدولة كلها تحت خلافته بعد القضاء على الأمين .

واستعان الأمين فى أمره بالقومية العربية التى كان يمثل بالنسبة لها أملا منشودا فى استعادة مكانة كانت لها ، فى حين استعان المأمون بالعصبية الفارسية (٦٩) .

وقد كتب المأمون الى الفضل بن سهل — آنذاك — يبين نهجه ان صارت اليه الخلافة حيث قال : « جعلت الله على نفسى ان استرعانى أمور المؤمنين ، وقلدنى خلافته فى خلقه ، العمل فيهم بكتابه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم » (٧٠) .

وقد عبر الفضل بن سهل عن طموحه الى استعادة مجد الفرس والتحكم فى دولة المأمون فى حديثه مع أبى محمد اليزيدى ، حيث قال له اليزيدى : « وانى لأرجو أن يبلغك الله مبلغا تتمكن منه معه ، وتملك ألف ألف درهم » فاستشاط ابن سهل غضبا ، وقال لليزيدى : « تقول لى تملك ألف ألف درهم ؟ » قال : « فما انكرت ؟ وما الذى تريد ؟ » قال : « والله ما صحبت هذا الأمير لأكسب معه مالا قل أو كثر ، وان همتى لتتجاوز كل ما يجوز أن يملك » ، قال : فلما صحبته أخرج خاتمه من يده ، ثم قال : ليجوز طابع هذا فى الشرق والغرب ، لهذا خدمته ، ولهذا صحبته » (٧١) .

---

(٦٧) ماجد : نفس المصدر ص ٢٩٥ .
(٦٨) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٣ .
(٦٩) ماجد : العصر العباسى الأول ص ٢٩٥ وأنظر
H. IBRAHIM, Islamic and history Culture, p. 122.
(٧٠) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٧٩ .
(٧١) الجهشيارى : نفس المصدر ص ٢٨٠ .

وعلى الجملة ، فقد بدأت الفتنة تأخذ طريقها الى التصاعد لتتقد عما قليل نارها آكلة الأخضر واليابس ، عندما طلب الأمين من أخيه طلبات كلها من حقه وكان الرد الاعتذار دائما .

حاول الأمين معرفة مدى طاعة المأمون له ، فى محاولة منه لاثبات تمكنه من التصرف فى شئون دولته كلها ، وأن سلطانه يشمل ما تحت يد المأمون ، فكتب الى العباس بن مالك عامل المأمون على الرى يأمره بأن يرسل اليه غرائب غروس الرى (٧٢) .

وارسل عامل الرى الى الأمين ما طلبه ، ولم يخبر المأمون أو الفضل بن سهل تسليما بحق الأمين فى مثل هذا الطلب أو حفاظا على العلاقة بين الأخوين وعلى كلا الاحتمالين لم يسىء الرجل التصرف ، ولكن المأمون عندما بلغه الخبر عزل العباس بن عبد الله بن مالك (٧٣) .

ولا شك أن هذا التصرف من المأمون كان بمشورة من الفضل بن سهل الذى كان حريصا على أن تسوء العلاقة بين الأخوين : وكان تصرف المأمون على هذا النحو يعنى رسوبه فى أول امتحان له امام اخيه ، مما يفسح المجال أمام الفضل بن الربيع لتحريض الأمين ضده .

ولا ندرى كيف كان يتصور المأمون أن يرفض عامله طلبا يسيرا للخليفة أمير المؤمنين ، وهل كانت طاعة عمال المأمون له تستلزم عصيانهم للخليفة ؟ .

رأى الأمين — وبمشورة الفضل بن الربيع — أن يؤكد سلطانه على شتى نواحى بلاد الخلافة ، فأرسل الى المأمون يسأله أن يتنازل له عن كور من كور خراسان ، وأن يتولى أمرها بعض عمال الأمين .

لجأ المأمون الى الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل يستشيرهما فى ذلك فأشارا عليه بعدم تلبية مطلب أخيه فى حين أشار عليه آخرون من الرؤساء والأعلام باجابة أخيه الى مطلبه وقالوا : « اذا كان الأمر مخطرا فاعطاؤك من

---

(٧٢) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٣ .
(٧٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ﺣ ٨ ص ٣٧٥ .

نازعك طرفا من بغيته امثل من أن تصير بالمنع والمكاشفة » ، وقالوا : « لئن خيفت للبذل عاقبة ، ان اشد منها لما يبعث الاباء والفرقة » (٧٤) ، ولم يكن راى هؤلاء منحازاً الى الامين ولكنه صوت العقل . فهل استمع المأمون اليهم ؟ .

لم يستمع المأمون الى راى هؤلاء واستمع الى راى الفضل الذى لم يعجبه ــ كذلك ــ رايهم ، حيث قال الفضل : « ايها الأمير ، اسعدك الله ، هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ليستظهر بها عليك غدا على مخالفتك ؟ وهل يصير الحازم الى فضلة من عاجل الدعة بخطر يتعرض له فى عاقبة ؟ » (٧٥) .

وارسل المامون الى اخيه يرفض طلبه محتجا بأن أمير المؤمنين هارون الرشيد قد جعل اليه ذلك ، وان ليس لمحمد ان يطالبه بذلك .

والحق ان طلب الأمين من المأمون التنازل عن قسم مضموم لخراسان ضما مؤقتا ، وارجاعه الى ما كان عليه ، وان بدا مخالفا لظاهر الشرط الا انه طلب من حق الأمين صاحب السلطان (٧٦) .

كان للأمور بعد ذلك أن تصل الى مداها توكيدا لسلطة الخليفة على بلاد الخلافة ، وعملا على توحيدها ؛ ومع ذلك ارسل الأمين كتابا الى المأمون يعلمه فيه الحجة فيما طلبه منه فقال : « اما بعد ، فان أمير المؤمنين الرشيد ، وان كان افردك بالطرف ، وضم ما ضم اليك من كور الجبل ، تأييدا لامرك ، وتحصينا لطرفك ، فان ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك . وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ، ثم تتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده ، وقد ضم لك الى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لاحاجة الك فيها ، فالحق أن تكون مردودة فى اهلها ، ومواضع حقها ، فكتبت اليك اسالك رد تلك الكور الى ما كانت عليه من حالها ، لتكون فضول ردها مصروفة الى مواضعها ، وان تاذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى الينا علم ما نعنى به من خبر طرفك ،

---

(٧٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٧٨ .
(٧٥) الطبرى : نفس المرجع حـ ٨ ص ٣٧٨ .
(٧٦) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٤ .

فكتبت تلط دون ذلك بما ان تم امرك عايه صيرنا الحق الى مطالبتك ، فأثن عن هوك اثن عن مطالبتك ان شاء الله » (٧٧) .

ولم يكن للمامون ان يجيب طلبه ، ولم يتح ارسل الأمين فرصة مناقشته ، وعادوا الى الأمين بتهديد من المامون حيث قال لهم : « .... واعلموه انى لا ازال على طاعته ، حتى يضطرنى بترك الحق الواجب الى مخالفته » (٧٨) .

وكان التلويح بالمخالفة على هذا النحو هو المخالفة بعينها ، ولم يبق أمام الأمين غير الطريق الذى يحفظ له وللخلافة المهابة ، وهو اخضاع المامون بطريق أو بآخر ، خاصة وقد وقع عليه رد اخيه ومعاملته لرسله وقعا اليما « وتخمط غيظا بما تردد منه فى سمعه » (٧٩) .

اشتداد الخلاف :

كانت الخطوة التالية التى اقدم عليها محمد الأمين خطوة تتفق وتوالى الأحداث والمكاتبات ، فقد امر الأمين بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء للمامون والمؤتمن (٨٠) ، ثم انه عزل المؤتمن عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الشام وقنسرين (٨١) والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة بن خازم .

وجاء الرد العملى من المامون بالشر — لدى علمه بما فعله الأمين مع المؤتمن — حيث أسقط اسم الأمين من الطرز وقطع البريد عنه (٨٢) .

ونحن نرى حتى الآن أن الأمين لم يخلع المامون ، وانما عزل المؤتمن ، ومع ذلك فان رد المامون جاء متسرعا بناء على مشورة الفضل بن سهل ، وبناء على الاستنباط ، حيث راى أن اقدام الأمين على عزل اخيه المؤتمن واستدعائه الى مدينة السلام ، وأمره بالدعاء لابنه موسى بالامرة ، ومكاتبته الأمصار بذلك

---

(٧٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٨٠ .
(٧٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٨٠ .
(٧٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٣٨١ .
(٨٠) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٣٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٧ .
(٨١) قنسرين : كانت قنسرين بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وبعض يدخل قنسرين فى العواصم . ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص٤٠٤ .
(٨٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٣٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٧ .

« تدبير عليه فى خلعه وانه تدبير الفضل بن الربيع » (٨٣) .

وكان رد المأمون هو ان « قطع البريد عن الأمين ، واسقط اسمه من الطرز والضرب على الدنانير » (٨٤) ، ثم أن المأمون راح بمشورة الفضل بن سهل يجمع قوته ، فكاتب جبغويه ملك طخارستان ، وخامان ملك الترك ، ورتبيل ملك كابل ، وقرب اليهم ، وكان الفضل بن سهل قد نصحه فى أمرهم قائلا : « واكتب الى جبغويه ، وخاقان فولهما بلادهما ، وابعث الى ملك كابل بعض هدايا خراسان ووادعه ، واترك للك اترابنده ضريبته ، ثم اجمع اليك أطرافك ، وضم جندك ، واضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال » (٨٥) .

وكان على الأمين الوقوف فى وجه اخيه الذى جاهره بالعصيان واسقط اسمه من السكة ، وقطع البريد عنه ، فأمر فى سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م « باسقاط ما كان ضرب لأخيه المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان فى سنة ١٩٤ هـ لأنها لم يكن عليها اسم الأمين » (٨٦) ، وامر فدعى لموسى بن الأمين على المنابر ، ولقبه الناطق بالحق ولابنه الآخر عبد الله ولقبه القائم بالحق (٨٧) ، ونهى عن الدعاء على المنابر فى عمله للمأمون والقاسم (٨٨) .

ويقول ابن الأثير : « وقطع ذكر المأمون لقول بعضهم » (٨٩) .

ولا نكاد نرى فيما فعله الأمين الا رد فعل عمليا ضد تصرف المأمون الذى كان يعني بتصرفه عدم الاعتراف بأخيه الخليفة واستقلاله بالجزء الشرقى من الخلافة ، وهو شيء خطير لا يمكن أن يسكت عليه الأمين لانه ليس من حق

---

(٨٣) مجهول : العيون ص ٣٢٢ .
(٨٤) مجهول : نفس المصدر ص ٣٢٢ ، الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٣ .
(٨٥) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٠ ، ماجد : تاريخ الخلافة العباسية ص ٢٩٨ .
(٨٦) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٢ ، الطبرى تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٨٩ .
(٨٧) ابن الأثير حـ ٥ ص ١٤٢
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 258.
(٨٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٣٨٩ .
(٨٩) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٢ .

المأمون أن يفعل ذلك « وأن مـا احدث من ذلك ليس له » (٩٠) .

وهكذا كانت الأمـور تسـير فى طريق يرسـم توالى الأحـداث وتطوراتهـا ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

على أن المأمون من جهتـه رد على خطـوة الأمين فسـمى نفسـه « امـام الهدى » (٩١) .

ولم يعد هناك بعد هذه التطورات طريق لاخضاع الأخ الذى خلع الطاعة غير طريق القوة ، ودخلت بذلك الأمور بينهما الى مرحلة خطيرة زعزعت أمن البـلاد ، وعرضـتها لحرب أهلية قاسى ويلاتها الكثيرون ، وهى حـرب فى واقعهـا بين عصبيتين تحاول كل منهما اثبات نفسـها فى مواجهة الأخرى متخذة كل منها أحـد الأخوين رمزا لهـا وينفخ فى نـار تلك الحرب الفضـل بن سـهل فى جانب المأمون بميوله الفارسية المتعصـبة والفضـل بن الربيع فى جانب الأمين .

جمـع محمـد الأمين قواده وأهـل بيته ومواليـه ، وشرح لهم مـا كان من تصرفات المأمون ، وحمس الفضـل بن الربيـع الأمين والحاضرين لاتخـاذ موقف متشـدد حين قال : « لا حق لأحـد فى الامامة والخـلافة الا لأمير المؤمنين محمـد الأمين ، وأن الله لم يجعل لعبد الله ولا لغيره فى ذلك حظـا ولا نصـيبا » (٩٢) ، وانتهى الاجتماع بمنحة تقسـم على الحاضرين من موسى بن الأمين مقدارها ثلاثة ملايين درهم .

وبدأ الأمين الاسـتعداد للمواجهة الحربية ، ولم يكن عسـيرا عليه أن يعثر على القائد الذى يمكن ان تنـاط به هذه المهمة ، فهذا هو على بن عيسى صـاحب خراسان من قبـل ، وقد اخبر على بن عيسى الخليفة الأمين بأن « اهـل خراسان كتبوا اليه يذكرون انه ان خرج هو أطاعوه وانقادوا اليه » (٩٣) .

---

(٩٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٣٦٠ .
(٩١) الطبرى : نفس المصدر جـ ٨ ص ٣٨٩ والسيوطى ص ٢٩٨ .
(٩٢) الطبرى : نفس المصدر جـ ٨ ص ٣٩٠ .
(٩٣) الطبرى : نفس المصدر جـ ٨ ص ٣٩٠ وانظر

AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 258.

المواجهة العسكرية :

بادىء بدء ينبغى أن نذكر ان مقومات النجاح فى اية حرب هى : جند وفير ، ومال غزير ، وعدة وآلات ، وقادة اكفاء ، وقبل كل هذا هدف يدفع المحاربين الى الاقدام على الحرب ، وقد توفر كل ذلك بالنسبة للخليفة الأمين ، فلديه المال والجند والقادة والعدة والهدف الذى كان يعنى بالنسبة لهم املا للعنصر العربى غاب عنهم ؛ وكانوا يرجون ان يتخلصوا من سيطرة العنصر الفارسى ؛ وهم اولا وقبل كل شىء جند وقادة الخليفة أمير المؤمنين .

ومن هذا المنطلق خاض الأمين الحرب ضد اخيه المأمون ، ورأى تقليد على بن عيسى امرة قيادة اول جيش يتوجه لاخضاع المأمون ، وكان اختيار الأمين لعلى بن عيسى يقوم على كفاءة هذا القائد بالاضافة الى أن اهل خراسان كتبوا اليه يذكرون له انه ان خرج هو اطاعوه وانقادوا اليه .

وكان على بن عيسى يتمتع بهيبة قوية يؤكدها ما ذكره سفيان بن محمد من انه لما توجه على بن عيسى الى خراسان بعث المأمون الى من كان معه من القواد يعرض عليهم قتاله رجلا رجلا ، فكلهم يصرح بالهيبة ويعتل بالعلل ليجدوا الى الاعفاء من لقائه ومحاربته سبيلا » (٩٤) .

واقطع الأمين على بن عيسى كور الجبل كلها : نهاوند وهمذان ، وقم ، واصبهان وغير ذلك ، وولاه حربها وخراجها ، واعطاه الأموال ، وحكمه فى الخزائن، وجهز معه خمسين الف فارس ، كما ايده بأبى دلف القاسم بن ادريس بن عيسى العجلى ، وهلال بن عبد الله الحضرمى فأمرهما بالانضمام اليه ، وأمدهما بالأموال والرجال .

ولم يكن ثمة شك فى انتصار هذا الجيش حتى ان زبيدة ام الأمين قالت لعلى ابن عيسى : « يا على ان امير المؤمنين ان كان ولدى ، واليه انتهت شفقتى ، فانى على عبد الله متعطفة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وانما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه الكريم ، يأكل لحمه ويمقيه غيره ، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ، ولا تجبهه بالكلام ، فانك لست بنظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل ، ولا تمنع عنه جارية ولا خادما ، ولا تعنف

---

(٩٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٤١١ .

عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه وان شتمك فاحتمل منه » (٩٥) .

ثم دفعت اليه قيدا من فضة ، وقالت : « ان صار اليك فقيده بهذا القيد » ، فقال لها : « سأفعل مثل ما أمرت » (٩٦) .

ومن ناحية أخرى ، أوصى الأمين قائده بأنه اذا قاتله المأمون فليحرص على أسره (٩٧) .

وقد توفر لهذا الجيش الرجال والسلاح والكراع حتى امتلأت الصحراء بياضا وصفرة من السلاح المذهب ، وقد ذكر مشايخ بغداد « انهم لم يروا عسكرا اكثر رجالا وافره كراعا واتم عدة وسلاحا من عسكره » (٩٨) ، فقد بلغت عدة هذا الجيش عشرين الفا (٩٩) أو خمسين الفا (١٠٠) .

وعلى الجانب الآخر أوكل الفضل بن سهل مهمة حرب جيش الأمين لقائد ماهر هو طاهر بن الحسين الذى يدعوه بعض المؤرخين « ابا مسلم الجديد » (١٠١) .

وكان على بن عيسى ستهين بطاهر ويرى انه لا يقوى على لقائه ، وقال في ذلك : « انما طاهر شوكة من اغصانى ، وشرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولى الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم قال لأصحابه : « ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف ، الا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان ، فان السخال لا تقوى على النطاح ، والثعالب لاصبر لها على لقاء الأسد ، وان قلم

---

(٩٥) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٣ ، والعيون ص ٣٢٣ .
(٩٦) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٣ ، العيون ص ٣٢٣ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٨ .
(٩٧) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٣ .
(٩٨) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٣ والعيون ص ٣٢٤ .
(٩٩) Shaban, Islamic history Vol. 2, p. 43.
(١٠٠) AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 258.
(١٠١) جسن محمود : العالم الاسلامى في العصر العباسي ص ١١٠ .

تعرض لحد السـيف واسـنة الرماح ، واذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك فى اعضادهم » (١٠٢) .

وقد أرسـل على بن عيسى الى ملوك الديلم وطبرسـتان وغيرهم من الملوك بكتبه وهداياه ، ووعدهم بالصـلات ، وطلب منهم أن يقطعوا طريق خراسـان فأجابوه الى مـا طلبه .

واشـار أصحاب طاهر عليه بالاحتياط لأمره بأن يبث عيونه ليتحروا له الأخبار ، وان يخندق لأصـحابه ، ويرسـل أمامه الطلائع ، ولكنه لم يصـغ الى نصحهم استهانة بطاهر ، وقال لهم : « مثل طاهر لا يستعد له » (١٠٣) .

ولئن كانت الثقـة بالنفس شـيئا عظيما فان الغرور وخيم العاقبة، ومن ثم فان اغترار على بن عيسى بقوته كان بداية السير فى طريق الهزيمة .

على أية حال ، كان طاهر بن الحسـين على الجانب الآخر يعمـل لكل شيء حسـابه فرفض أن يقيم فى الرى حتى يأتيه المـدد من خراسـان لأن اهـل الرى « لعلى هائبون ومن سطوته مشفقون » ، وقال لأصحابه ،زكا رأيه : « ولسـت آمن ان اقمت بالرى ان يثب اهلهـا خوفا من على » (١٠٤) ، وصـمم طاهر على الخروج لملاقاة جيش على فى جيش اقل من جيشـه (١٠٥) ، وتمكن جيش على من تحقيق بعض النصر أولا ثم ما لبثت الحـال ان تغيرت أمام صـمود جيش طاهر ، ثم كان مقتل على بن عيسى نفسه بداية الهزيمة الكاملة لجيشه .

وكان مقتـل على بن عيسى على يـد شـخص يسـمى داود بن على حيث اصـابه بسـهم وهو لا يعرفه ، ولكن آخـر يعرف بطاهر الصـغير التاجى عرفه فذبحه بسيفه (١٠٦) ، ثم ان طاهرا أمر بأن تشـد يديه الى رجليه « وحمـل على خشـبة يدهق كما يحمل الحمـار الميت » ثم القى فى بئر (١٠٧) .

---

(١٠٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٣ .
(١٠٣) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٤ .
(١٠٤) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٤ .
(١٠٥) قدره ابن الأثيربأربعة آلاف جندى فقط . الكامل حـ ٥ ص ١٤٤ .
(١٠٦) العيون ص ٣٢٤ ، Shaban, Islamic history Vol. 2, p. 43.
(١٠٧) العيون ص ٣٢٤ ، BROKLMAN, History of Islamic people, p. 122.

ونكر فى اسباب هزيمة جيش على أن بعضا من أصحاب طاهر هربوا الى جيش على فجلد بعضهم واهان الباقين « فكان ذلك مما الب الباقين على قتاله » (١٠٨) ، ولكن صاحب العيون يذكر أن اثنين فقط هما اللذان انضما الى على ، وان احدهما كان من جند عيسى بن على بن عيسى — والد على — الذى قتله رافع بن الليث مما اثار غضب على عليه لانضمامه الى جند عدوه وهو من جنده وقال له : فانت من جندى ، وأمر بضربه مائة سوط ، وزاد ذلك الخبر لدى وصوله الى جند طاهر بن الحسين « جدا فى محاربته ونفروامنه » (١٠٩)؛ ولعل هذا هو الأقربه الى الصواب .

وكانت الهزيمة قاصمة بالنسبة للحزب العربى ، وانتصرت الخراسانية مرة اخرى فى شوال سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م (١١٠) .

وكتب طاهر بن الحسين الى المأمون يبشره بهذا النصر : « كتابى الى أمير المؤمنين ، وراس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى اصبعى ، وجنده مصروفون تحت أمرى والسلام » (١١١) ، وقد ارسلت راس على بن عيسى الى خراسان فطيف بها (١١٢) .

ويبدو أن المأمون والفضل بن سهل — رغم كفاءة طاهر — كانا فى شك من امكانية تحقيق نصر سريع ، ولذا فان جيشا آخر بقيادة هرثمة بن أعين كانت على اهبة الاستعداد الى الذهاب الى طاهر نجدة له ، ولكن ورود كتاب طاهر ألغى مهمة هذا الجيش .

وكان سرور الفضل بن سهل بكتاب طاهر بالنصر عظيما ، وقد عبر عن مدى سروره بذلك فدخل على المأمون وسلم عليه بالخلافة (١١٣) .

---

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٥ .
(١٠٩) العيون ص ٣٢٤ .
(١١٠) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٥ .
(١١١) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٥ ،
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 258.
(١١٢) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٥ .
(١١٣) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٥ ، احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٣ ص ٣٢٢ .

ولا شك ان وقع هذه الهزيمة كان اليما على نفس الأمين ، حيث كان قد وضع عليها املا كبيرا فى انهاء الصراع بينه وبين المامون بعد ان تمكن من النصر واسر المامون ، ولا يصدق ما يروى من انه لم يهتم لسماعه بخبر هزيمة جيشه وقتل قائده وانه آنئذ كان يصيد السمك وانه قال لمن حمل اليه هذا النبأ الخطير : « ويلك دعنى فان كوثرا (غلام للأمين) قد اصطاد سمكتين ، وانا ما صدت شيئا » (١١٤) ، فهو لا يعدو أن يكون نوعا من التشنيع .

وهكذا انتهى اول صدام مسلح بين الأخوين بهزيمة مريرة للأمين نتيجة لاغتزار قائده واستهانته بمقدرة طاهر ، وتصرفه الخاطىء فى ميدان القتال حيال من انضم اليه ، ونتيجة لخوض طاهر القتال بتصميم ومهارة وبثه الحماس فى روح رجاله حتى شنوا ضد عدوهم « حملة خارجية » (١١٥) .

ولعل من الغريب بعد ذلك أن يطلق المؤرخون على الأمين ، وهو ما زال الخليفة ، وهو أمير المؤمنين الذى يحاربه من أجل استرداد الخلافة سيطرتها الكاملة التى يهددها خطر الانقسام ، لقب « المخلوع » (١١٦) .

وكان لهزيمة جيش الأمين اثرها السيىء فى بغداد ، حتى انها دفعت ببعض القواد الى محاولة استغلال الهزيمة لصالحهم ، فدفعوا جنودهم الى الشغب مطالبين بأرزاقهم ، وتصدى لهم القائد عبد الله بن خازم وجماعة من قواد الأعراب، وكادت تكون فتنة ؛ ولكن الأمين رأى — فى هذا الوقت — تجنب الدخول فى معارك جانبية لا تعرف نتائجها ، فأمر عبد الله بن خازم بتركهم ، وأمر لهم بأرزاق اربعة اشهر ، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقواد الخواص بالصلات والجوائز (١١٧) .

---

(١١٤) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٥ ، وأنظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٩ .

(١١٥) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٥ .

(١١٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٤١٢ .

(١١٧) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٢ .

توجيه الأمين لعبد الرحمن بن جبلة الأبناوى :

راى الأمين بعد انهزام جيشه الأول ارسال جيش آخر لحرب طاهر ، واختار لذلك قائدا كفئا شجاعا هو عبد الرحمن بن جبلة الأبناوى ، الذى كان جيشه يضم عشرين الف رجل من الأبناء ، وعمل الأمين على اعداد كل ما يلزم هذا الجيش ليكون عدة للنصر ، فحمل عبد الرحمن الأموال ، وقواه بالسلاح والخيل ، واجازه بجوائز ، وولاه حلوان الى ما غلب عليه من أرض خراسان « وندب معه فرسان الأبناء ، واهل البأس والنجدة والغناء منهم » ، ثم زود القائد بنصائحه « فأمره بالاكماش فى السير ، وتقليل اللبث والتضجع ، حتى ينزل مدينة همذان فيسبق طاهرا اليها ، ويخندق عليه وعلى اصحابه ، ويجمع اليه آلة الحرب ، ويغادى طاهرا وأصحابه الى القتال » كما نصحه « بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به على من الاغترار والتضجع » (١١٨) ، وفوضه تفويضا كاملا فى التصرف فى كل ما يريد العمل به (١١٩) .

هذا ما كان من جانب الخليفة الأمين : جهز جيشا قويا ، واختار له القائد الشجاع الكفء ، وزوده بالمال والسلاح ، وزود القائد بالنصائح التى كان فى بعضها محاولة تلافى ما وقع فيه القائد السابق على بن عيسى من خطأ « الاغترار والتضجع » فماذا كان من امر ذلك القائد وامر ذلك الجيش ؟

لقد التقى الجيشان : جيش عبد الرحمن وجيش طاهر ، وطال بينهما القتال ، وصبر كل من الفريقين فى مواجهة الآخر ، وكثر القتلى والجرحى بينهما .

ورأى عبد الرحمن أن النصر فى حاجة الى مزيد من الصبر والجد فى القتال فراح يستنهض همم رجاله وخطب فيهم قائلا : « يا معشر الأبناء ، يا ابناء الملوك والفاف السيوف ، انهم العجم ، وليسوا باصحاب مطاولة ولا صبر ، فاصبروا فداكم ابى وامى ! » واخذ يمر على مواقع رجاله وهو يقول لهم : « اصبروا ، انما صبرنا ساعة ، هذا أول الصبر والظفر » (١٢٠) .

وضرب عبد الرحمن القدوة لرجاله حيث اندفع يقاتل بنفسه قتالا شديدا ،

---

(١١٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(١١٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٣ .
(١٢٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٤١٤ .

وتبعه اصحابه ، ولكن جنـد طاهر ثبتـوا ولم يتزحزحوا رغم ذلك ، بـل وتمكنوا من قلب سـير المعـركة بعد ان قتلوا حامل علم عبد الرحمن ، وتمكنوا من زحزحة جنـد عبد الرحمن حتى دخلوا مدينة همذان ، وتمكن طاهر من احكـام الحصـار على باب المدينة ، ومع ذلك كان عبد الرحمن يخرج فى كـل يوم فيقاتل على ابواب المدينة ؛ ويرمى أصـحابه أصـحاب طاهر بالحجارة من فوق السـور ، ولكن ذلك لم يؤد الي فك الحصـار .

وزاد الحصـار على عبد الرحمن وجنـوده عندما تمكن طاهر من منع المؤن عنهم ، وصـاروا فى وضـع سيىء ، وكان لابد لعبد الرحمن من التصرف حيث ان عنصر الزمن قد يكون فى غير صالحه .

ورأى عبد الرحمن أن يلجأ الي الخدعة ، فطلب الأمان من طاهر بن الحسين ، فأمنه طاهر (١٢١) .

ووصلت أنباء تعثر عبد الرحمن فى تحقيق النصر الى الأمين فى بغداد فبـادر بارسـال نجدة كبيرة على جنـاح السرعة بقيـادة عبد الله واحمد ابنى الحرشى ، وأمرهما بالانضمام الى جيش عبد الرحمن والانضواء تحت امرته .

وقبـل وصـول هذه النجدة اسـتغل عبد الرحمن بن جبلة تأمين طاهر له ولجنده ، وتحين الغرة فركب فى أصـحابه وهجم على جنـد طاهر بن الحسين ، الذين يبدو أنهم كانوا متيقظين لتحركاته فلم تربكهم المفـاجاة ، وثبتوا فى حربه ، ودارت معـركة هائلة ، وصـفها الطبرى بقوله : « فاقتتلوا اقتتالا منكرا ، حتى تقطعت السيوف ، وتقصفت الرماح » (١٢٢) .

وبلغ من اشتداد المعركة على جيش عبد الرحمن أن تركه أغلب جنـده ولجاوا الى الهرب تاركين اياه يقاتل فى قلة من اصحابه مترجلا .

ورأت هذه القلة أن لا فائدة ترجى من وراء الاسـتمرار فى القتـال فقـال له بعضـهم : « قد أمكنك الهرب فاهرب ، فان القوم قـد كلوا من القتال ، وأتعبتهم الحـرب ، وليس بهم حـراك ولا قوة على الطلب » ، ورفض عبـد الرحمن باباء

---

(١٢١) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٤ ، ٤١٥ .
(١٢٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٤١٦ .
(١٢٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٦ وابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٦

قائلا : « لا أرجع أبدا ، ولا يرى أمير المؤمنين وجهى منهزما » (١٢٤) ، وظل يقاتل حتى قتل .

هكذا لم يستطع عبد الرحمن تحقيق النصر رغم اخلاصه وشجاعته وذلك أمام كفاءة طاهر بن الحسين الذى تمكن من حصار جيش عبد الرحمن وعدم الانخداع بطلب عبد الرحمن تأمينه فظل وجنده على اهبة الاستعداد لأى لقاء مفاجيء .

على أن عبد الرحمن استحق وبحق أن يظفر بالتكريم لبلائه ورثاه الشعراء متغنين بذلك (١٢٥) .

أما النجدة التى كان أرسلها الخليفة الأمين فصادفت فى طريقها بعض الهاربين من جيش عبد الرحمن ، وعلموا أن لا فائدة ترجى من توجهها كما أن الخوف داخل قلبى قائديها ، فعادت النجدة دون الدخول فى قتال مع طاهر .

هذا ، وقد تمكن طاهر بن الحسين بعد هزيمة جيش عبد الرحمن من احراز النصر من « بلدة الى بلدة وكورة الى كورة » (١٢٦) ، كما تمكن من الاستيلاء علي قزوين (١٢٧) .

وقد شاء قدر الأمين فى عام ١٩٥ هـ / ٨١١ م هذا ، أن يظهر السفيانى (١٢٨)

---

(١٢٤) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤١٦ .

(١٢٥) وفى ذلك قال بعضهم :

الا انما تبكي العيون لفارس	نفي العار عنه بالمناصل والقنا
تجلى غبار الموت عن صحن وجهه	وقد أحرز العليا من المجد واقتنى
فتى لا يبالى ان دنا من مروءة	أصاب مصون النفس او ضيع الغنى
يقيم لأطراف الذوابل سوقها	ولا يرهب الموت المتاح اذا دنا

الطبرى : حـ ٨ ص ٤١٧

(١٢٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٤١٧ .

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٦ .

(١٢٨) هو عبد الله بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، وأمه نفيسة بنت عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب ، وكان يقول أنا من شيخى صفين يعنى عليا ومعاوية ، وكان يلقب بأبى العميطر ، الكامل حـ ٥ ص ١٤٧ ، الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٣ .

الذى كان يحاول احياء الخلافة العباسية ـ مستغلا فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون (١٢٩) ، فطرد نائب دمشق سليمان بن المنصور ، وقد تبعه الكثير من الناس فى الشام لما اشتهر عنه فيهم من العلم وحسن السيرة ، وكان أكثر أصحابه من قبيلة كلب ، وقد تمكن من اعداد جيش من اثنى عشر الف رجل ، كما تمكن من نفوذه الى دمشق وما حولها من البلاد ، ومثل ذلك ـ دون شك ـ عبئا على الأمين فى وقت عصيب ، ولكنه ارسل جيشا بقيادة الحسين ابن على بن عيسى الذى بلغ الرقة ولم يصل الى دمشق (١٣٠) .

ولم ينه حركة السفيانى الا نزاع داخلى نشأ بين اليمنية والقيسية ، انتهى بانتصار القيسية الذين دخلوا دمشق وقبضوا على رؤساء بنى أمية بل وقبضوا على السفيانى نفسه ولم تتحقق أحلام السفيانى رغم تمكنه من الهرب (١٣١) .

موقف الأمين بعد هزيمة عبد الرحمن :

رأى الأمين بعد ذلك أن يولى حرب طاهر الى أسد بن يزيد بن مزيد ، وذلك لأنه فارس العرب وابن فارسها ، وهو شديد البأس على الأعداء ، ولكن اسد بن مزيد اشتد فى طلباته ، وسأل له ولجنده الكثير « فسأل للجند رزق سنة ، وتحمل معهم أرزاق سنة ، وأن يحمل ممن معه ألف رجل على الخيل ، ولا يسأل عما يفتتحه من المدن والكور » (١٣٢) .

ورغم أن أسد بن مزيد كان يمثل أملا للأمين فى النصر على أخيه الا ان خلافا وقع بينهما حين طلب أسد بن مزيد الضغط على الأمين بضرورة طاعته والا قتل ولديه ـ اى ولدى المأمون ـ وامهما أم عيسى ابنة الهادى وكانوا لدى الأمين فثار على أسد واتهمه بالجنون حيث قال له : « أنت اعرابى مجنون ، أدعوك الى ولاية أعنة العرب والعجم ، واطعمك خراج كور الجبال الى خراسان ، وأرفع منزلتك على نظرائك من أبناء القواد والملوك ، وتدعونى

---

(١٢٩) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٣ ص ١٦٧ .
(١٣٠) الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٣ .
(١٣١) الطبرى : حـ ٨ ص ٤١٥ ، الكامل حـ ٥ ص ١٤٧ وانظر موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٣ ص ١٦٧ .
(١٣٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٤٩ .

الى قتل ولدى ، وسفك دماء اهل بيتى ، ان هذا للخرق والتخليط » (٣٣) ، ثم ان الأمين امر . بحبس اسد ، واحل محله لقيادة الجيش عمه أحمد بن مزيد الذي وصف كذلك بأنه احسن بنى مزيد طريقة ، وله بأس ونجدة وبصر بسياسة الحرب (١٣٤) .

واتى احمد بن مزيد الى الأمين بصحبة الفضل بن الربيع ، فاعتذر الأمين الى احمد بن مزيد عن حبس اسد ، وأمره بالتوجه الى حرب طاهر ، فاستجاب أحمد بن مزيد لأمر الأمين ووعده ان يبذل قصارى جهده لتحقيق النصر ، وأنه سيكون عند حسن ظن الخليفة به ، وسار فى عشرين ألف فارس ومعه كذلك عبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين ألف فارس آخرين من الأبناء ، وتوجه الجيش الى حلوان ، واستقر مقام احمد بن مزيد وعبد الله بن حميد فى خانقين (١٣٥) .

وقد حرص الأمين على تزويد أحمد بن مزيد بنصائحه قبل توجهه الى القتال فقال له : « اوصيك بخصال عدة : اياك والبغى فانه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا الا باستخارة ، ولا تشهر سيفا الا بعد أعذار ، ومهما قدرت عليه باللين ، فلا تتعده الى الخرق والشره ، واحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعني بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ، وكن لعبد الله اخا مصافيا ، وقرينا برا ، واحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله اذا استنصرك ، ولا تبطىء عنه اذا استصرخك ، ولتكن ايديكما واحدة ، وكلمتكما متفقة » (١٣٦) .

وادرك طاهر بن الحسين مدى خطورة هذا الجيش ، ورأى ان خير وسيلة لهزيمة هذا الجيش هى الايقاع بين جنوده ، فدس جواسيسه وعيونه بين جند أحمد وعبد الله ، فأرجفوا لهم بأن الأمين قد وضع العطاء لأصحابه ، وأمر لهم بالأرزاق الوافرة ، واخذوا يحتالون لايقاع الاختلاف بين الجنود .

---

(١٣٣) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٩ .

(١٣٤) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٤٩ .

(١٣٥) بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد . معجم البلدان حـ ٢ ص ٣٤٠ .

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٥٠ حاشية .

ونجح رجال طاهر فى تأليب الجند فاختلفوا ، واخذوا يقاتلون بعضهم بعضا ، وهكذا فشل جيش الأمين هذه المرة دون أن يدخل فى معارك مع طاهر بن الحسين ، وعاد الجيش منهزما دون قتال .

وعلى الجانب الآخر ، أرسل المأمون جيشا بقيادة هرثمة بن أعين الى طاهر بن الحسين ليحل محله فى حلوان ، فى حين يتوجه طاهر الى الأهواز .

وهكذا كانت الهزائم تتلاحق بقواد الأمين ، الذين كان يتحرى اختيارهم ، ويجهد فى انتقائهم ، ولهذا بدأ الخوف يدب فى قلوب جنده من لقاء طاهر بن الحسين الذى اتخذ من الوسائل ما كان يحيق بجند الأمين الهزيمة حتى من غير قتال .

وفطن الى ذلك عبد الملك بن صالح الذى أوضح مكمن الداء للأمين قائلا : يا أمير المؤمنين ، أرى الناس قد طمعوا فيك ، وجندك قد أعيتهم الهوام ، واضعفتهم الحروب ، وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم ، فان سيرتهم الى طاهر غلب بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم » (١٣٧) .

جيش عبد الملك بن صالح :

اشار عبد الملك بن صالح على الأمين أن يوليه قيادة جيش لحرب طاهر وأنه سيستعين على حربه بجند من أهل الشام لأنهم على حد قوله : « قوم قد ضرستهم الحرب ، وادبتهم الشدائد » (١٣٨) ، وأعلم الخليفة بأنهم منقادون الى طاعته ، وأخذ الأمين بنصيحته ، وولاه الشام والجزيرة ، وقواه بالمال والرجال ، واسرع فى توجيهه للقاء طاهر .

وتمكن عبد الملك بن صالح فعلا عندما كاتب رؤساء أهل الشام عند نزوله الرقة من ضمهم اليه ، فأتوه رئيسا بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة .

وشاءت الظروف أن تقع حادثة غير متوقعة حيث رأى بعض جنود خراسان الذين يقيمون فى عسكر الشام دابه كانت اخذت منه فى احدى الوقائع تحت احد الزواقيل من أهل الشام ، فأراد الخراسانى أخذها ، وحدث بسبب ذلك تشاحن

---

(١٣٧) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٥٠ .
(١٣٨) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ١٥٠ .

بين الجند والزواقيل ، وانحاز بعض الأبناء الى الخراسانيين ونشبت الحرب بينهم .

ووصلت الأنباء الى عبد الملك بن صالح ، فأرسل يطلب ايقاف ذلك ، غير ان الأبناء أكثروا من قتل الزواقيل ، مما دفع عبد الملك الى أن يضرب يدا بيد ، وهو يقول : « واذلاه تستضام العرب فى دورها وبلادها » (١٣٩) .

وادى ذلك الى ان يضطر باقى الأبناء ممن كانوا لم يشتركوا فى قتال العرب الى الانحياز الى بنى جلدتهم ، ودفع هذا الموقف اهل الشام الى أن ترك الكثير منهم جيش عبد الملك ، فتركه أهل حمص وبنو كلب ، وعامة اهل الشام (١٤٠) . وهكذا فشلت حملة عبد الملكبن صالح ، ثم ما لبث ان توفى عبد الملك نفسه بالرقة (١٤١) .

على ان ثمة تطورات حدثت بعد فشل حملة عبد الملك بن صالح حيث أعلن حسين بن على بن عيسى ادى عودته بجنده الى بغداد — العصيان على الخليفة الأمين ، ولعل ذلك كان بتدبير من الفضل بن سهل الذى قد يكون عمل على الاتصال بحسين بن على ، فقد ارسل الأمين فى طلب حسين لدى وصوله الى بغداد ، فقال للرسول الذى أرسله للأمين : « ما أنا بمفن ، ولا مسامر ، ولا مضحك ، ولا وليت له عملا ولا مالا ، فلأى شىء يريدنى هذه الساعة ؟ ، انصرف فاذا أصبحت غدوت اليه ان شاء الله » (١٤٢) .

وفعل العباس بن موسى بن عيسى اكثر مما فعلة حسين حيث وثب بالأمين ، فأخرجه من قصر الخلد ، وحبسه بقصر المنصور ، واخرج معه امه زبيدة (١٤٣) .

---

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٥١ .
(١٤٠) وكان مما قاله رجل من اهل حمص : « يا اهل حمص ، الهرب اهون من العطب ، والموت اهون من الذل ، انكم قد بعدتم عن بلادكم ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلة ، الا وفى الشر وقعتم ، وفى حومة الموت انختم ، ان المنايا فى شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير ، قبل ان ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجايل ، ويفوت المطاب ، ويعسر المهرب » الكامل ج ٥ ص ١٥١ .
(١٤١) Shaban, Islamic history Vol. 2, p. 43.
(١٤٢) ابن الأثير : المرجع السابق ج ٥ ص ١٥١ .
(١٤٣) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٥٢ .

وقد فطن البعض الى سبب تدبير حسين بن على وتساءل عن السبب فقال محمد بن خالد : « يا ايها الناس ، والله ما ادرى بأى سبب تآمر الحسين بن على علينـــا » (١٤٤) .

وقامت الحربية باخراج الأمين واطـــلاقه بعـــد أن ذكرهم البعض بمحاســن الأمين فيهم حين قال : « فهل قصر بأحد من رؤسائكم ، وعزل أحدا من قوادكم ؟ » قالوا : « لا » ، قال : « فما بالكم خذلتمـــوه واعنتم عـــدوه على اسره ، وايم الله ما قتل قوم خليفتهم الا ســـلط الله عليهم الســـيف ، انهضوا الى خليفتكم فقاتلوا عنه من أراد خلعه » (١٤٥) .

وقد هزمت الحربية حسين بن على ، وحملوه اسيرا الى الأمين فلامه عـــلى ما كان منه ، فاعتذر اليه حسين ، فأطلقه الخليفة ، ولكنه ما لبث ان هرب ، وفى أثناء هربه ســـقط من على فرســـه فقتل واخذت راسه الى الأمين ، وجدد الجنـــد البيعة للأمين بعد قتل حسين بيوم (١٤٦) .

تردى الأمور وموقف الأمين :

هكذا كانت الأمور تتردى الى الأســـوا بالنسبة للأمين ، وزاد الأمر ســـوءا ما تحقق فى جانب المأمون من انتصارات على يد قائده طاهر بن الحســـين ، فقد تمكن طاهر الذى ذهب الى الأهواز من هزيمة جيش محمد بن يزيد بن حاتم المهلبى عامل الأمين على الأهواز وقتله رغم استبساله (١٤٧) ، ثم استولى على الأهواز ، كما تمكن طاهر من الاستيلاء على واسط .

---

(١٤٤) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ١٥٢ .
(١٤٥) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ١٥٢ .
(١٤٦) ومما قيل فى مدح المهلبى :

وفى العيينى للامام ، ولم يرهبه وقع المشـــطب الذكر
ساور ريب المنون داهية لولا خضوع العبـــاد للقدر

وقال بعض المهالبة ، وقد جرح فى تلك الوقعة جراحات كثيرة وقطعت يده :

فما لمت نفسى غير أنى لم أطق حراكا ، وانى كنت بالضرب مثخنا
ولو سلمت كفاى قاتلت دونه وضاربت عنه الطاهرى الملعنـــا
فتى لا يـــرى أن يخـــذل الســـيف فى الوغى
اذا أدرع الهيجـــــاء فى النقـــع واقتنـــى

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٤٣٤ .

وأمام هذه الانتصارات بدأ بعض عمال الأمين يبايعون للمأمون : فبايع المنصور بن المهدى عامل الأمين على البصرة ، وكذلك المطلب بن مالك عامله على الموصل ، وتم كل ذلك فى سنة ١٩٦ هـ / ٨١٢ م .

وفعل عامل الأمين على الكوفة ما فعله عاملا البصرة والموصل ، ثم خضعت المدائن وصرصر للمأمون ، وبويع فى هذه السنة كذلك فى مكة والمدينة بعد أن خلع داود بن عيسى عامل الأمين عليهما الأمين وبايع للمأمون ، وكتب بذلك الى طاهر والمأمون ، ثم خرج بنفسه الى المأمون (١٤٧) .

موقف عصيب لا يحسد الأمين عليه ، ومع ذلك لم تخر عزيمة الأمين ، فعقد فى شهرى رجب وشعبان من سنة ١٩٦ هـ / ٨١٢ م نحوا من اربعمائة لواء لقواد شتى ، وأمر عليهم محمد بن عيسى بن نهيك ، والتقوا فى النهروان بأحد جيشى المأمون الرئيسيين بقيادة هرثمة بن أعين ، وتمكن من هزيمة محمد بن عيسى واسره وارساله الى المأمون (١٤٨) .

وارسل الأمين كذلك بجيوش شتى لتلقى طاهر بن الحسين فى صرصر غير انها لقيت جميعها الهزائم ، وكان الأمين لا يقصر فى بذل الأموال ليحقق النصر على طاهر ، حتى ان بعض جند طاهر انضموا الى الأمين ، ووصل عددهم الى خمسة آلاف ، فسر الأمين بوصولهم ، واغدق عليهم الأموال والأمانى « وغلف لحاهم بالغالية فسموا قواد الغالية » (١٤٩) .

ونجح الأمين عن طريق جواسيسه فى تغيير بعض رؤساء جند طاهر عليه ، فشغبوا على طاهر ، وانضموا الى جيش الأمين المتوجه الى صرصر ، ومع ذلك انتصر طاهر على هذا الجيش بعد أن رد سهام الأمين اليه ، حيث نجح فى اشعال الفتنة بين كبار رجال جيش الأمين وصغار الجند مستغلا أن الأمين حبا القواد دون الجنود ، مما الب بعض جنوده عليه فانضموا الى طاهر .

---

(١٤٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٤٣٨ .

(١٤٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٥٥ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٤٤١ .

(١٤٩) الطبرى : نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٤٢ ، ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ١٥٥ .

هكذا اخذت الهزائم تتلاحق على جيش الأمين ، وكان السبب الرئيسى وراء هزائمهم المتلاحقة قلة الثقة فى النفس التى بدات تملأ جوانحهم ، وامتلاء قلوبهم بالهيبة لجنود عدوهم نتيجة الهزائم التى حلت بهم (١٥٠) .

حصار بغداد وبداية النهاية :

بلغت الشدة مداها بالأمين حين بدات جيوش المأمون تزحف على بغداد من اتجاهين بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين حتى تم محاصرتها عندما حاصرها هرثمة من الشرق وطاهر من الغرب ، ونصبت المجانيق على بغداد ، وشق ذلك على الأمين الذى أراد أن يشحذهمة رجاله بالأموال فأمر ببيع ما فى الخزائن من الأمتعة ، كما أمر بضرب آنية الذهب والفضة ليفرقها فى أصحابه (١٥١) مما ينبىء أن اموال الدولة قد نضبت لكثرة ما انفقه الأمين منها فى حملاته المتتابعة .

ولم تفلح كل هذه الجهود ، فقد رأى قواده وجنوده أن لا فائدة ترجى بعد أن أحكم الحصار على بغداد وحضرت الخنادق حولها ، وبنيت الحيطان ايذانا بحصار قد يطول (١٥٢) .

وزادت الشدة على الأمين بعد أن انفض عنه بعض رجاله ففر القائد خزيمة ابن خازم من بغداد الى المدائن .

كما طلب بعضهم الأمان من طاهر ، وكان على راس من استأمن على ومحمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، ولما كان لهذين الرجلين من تأثير لدى الأمين كان لاستئمانهما أشد الأثر عليه ، قال ابن الأثير : « فلما استأمن هذان اشفى الأمين على الهلاك » (١٥٣) ، وقال صاحب العيون فضعف أمر الأمين جدا وايقن بالهلاك » (١٥٤) .

---

(١٥٠) مجهول : العيون ص ٣٢٨ ، وانظر : ماجد : الدولة العباسية ص ٣٠١ .
(١٥١) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٥٨ .
(١٥٢) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٤١٣ .
(١٥٣) ابن الأثير : المصدر السابق حـ ٥ ص ١٥٨ .
(١٥٤) مجهول : العيون ص ٣٣٣ .

وساد بغداد انواع الفساد والسلب حتى رحل بعض أهلها هربا من ذلك ، ورثاها الشعراء بقصائدهم الطويلة المليئة بالألم والفجيعة ، فقال بعضهم :

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق (١٥٥)

ولم يعد للأمين جيش حقيقى يحارب به تلك الجيوش المحاصرة (١٥٦) ؛ ومع ذلك تمكن الأمين من تسليح أهل بغداد الذين كانوا يحبونه فقاتلوا معه ، قال الذهبى: « وقاتلت الرعية مع الأمين فبالغوا ، وكان محببا اليهم » (١٥٧) .

بل ان الأمين أطلق المسجونين من سجنهم ليدافعوا عن مدينتهم وخليفتهم ، وتكون له بذلك جيش يبلغ مائة الف ؛ وقد وصف هذا الجيش بأنه من الرعاع (١٥٨)، وان كان يبدو انه تم تدريبه وتنظيمه فى فترة قياسية بحيث صار يشبه الجيش النظامى فقد كان « على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرناه من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير » (١٥٩) .

وكان هؤلاء القوم يحاربون وهم عراة ، وقد شدوا أوساطهم بالتبابين والزنانير ، واتخذوا لرءوسهم دواخل من الخصوص وسموها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالرمل والحصى » (١٦٠) ، وقد جعلوا فى أعناقهم الجلال والصوف الأحمر والأصفر .

---

(١٥٥) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ١٥٨ .
(١٥٦) ماجد : الخلافة العباسية ص ٣٠٣ .
(١٥٧) الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٩ .
(١٥٨) وعرفوا أيضا بالسوقة والصعاليك والسفلة والغوغاء والذعار والشطار والأوباش والعيارين . ماجد ص ٣٠٢ وانظر العيون ص ٣٣٥ .
(١٥٩) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٤١١ .
(١٦٠) المسعودى : نفس المصدر ص ٤١١ .

وكانت تلك الحرب ايذانا بخراب بغداد التى لم تصب بحرب منذ انشاها المنصور كتلك التى نشبت بين المامون والأمين (١٦١) ، فقد دارت المعارك بين العراة وجند المامون ، ولم تحسم المعركة الا بعد أربعة عشر شهرا من الحصار (١٦٢) ، مما يدل على صلابة هؤلاء العراة ، وانهم خاضوا حربا حقيقية كانت تدور من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت حتى سميته الوقعات باسم الدروب (١٦٣) .

ولم يزايل الأمل فى النصر رجال المامون حتى فى ذلك الوقت ، فقال شاعرهم :

لنا النصر بعون الله	والكرة لا الفره
وللمراق اعدائـ	ـك يوم السوء والبره
وكاس تلفظ المو	ت كريه طعمها مره
سقونا وسقيناهم	ولكن لهم اخره
أمين الله ثق بالله	تعط الصبر والنصره
كل الأمر الى الله	كلاك الله ذو القدره
كذاك الحرب احيانا	علينا ولنا مره (١٦٤)

واشتدت تلك الحرب الأهلية ، وكثر القتل فى الشوارع ينادى هذا للمامون وينادى الآخر للأمين ، ويقتل بعضهم بعضا ، وانتهبت الدور وخربت بغداد (١٦٥) .

وقد شهد قواد المامون انفسهم ببسالة هؤلاء العراة ، وقد أورد المسعودى فى ذلك القصة التالية : « وسال سائل من قواد خراسان طاهرا ان يجعل له الحرب فى يومها له فيه ، ففعل له طاهر ذلك ، فخرج القائد وقد حقرهم ، وقال : ما يبلغ من كيد هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، مع ذوى البأس والنجدة

---

(١٦١) المسعودى : مروج الذهب ﺟ ٣ ص ٤١٣ ،
AMIR Ali, A short history of the Saracenes p. 260.
(١٦٢) AMIR Ali, Ibid, p. 260.
(١٦٣) AMIR Ali, Ibid, p. 260.
(١٦٤) المسعودى : مروج الذهب ﺟ ٣ ص ٤١٣ .
(١٦٥) المسعودى : نفس المصدر ﺟ ٣ ص ٤١٤ .

والسلاح والعدة ؟ ، فبصر به بعض العراة ، وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد ، وظن أن العريان فنيت حجارته ، فرماه بحجر بقيت فى المخلاة ، وقد حمل عليه القائد ، فما اخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر ، فكاد يصرع القائد عن فرسه ، ووقعت البيضة التى على راسه ، فكر راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بناس ، هؤلاء شياطين » (١٦٦) .

وقد ذكر الشعراء هذه الشجاعة التى تميز بها هؤلاء العراة ، فقال أبو يعقوب الخريمى :

الكرخ أسواقه معطلة	يستن عيارها وعابرها
خرجت الحرب من أراذلهم	أسود غيل علت تساورها

وقال آخر :

خرجت هذه الحروب رجالا	لا لقحطان لا ولا لنزار
معشر فى جواشن الصوف يغدو	ن الى الحرب كالليوث الضوارى
ليسوا يدرون ما الفرار اذا ما	الأبطال عاذوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشد على الف	بين عريان ما لـه من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطعنة	خذها من الفتى العيار(١٦٧)

هذا ، وقد رمى طاهر بن الحسين بالسهم الأخير فى جعبته ليحسم المعارك لصالح المأمون ، فقطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرها من الطرق ، فغلت الأسعار فى معسكر الأمين . وقلت الأقوات : « وضاقت النفوس من الفرج ، واشتد الجوع » (١٦٨) .

ورغم ذلك حارب العراة بشجاعة فائقة حتى ان القتل كان اكثر فى أصحاب طاهر (١٦٩) ، وحاول الأمين ، وقد اشتدت به الحال والحصار أن يفى بالتزامات هؤلاء العراة ، فأمر بجباية الأموال من الأغنياء والتجار مما دفع بهؤلاء الي التفكير فى مكاتبة طاهر .

---

(١٦٦) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٤١٤ ، العيون ص ٣٣٤ .
(١٦٧) المسعودى : نفس المرجع حـ ٣ ص ٤١٥ .
(١٦٨) المسعودى : نفس المرجع حـ ٣ ص ٤١٥ ، الطبرى : حـ ٨ ص ٤٧٥
Shaban, Islamic history Vol. 2, p. 45.
(١٦٩) المسعودى : نفس المرجع حـ ٣ ص ٤١٦ .

ورغم أن العـــراة خسروا فى احدى معـــاركهم نحو عشرة آلاف ؛ فإنهم كانوا يقاتلون بشجاعة منقطعة النظير .

ومع ذلك فان أمر الأمين وعراته كان فى ادبار ، فكان جنـــد المأمون يقتطعون الشارع بعد الشارع من بغداد ، حتى أدرك الأمين اليأس .

النهـــاية :

اشـــتد الأمر بالأمين بعد أن اشـــتد عليه الحصار ، فشـــاور أصحابه فيما يمكنه أن يفعله ، فأشار عليه بعضـــهم باستمالة طاهر بن الحســـين اليه بالأموال ، وبأن يفوض أمره اليه ، فرفض الأمين ذلك الراى لأنه مستحيل (١٧٠) .

واشـــار عليه البعض بالخروج الى الشـــام ومصر حيث يمكنه التقوى بالجند والمال ، فتعود دولته مقبلة من جديد (١٧١) ؛ ولكن جواســـيس طاهـــر الذين كانوا يندســـون فى وســـط رجاله خذلوه عن هذا الاتجاه بعد أن كان عزم على ذلـــك « وهم به وجنح اليه » (١٧٢) .

وانتهى الأمر بالأمين الى أن فكر فى اللجوء الى قائد المأمون هرثمة بن أعين ، الذى عرفت عنه احاسيســـه العربية وقائد والده المخلص القديم (١٧٣) والذى كان أحد الذين اشتركوا فى نكبة البرامكة .

ولعل الأمين رمى من وراء ذلك الى اســـتمالة هرثمة الى صـــفه كمحـــاولة أخيرة ، أو ربما للوصـــول الى أخيه الأمين لتصـــفية الخلاف بينهما حيث كان يدرك أن طاهر بن الحســـين ان يتيح له هذه الفرصة .

واســـتقر الأمـــر على أن يســـلم الأمين نفســـه الى هرثمة ، وان تســـلم علامات الخـــلافة الى طاهر بن الحســـين ، بحيث يتقاســـم القائدان شرف استسلامه (١٧٤) .

---

(١٧٠) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

(١٧١) ماجا : العصر العباسى الأول ص ٣٠٢ .

(١٧٢) المسعودى : نفس المرجع حـ ٣ ص ٤١٩ .

(١٧٣) AMIR Ali A short history of the Saracenes, p. 261.

(١٧٤) AMIR Ali, Ibid, p. 261.

وقد رحب هرثمة بمحمد الأمين حيث التقاه بحراقة (١٧٥) فى الماء ، ووقف له رجالة اعظاما له ، وجعل هرثمة يقبل يديه ورجليه وعينيه ويقول له : « يا سيدى ومولاى ، وابن سيدى ومولاى » ، وجثا هرثمة على ركبتيه (١٧٦) .

ولكن بعض رجال طاهر من الفرس كانوا له بالمرصاد فرموا الحراقة بالسهام والحجارة ونقبوها ، فمالت وغرقت بكل من فيها ، ونجا هرثمة والأمين وبعض القواد .

لما سبح الأمين تجاه الشاطىء طالبا النجاة ، كان اصحاب طاهر فى انتظاره ، فأمسكوا به ، وقادوه الى السجن ، حيث قرر طاهر قتله فى منتصف ليلة الأحد ٢٤ أو ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ هـ / ٢٥ سبتمبر ٨١٣ م (١٧٧) .

وكان مع الأمين فى سجنه رجل يسمى احمد بن سلام ، كان فى الحراقة التى انقلبت وشهد ذلك الرجل مقتل الأمين وذكر أنه كان شجاعا حتى انه حاول أن يفتك ببعض من تولوا أمر قتله (١٧٨) ، كما يتضح من حديث ابن سلام أنه كان حتى آخر لحظات حياته رجلا يؤمن بقضاء الله وقدره ، ولا يقبل أن يلقى وزر ما حل به على وزرائه ، وذلك أن ابن سلام قال له : « قبح الله وزراءك فهم أوردوك هذا المورد » فقال له الأمين : « لا تقل فى وزرائى الا خيرا ، فما لهم ذنب ، ولست بأول من طلب أمرا فلم يقدر عليه » (١٧٩) .

وتم قتل الأمين ذبحا ، واحتزت رأسه ، وحملت الى طاهر الذى حملها الى المأمون فى خراسان ، فأظهر المأمون تأسيفه عليه ، ولكن الفضل بن سهل لم يدع فرصة لعطف الأخ على أخيه حتى بعد ان قتل بل راح ينفث سمومه فى نفس

---

(١٧٥) جمعها حراريق وحرارق ، وهى نوع من السفن الحربية الخفيفة . البقلى: مصطلحات صبح الأعشى ص ١٠٤ .

(١٧٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٨ ص ٤٨٤ ، العيون ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ وأنظر AMIR Ali A short history of the Saracenes, p. 261.

(١٧٧) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤٨٣ ، العيون ص ٣٣٩ و AMIR Ali, Ibid, p. 261.

(١٧٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٤٨٧ وابن الأثير الكامل حـ ٥ ص ١٦٥ وأنظر AMIR Ali, Ibid, p. 261.
BROKELMAN, History of Islamic People, p. 122.

(١٧٩) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٤٢١ والعيون ص ٣٤٠ .

المأمون فقال له : « الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة ، فان محمدا كان يتمنى أن يراك بحيث رايته »(١٨٠)، فأمر المأمون أن ترفع رأس أخيه على خشبة فى صحن الدار ، ومنح الجنود الاعطيات ابتهاجا بانتصاره .

وهكذا وفى ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ هـ / ٥ سبتمبر ٨١٣ م (١٨١) انتهت حياة محمد الأمين بعد فترة خلافة عصيبة استمرت أربعة أعوام وثمانية أشهر وهو فى غضارة الشباب عن عمر يناهز ثمانية وعشرين عاما (١٨٢) .

ونورد هنا هذه المقارنة التاريخية الصادقة التى أوردها أحد المؤرخين المحدثين : « كان الخراسانية جند الدولة الذين دخلوا العراق عام ١٣٢ هـ لانهاء الحكم الأموى ، فاذا بهم اليوم جند المأمون الذين دخلوا بغداد ليقتلوا خليفة ، وليضعوا حدا للنفوذ العربى الذى برز فى سماء بغداد منذ عهد الرشيد حتى مصرع الأمين ، فليس عجيبا أن تحقق الخراسانية أطماعها ، وأن تطلق يد طاهر ابن الحسين فى خراسان ، طاهر بن الحسين الذى نسميه بحق أبا مسلم الجديد » (١٨٣) .

على أن المأمون نفسه كان يرى أن فشل الأمين يرجع الى ضعف الراى وقلة الدهاء فى جانبه ، ورأى أن الأمين كان يمكن أن يتحقق له النصر لو كان له مثل ذلك ، ويتجلى ذلك فى حديثه الى الفضل بن سهل حيث قال له : « قد كان لأخى رأى لو عمل به لظفر بنا ، فقال الفضل : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ . قال : لو كتب الى أهل خراسان وطبرستان ودنباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل من أحدى حالين : اما رددنا فعله ، ولم نلتفت اليه ، فعصانا أهل هذه البلدان ، وانفسدت نياتهم ، فانقطعوا عن معاونتنا ، وأما قبلناه

---

(١٨٠) المسعودى : نفس المصدر حـ ٢ ص ٤٢٢ وانظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٠٠ .

(١٨١) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ١٥٧ .

(١٨٢) AMIR Ali A short nistory of the Saracenes, p. 262.

وقال الذهبى « كانت دولته ثلاثة أعوام وأياما ، وخلع فى رجب من سنة ست ، ومن حسب له الى موته ، فخلافته خمس سنين الا أشهرا » . الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٤ .

(١٨٣) حسن محمود : العالم الاسلامى ص ١١٦ .

وانفذناه ، فلم نجد مالا نعطى منه من معنـا ، وتفرق جندنا ، ووهى امرنا ، فقال الفضـل : « الحمد لله الذى ستر هذا الرأى عنه وعن نصحائه » (١٨٤) .

اما الأمين فيرجع اسـباب تفوق المأمون الى وجـود قائد قل أن يجود الزمان بمثله هو طاهر بن الحسين ، ويتضح هذا من قوله لمن اشـار عليـه بمحـاولة شراء طاهر واسـتمالته حيث قال لهم : « وهـل كان المأمون لو اجتهد لنفسـه ، وتولى الأمر برأيه بالغا عشر ما بلغه له طاهر ! ولقد دسست وفحصت عن رأيه ، فما رأيته يطلب الا تأثيل المكارم ، وبعد الصيت والوفاء ، فكيف أطمع فى اسـتذلاله بالأموال ، وفى غدره والاعتمـاد على عقله ! ولو قد أجاب الى طاعتى ، وانصرف الى ، ثم ناصـبنى جميع الترك والديلم ما اهتممت بمناصـبتهم ، ولكنت كمـا قال ابو الأسود الدؤلى فى الأزد عند اجارتها زياد بن أبيه :

فلمـا رآهـم يطلبـون وزيـره ... وسـاروا اليـه بعد طـول تماد
أتى الأزد اذ خاف التى لا بقا لها ... عليه ، وكان الرأى رأى زيـاد
فقالوا له أهـلا وسـهلا ومرحبا ... أصبت فكاشف من أردت وعـاد
فأصبح لا يخشى من النـاس كلهم ... عدوا ، ولو مالوا بغـوة فـساد

والله لوددت انه اجابنى الى ذلك ، فأبحتـه خزائنى ، وفوضـت اليـه ملكي ، ورضـيت بالمعاش تحت يديه ، ولا أظننى فعلته » (١٨٥) .

ويمكن أن يضـاف الى ذلك أن الأمين كان جل اعتمـاده على العـرب ، وهؤلاء كانت قد ذهبت ريحهم (١٨٦) .

امـا مسـالة لهوه وعبثه وعـدم مبالاته فهو امر لا شـك قد بولغ فيه كثيرا وان كثيرا مما كتب عنه أصـابه بعد هزيمته وانتصـار المأمون عليه مصـداقا لأن المنتصر دائما صـاحب الحق ، وانه صـاحب الصـورة المشرقة ، بينما الويل كـل الويل للمغلوب (١٨٧) .

على أن هذا اللهو والسـكر ـ ان صـدق فى بعضـه ـ فهو لم يحل دون

---

(١٨٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣١١ .
(١٨٥) الطبرى جـ ٨ ص ٥٠٧ .
(١٨٦) ماجد : العصر العباسى الأول ص ٣٠٦ .
(١٨٧) ماجد : نفس المصدر ص ٢٩٦ .

تجييش الجيوش جيشا اثر جيش مع اختيار قواد اكفاء لقيادة تلك الجيوش وامدادها بما تحتاجه من مال وسلاح وكراع وغير ذلك .

ولم يكن اللهو والسكر والمنادمة — مع ذلك — وقفا على الأمين وحده فى عصر الدولة العباسية ، فهناك غيره من خلفاء العباسيين من لهوا وسكروا ونادموا ، ولم تهتز عروشهم ، ويكفى أن نستدل على ذلك بالمعتصم صاحب فتح عمورية فانه « شرب مع الحسين الخليع نديم الأمين ونادمه » (١٨٨) .

اما تبذير الأمين للأموال الذى وصفه به المؤرخون فقال فيه بعضهم « وكان مبذرا للأموال لعابا لا يصلح لامرة المؤمنين » (١٨٩) . فان تلك الحروب التى نشبت بينه وبين اخيه وشملت مدة خلافته كلها ما كانت لتترك فى خزانة الدولة ما يتفق مع ما قيل عن اسرافه .

وليس أدل على أن كثيرا مما قيل عن الأمين ليس صحيحا تلك القصص الساذجة التى لا تتفق مع ما رأيناه فى كتاباته الى المأمون من حزم فى الأمور ومع تصميمه الى توحيد الدولة كلها تحت سلطانه كقصة السمكة الشهيرة ، وقصة نقشه على خاتم الفضل بن الربيع دون علمه كلاما قبيحا وجعله يختم الكتب بهذا حتى قال الفضل : هذا والله آخر الدولة ودمارها ، والله لا افلحت ولا افلحنا معك . ولم يــر بعض المؤرخين المدققين صحة مثل تلك القصص (١٩٠) ؛ كما استنكروا ما قاله فيه الشعراء بعد خلعه او قتله لأن تلك « سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر ، فهم ابدا مع القاهر على المقهور لأن للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب » (١٩١) .

على أن بعض الشعر الذى قيل فى هجائه يحمل فى ثناياه الكذب الصريح فقد قال أحدهم فيه :

لم تصلح للملك ولم تعطك الطاعة بالملك العرب (١٩٢)

---

(١٨٨) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٣ ص ١٧٢ .
(١٨٩) الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٢٤ .
(١٩٠) ماجد : العصر العباسى الأول ص ٣٠١ هامش (٣) .
(١٩١) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ١٧٢ .
(١٩٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٥٠٠ .

فهل هذا صحيح ؟ والم يكن العرب جميعا وراء الأمين فى حربه ضد المأمون ، وأن الحزب العربى قد القى بثقله خلف الأمين لأنه اعتقد انها فرصته الوحيدة بل فرصته الأخيرة (١٩٣) ؟ .

ولم يعدم الأمين من يبكيه ويرثيه فبكاه الكثيرون ورثوه (١٩٤) ومن أصدق مارثى به قصيدة خزيمة بن الحسن الذى لم يسلك فيها مسلك بعض الشعراء ممن صحب الأمين بعض لهوه ، قال خزيمة :

سبحانك رب العزة الصمد ماذا اصبنا به فى صبحة الأحد

وما اصيب به الاسلام قاطبة من التضعضع فى ركنيه والأود

ووصف شجاعته حين صارع من دخل عليه ليقتله فقال :

فكاد يقتله لو لم يكاثره وقام منفلتا منه ولم يكد

ثم يقول عن صدقه فى حديثه عن الأمين :

هذا حديث امير المؤمنين وما نقصت من امره حرفا ولم ازد

ثم يصر على الوفاء فيقول :

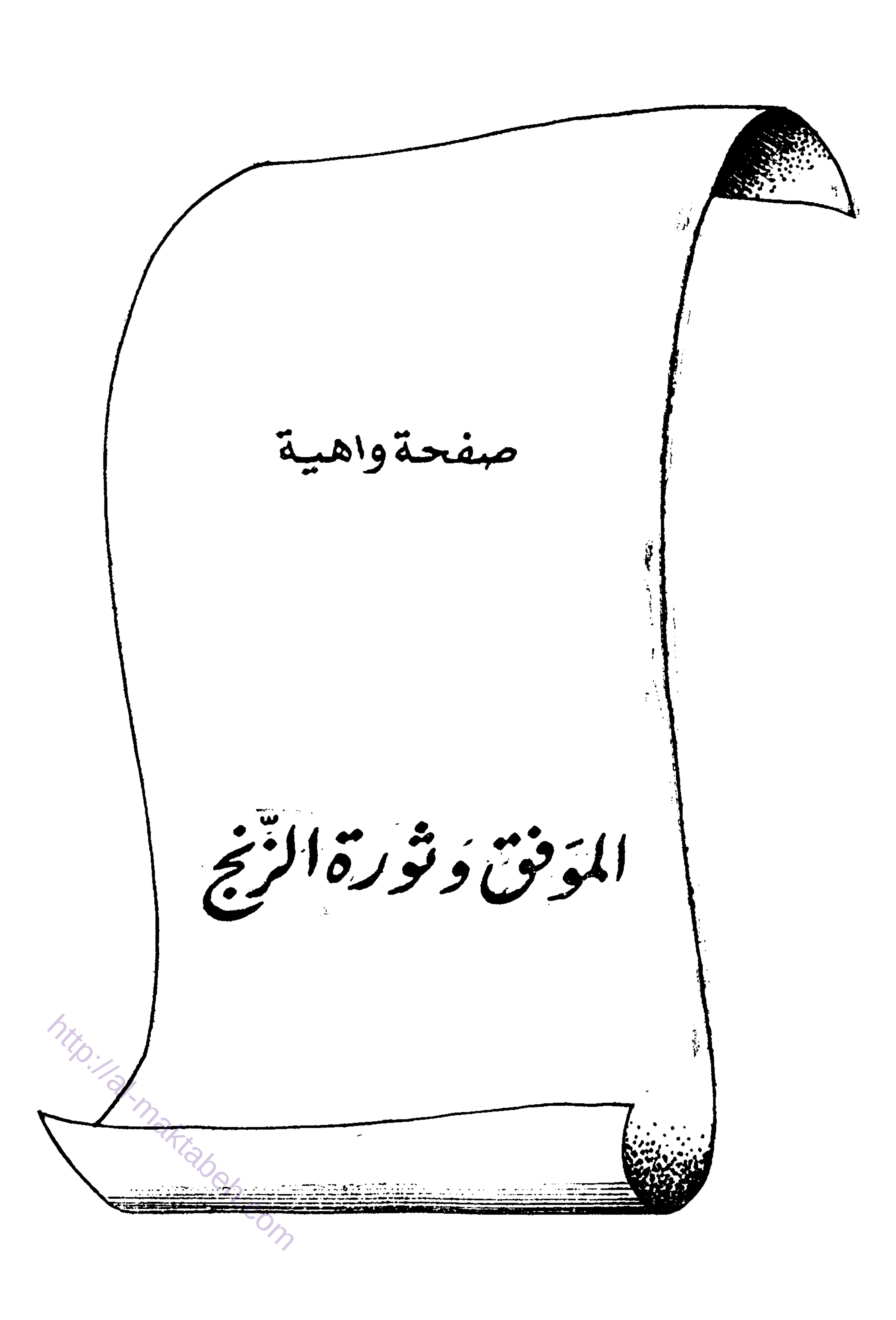
لا زلت اندبه حتى المات ولن اخنى عليه الذى اخنى على لبد (١٩٥)

هذا ، وقد صار المأمون الخليفة العباسى دون منازع من سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م وهو فى الرى ، وظل فى خراسان حتى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ثم قدم الى بغداد (١٩٦) .

وفى النهاية ، فاننا نستطيع القول ان قتل الأمين كان ضربة قاسية للعصبية العربية ، ونصرا ساحقا للعنصر الفارسى (١٩٧) .

---

(١٩٣) حسن محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ١١٠ .
(١٩٤) انظر فى ذلك تاريخ الرسل والملوك للطبرى حـ ٨ ص ٥٠٠ — ٥٠٧ .
(١٩٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٨ ص ٥٠٧ .
(١٩٦) H. IBRAHIM, Islamic and history Culture, p. 122.
(١٩٧) Saunders, History of Medieval Islam, p. 107.


صفحة واهية
الموفق وثورة الزنج

الموفق وثورة الزنج

ظهر فى النصف من شوال سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م فى فرات البصرة رجل دعا بدعوة رائدها الثورة على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى عاشتها الخلافة العباسية آنئذ ، واكتوى بنارها الطبقات الدنيا من المجتمع ولاسيما طبقة الرقيق الزنوج الذين كانوا يختصون بأحط المهن وهى كسح السباخ حتى يصلوا الى التربة فيعمروها ، وكانت كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان فى انهار البصرة منهم عشرات الوف يعذبون بهذه المهنة (١) .

وكان المجتمع آنذاك مجحفا بحقوقهم فى الجملة (٢) ، ومن ثم يمكن مقارنة حركة صاحب الزنج بحركة سبارتاكوس فى روما القديمة (٣) .

وقيل ان صاحب الزنج كان منجما يكتب الحروز واول شىء كان بواسط فحبسه محمد بن ابى عون ثم اطلقه ، فلم يلبث ان خرج بالبصرة واستغوى السودان والزبالين والعبيد (٤) .

وقد اختلف فى اسم الرجل ونسبه ، قال الذهبى : « فى سنة ٢٥٥ هـ كان أول فتنة الزنج بالبصرة ، فظهر بها على بن محمد العلوى ، وهو مطعون فى نسبه ، فبادر الى دعوته سودان أهل البصرة وعبيدها ، ومن ثم قيل فتنة الزنج ، والتف عليه كل شيطان ، واستفحل أمره » (٥) ، ويقول ابن طباطبا : « فأما نسبه فليس عند النسابين بصحيح ، وهم يعدونه من الأدعياء » (٦) ، ويجعل ابو الفدا نسبه فى عبد القيس وأن اسمه محمد بن عبد الرحيم وادعى أنه على بن محمد بن احمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (٧) .

---

(١) ميتز : الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٣١٣ .

(٢) ميتز : نفس المصدر حـ ١ ص ٣١١ .

(٣) Saunders, History of Medieval Islam, p. 123.

(٤) أبو الفلاح : شذرات الذهب حـ ص ١٥٦ .

(٥) الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٥٣ .

(٦) ابن طباطبا : الفخري ص ٢٥٠ .

اما محمد بن جريرى الطبرى والذى كان آنئذ فى الواحد والثلاثين من عمره فانه لم يعرف حقيقة نسب الرجل على وجه التحديد ، فأخذ يذكر ما سمعه عن نسبه ، فقال انه ــ فيما ذكر ــ على بن محمد بن عبد الرحيم ، ثم يذكر نسبه فيما يرويه صاحب الزنج عن نفسه حيث قال : « جدى محمد بن حكيم من اهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن على بن الحسين ، فلما قتل زيد ، هرب فلحق بالرى ، فلجأ الى ورزنين فأقام بها ، وان ابا ابيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس ، كان مولده بالطالقان ، وانه قدم العراق ، فأقام بهما ، واشترى جارية سندية فأولدها محمدا اباه ، فهو على بن محمد هذا » (٨) .

ثم يذكر الطبرى ان هذا الرجل ــ فيما ذكر أيضا ــ ترك سامراء سنة ٢٤٩ هـ الى البحرين وهناك ادعى بها انه على بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن ابى طالب .

وقد انضم الى دعوته ناس كثيرون فى البحرين ، وان ناهض آخرون دعوته ، ووقع الصدام بين انصاره وخصومه بسببه ، ولكنه كان قد احتل من نفوس مؤيديه فى البحرين درجة عالية ، فجبوا الخراج باسمه ، وصار حكمه فيهم نافذا ، حتى وصل الأمر بهم الى ان احلوه من انفسهم بمحل نبى (٩) .

ولا شك ان مبادئه فى نصرة الضعيف ، والقضاء على الطبقية ، والمساواة بين الناس ، بالاضافة الى ما اوتيه من قوة بيان ونصاعة حجة هى التى احلته هذه الدرجة . غير ان صاحب الزنج اضطر الى اللجوء الى البادية تاركا هجر أمام ضغوط أعدائه ، وصحبه بعض من اهل البحرين ، وكان ممن تبعه سليمان بن جامع ــ الذى كان مولى اسود لبنى حنظلة ــ وقد صار قائد جيشه (١٠) .

---

(٧) أبو الفدا : المختصر حـ ٢ ص ٤٦ .
(٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤١٠ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٤٦ .
(٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤١٠ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٤٦ .
(١٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤١٠ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٤٧ وانظر : الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ٣٠٢ .

وربما كان انتقال الرجل من مكان الى مكان ايمانا منه بضرورة شيوع مبادئه ، ليكثر اتباعه ، فيحقق بهم ما يريده من تغيير اجتماعى .

وكان الرجل يعتبر نفسه اماما ، واخذ يذكر من علامات امامته ما يدفع الناس الى الالتفاف حوله ، والى قصد مكان معين تنتشر منه دعوته ومبادئه ، ومن ذلك قوله : « انى لقيت سورا من القرآن لا احفظها ، فجرى بها لسانى فى ساعة واحدة ، منها سبحان . والكهف ، وصاد » ، وقوله : ومن ذلك انى لقيت على فراشى ، فجعلت افكر فى الموضع الذى اقصد له ، واجعل مقامى به ، اذ نبت بى البادية ، وضقت بسوء طاعة اهلها ، فاظلتنى سحابة ، فبرقت ورعدت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعى ، فخوطبت فيه ، فقيل : اقصد البصرة ، فقلت لاصحابى — وهم يكنفونى — انى امرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة » (١١) .

وكان له من فصاحته ما اذاع دعوته ، فقد كان كما قال عنه صاحب الفخرى : « فصيحا بليغا لبيبا » (١٢) .

وهو بالنظر الى اقواله كان على درجة عالية من الذكاء فهو قد ادعى الامامة فقط ولو ادعى ما فوقها لاستنكره الناس ، ومن ثم فان ما فهمه من صوت الرعد لا يعدو ان يكون كرامة من الكرامات ، كما ان اختياره للمكان يدل على ذكائه كذلك لكثرة من بالبصرة من طبقة الزنوج التى تكسح السباخ ، فمثل هذه الطبقة البائسة المطحونة يمكن الاعتماد عليها كاتباع له فى ثورته ضد العباسيين ، وكان له من كثرتهم ما يحقق له النجاح فقد كان « فى انهار البصرة منهم عشرات الوف يعذبون بهذه المهنة » ثم ان هؤلاء الزنوج اتباع جيدون لمن ينادى بتحريرهم من اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية المتردية ، لا تمنعهم عصبيات قبلية من تأييده ، كما أن تفكيرهم البدائى يجعلهم يصدقون مزاعمه (١٣) .

وقد قدم الرجل البصرة فى سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ووجد فيها اتباعا كان

---

(١١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٤١١ ، ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٣٤٧ .
(١٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٥٠ .
(١٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : المصدر السابق ج ٩ ص ٤١١ ؛ متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٩٢ .

منهم على بن ابان المهلبى ، واخوان له هما محمد والخليل ، ولكنه اخرج من البصرة على يد واليها محمد بن رجاء الحضارى ، ولكنه ان كان اخرج من البصرة ، فقد نجح فى اكتساب بعض الأتباع فيها .

ثم ان صاحب الزنج توجه الى بغداد ، واقام بها مدة سنة كاملة ، وراح يردد فيها مازعمه عن امامته ، « وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه بها آيات ، وعرف ما فى ضمائر أصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم ، وانه سأل ربه آية أن يعلم حقيقة أمره ، فرأى كتابا يكتب له ، وهو ينظر على حائط ، ولا يرى شخص كاتبه » (١٤) .

وبالرغم من انه وجد اتباعا له فى مدينة السلام أثناء وجوده فيها ، فانه كان يرى ان أصلح الأماكن لدعوته هو البصرة ، ومن ثم فانه كان يرتقب فرصة الرجوع اليها ، وقد واتته تلك الفرصة عقب عزل محمد بن رجاء واليها ، فاتخذ طريقه اليها .

وفى الطريق الى البصرة نزل فى برنخل فى قصر على نهر يعرف بقصر القرشى ، حيث ادعى انه وكيل لولد الواثق فى بيع السباخ ، وطلب من أصحابه ان يروجوا لذلك (١٥) .

ومن موقعه هذا تمكن من الاتصال بغلمان الشورجيين (١٦) السود ، وجذبهم اليه ، حتى تجمع لديه منهم عدد كبير ، وقبض على عدد من مواليهم ، وأمر الغلمان بضربهم لاساءة هؤلاء الموالى اليهم ، وقال لهؤلاء الموالى أمام غلمانهم : « قد اردت ضرب أعناقهم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون ، فكلمنى أصحابى فيكم فرأيت اطلاقكم » (١٧) .

---

(١٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤١٢ .
(١٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٤ ص ٤١٣ .
(١٦) من يعملون بصناعة الدقيق ، وفى الكامل : السورجيين . انظر الكامل حـ ٥ ص ٣٤٧ .
(١٧) الطبرى : المصدر السابق ص ٤١٣ .

ولا شك انه بذلك قام بحركة دعائية بارعة لحركته فى وسط الغلمان ، وظهر بمظهر المدافع عن حقوقهم :

وتمكن صاحب الزنج من جمع اعداد كبيرة من هؤلاء السود الذين كانوا يقبلون عليه للخلاص من الرق والتعب ، ثم امر بصنع علم له وكتب علية باللونين الاحمر والأخضر : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون فى سبيل الله » الى آخر الآية ، وكتب عليها اسمه واسم ابيه ورفعها على صار (١٩) .

وخطب فى اتباعه فى يوم عيد الفطر سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م خطبة أوضح فيها سبب خروجه ودعوته وانه قد ساءه ما هم عليه من سوء حال ، وان الله بعثه ليستنقذهم ويرفع اقدارهم ، ووعدهم بأن يملكهم العبيد والأموال والمنازل ؛ بل وحلف لهم على ذلك ، وطالبهم بنشر مقالته بين الناس (٢٠) .

اما عقيدة صاحب الزنج فقيل عنها انه : « كان يصعد على المنبر فيسب عثمان وعليا ومعاوية وعائشة ، وهى اعتقاد الازارقة ، وكان ينادى فى عسكره على العلوية بدرهمين وثلاثة ، وكان عند الواحد من الزنج العشر من العلويات يفترشهن ، وكان الخبيث خارجيا يقول : لا حكم الا الله ، وقيل كان زنديقا يتستر بمذهب الخوارج وهو اشبه » (٢١) .

اخلاص صاحب الزنج لمبادئه :

كان الرجل مخلصا لمبادئه الى اقصى الدرجات ، وقد حاول اقناع أتباعه من الزنج والفراتية انه لن يغدر بهم فى يوم ، ولن يعيدهم الى مواليهم ، فاغلظ لهم الأيمان فى ذلك ، بل وصل فى تأكيده اخلاصه لهم الى درجة انه طلب منهم أن

---

(١٨) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٤٧ .

(١٩) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٤٧ .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ص ٢٤٨ .

(٢١) أبو الفلاح : شذرات الذهب حـ ٢ ص ١٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٤٨ .

يفتكوا به اذا راوا منه غدرا ، وكان مما قال لهم فى ذلك : « ليحطّ بى منكم جماعة ، فان احسوا مني غدرا فتكوا بى » (٢٢) .

واقتنع اتباعه بصلاحه ، وانه رجل لم يخرج لعرض من اعراض الدنيا ، وانما هو رجل خرج غضبا لله ، ولما راى عليه الناس من الفساد فى الدين « فرضوا ودعوا له بخير » (٢٣) .

ولم يقف صاحب الزنج فى اقناع اتباعه الى حد الدعوة الكلامية ، بل ان سلوكه طابق اقواله ، فكان معهم يدا فى حربهم ، وكان يخاطر بنفسه معهم فيها .

وقد حاول بعض اتباع الدولة العباسية افساد حركته فارسل اليه رميس رسالة يؤمنه فيها على نفسه على ان يعيد الغلمان من اتباعه الى مواليهم وان يعطيه فى مقابل كل غلام خمسة دنانير حيث قال له : « انت آمن على نفسك حيث سلكت من الارض ، لا يعرض لك أحد ، واردد هؤلاء العبيد الى مواليهم ، واخذ لك على كل راس خمسة دنانير !» (٢٤) ولا شك ان هذا العرض كان عرضا سخيا اذا نظرنا الى الاعداد الهائلة التى كانت تتبعه ، وكان ذلك يعنى أنه سيجنى ثروة طائلة الى جانب اطمئنانه على العيش فى امان ؛ ولكن جواب الرجل يدل على أنه رجل مبادىء يؤمن بها وليس طالب مال أو جاه ، فقد أظهر غضبه واصر على ان يرجع فيبتر بطن امراة رميس ويحرق داره ، وان يخوض فى سبيل ذاك حربا تسيل فيها الدماء (٢٥) .

وهكذا فان حركة صاحب الزنج حوت فى جملتها مبادىء تقدمية : اقتصادية فى مواجهة ما كان يعانيه الزنوج من الفقر ، واقتصادية لرفع مكانتهم الهابطة لدى سادتهم المتعسفين ؛ وكانت حركته بذلك تفتح آفاقا مشرقة للزنوج . فاذا أضفنا الى ذلك أن حركة صاحب الزنج برعايتها لهذين المبداين الاقتصادى والاجتماعى لطبقة الزنوج تسمو الى تعاليم الاسلام فى معاملة الرقيق ، وان

---

(٢٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤١٨ .
(٢٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤١٨ .
(٢٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤١٨ .
(٢٥) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٤١٨ .

الرجل الذى نادى بتعاليمهما انتسب الى بيت ينال من التقدير والتعاطف الكثير لدى جميع طبقات المسلمين وهو البيت العلوى ، توقعنا لهذه الحركة أن تقوى ، وأن تكون خطيرة .

وقد هيأ لها هذه الخطورة ما كانت عليه الخلافة العباسية آنذاك من الضعف السياسى والاقتصادى نظرا لتسلط الأتراك على مقدرات الدولة ونهبها ، مما جعلها فى مرحلة انهيار اقتصادى وسياسى (٢٦) .

وكان صاحب الزنج لا يتشدد مع رجاله فيمنعهم من شرب الخمر بل كان لا يمنعهم من أن يشربوها ، ولكنه كان يحرمها اذا كانوا مقدمين على الدخول فى قتال (٢٧) .

ولذلك لا غرو أن ارقت ثورة الزنوج أجفان الدوآة العباسية ، وهددت وجودها بأكمله فترة تقرب من خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ (٢٨) (٨٦٨ — ٨٣٣ م) ، وتمكنت من قطع الطريق التجارى صعودا وهبوطا فى دجلة بين الخليج العربى وشمالى العراق ، فقلت الأموال فى بيت المال وبخزائن الأتراك على حد سوآء (٢٩) ؛ فى نفس الوقت الذى اثرى فيه صاحب الزنج وعظم غناه ، وفى ذلك يقول صاحب الفخرى : « فاتفقت له حروب وغزوات نصر فيها فاثرى بسببها ، وعظم حاله ونهبه » (٣٠) .

وقد مكنه ذلك من انشاء جيش على درجة عالية من التنظيم واسطول قوى ، تمكن به من مجابهة الخلافة خمسة عشر عاما تقريبا ، كما مكنه من انشاء المدن واقامة ترسانات لانتاج الأسلحة والسفن الحربية (٣١) .

---

(٢٦) حبيبة : الدول الاقليمية ص ٢٢٠ .
(٢٧) الطبرى : المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ،
Saunders, History of Medieval Islam, p. 122.
(٢٨) حبيبة : المصدر السابق ص ٢٢١ .
(٢٩) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١١٨ .
(٣٠) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٥٠ .
(٣١) Shaban, Islamic history Vol. 2, p. 102.

الخطر الزنجي المسلح على الخلافة العباسية :

فى الطريق الى البصرة :

صار صاحب الزنج يأمر أصحابه بالعبث فى القرى التى يمرون بها ، فنهب قريتى القادسية والشيفيا حيث انتهبوا منهما « مالا عظيما ، عينا وجوهرا ، وحليا وأوانى ذهب وفضة » (٣٢) ، بل ان النهب لم يقف عند حد تلك الأشياء بل تعدى الى سبى النسوة وغلمان ، وكان أول سبى لصاحب الزنج عند هاتين القريتين .

بل ان الأمر تعدى السلب والنهب والسبى الى الاحراق والتخريب فقد أمر باحراق قرية « المهلبية » ، وباحراق تمور على نهر الماديان (٣٣) .

وقد أمكن تعليل النهب والسبى حيث أن صاحب الزنج كان يحاول الوفاء لأصحابه بما وعدهم به من تمليكهم الأموال الطائلة ووعده لهم بأن يكون لهم عبيد . ولكن تعليل التخريب والاحراق لا يصح الا بانه يريد ان يبث الرعب فى النفوس ليتذلل له بسط سلطانه بعد ذلك كما يشاء .

ولا شك أن اصلاح الحال الاجتماعى لطبقة ما ، بمثل هذه الطرق لا يتفق ومبادىء مصلح اجتماعى ، فهو قد تنكب طريقا خاطئة فى محاولته رفع شأن أصحابه وفرض زعامته القوية عليهم .

وكان صاحب الزنج يشترك بنفسه فى أعمال النهب ، فيروى عنه ريحان أحد أصحابه : « رأيت صاحب الزنج يومئذ ينتهب معنا ، ولقد وقعت يدى على جبة صوف مضربة ، فصار بعضها فى يده وبعضها فى يدى ، وجعل يجاذبنى عليها حتى تركتها له » (٣٤) .

وهكذا صار صاحب الزنج بزنوجه فى طريقه الى البصرة ينهب فى طريقه ما فى البر والنهر ، ويحرق ، ويستولى على الزنج من مواليهم بالقوة حتى صار فى اتباع كثيرين « وبث أصحابه يمنيا وشمالا يغير بهم على القرى ، ويقتل بهم

---

(٣٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٢٢ .
(٣٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٢٤ .
(٣٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٢٩ .

الأكرة ، وينهب أموالهم ، ويسرق ماشيتهم » (٣٥) .

وقد شهد عصر الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) (٨٦٩ — ٨٧٠ م) هذه الأحداث الجسام ، والخلافة فى شغل شاغل نتيجة لفتن الأتراك (٣٦) ، وكان الخليفة يحاول أن يجد له سبيلا فى وسط هذا الجو التركى المسموم ، حتى ان العامة أنفسهم كانوا طرفا فى هذه الأهوال ، يحاولون مساندة الخليفة فى صراعه ضد الأتراك ، وكان ذلك جوا مناسبا لصاحب الزنج يواصل فيه تقدمه لتحقيق أهدافه فى غفلة من الخلافة والأتراك والعامة جميعا (٣٧) .

وتمكن صاحب الزنج من الاقتراب حثيثا من البصرة ، وأصبح يمثل خطرا داهما على الخلافة العباسية .

ندبت الخلافة لقتاله قائدا يسمى جعلان وصل الى البصرة وخرج لقتاله ولكنه وجد أن قوة الرجل كبيرة ، وأن الحرب معه ليست هينة ، فخندق حول نفسه وواساه من أهل البصرة من استشعر الخطر على نفسه .

وكانت خندقة جعلان خطأ تكتيكيا وقع فيه ، حيث تمكن صاحب الزنج من حصاره بعد أن قطع الطرق المؤدية الى الخندق ، ثم انه هاجم وفتك بأعداد كبيرة من رجاله ، فاضطر جعلان الى الفرار الى البصرة واخذ يعد مع اهلها خطة لمهاجمة صاحب الزنج .

وتقدم جعلان واتباعه على محورين من ناحية نهر نافذ ونهر هزاردر ، غير أن الزنج تمكنوا من هزيمتهم هزيمة منكرة « فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وانصرفوا مفلولين ، وانحاز جعلان الى البصرة ، فأقام بها ، وظهر عجزه للسلطان » (٣٨) .

وهكذا فشلت الخلافة فى أول رد فعل لها تجاه صاحب الزنج ولقى

---

(٣٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٣٧ .

(٣٦) أنظر فى ذلك كتابنا : الخلافة العباسية فى العصر التركى الأول ص ٧٣ — ٩٣ .

(٣٧) وأنتهت هذه الصراعات بخلع الخليفة المهتدى فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ هـ . الطبرى : حـ ٩ ص ٤٥٦ .

(٣٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٧٠ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٥٨ .

قائدها الهزيمة فعزلته ، واوكلت مهمة محاربة صاحب الزنج الى قائد آخر هو سعيد الحاجب (٣٩) .

وشجع ذلك النصر صاحب الزنج على أن يتحول من مكانه الى الجانب الغربى من نهر ابى الخصيب ، وقطع الطريق على اربعة عشر مركبا تريد البصرة فى نهر دجلة ، وتمكن أصحابه من الفوز بهذه الغنيمة الباردة على حد قول صاحب الزنج لهم (٤٠) « فاستولوا على هذه السفن ، وسبوا من كان فيها من الرقيق ، وغنموا منها أموالا عظاما لا تحصى ولا يعرف قدرها » (٤١) .

ثم تقدم صاحب الزنج الى الأبلة فدخلها وقتل أصحابه من أهلها خلقا كثيرا ، ولم يكتفوا بذلك فأحرقوها « فكان ما احترق من الأمتعة أكثر مما انتهب » (٤٢) .

ثم استولى بعد ذلك على عبادان التى سلم أهلها له دون قتال واستولى أصحابه على من كان فيها من العبيد ، وفرق صاحب الزنج فيهم ما استولوا عليه من الأموال (٤٣) .

ثم ما لبثت أن دانت له جبى والأهواز فى ١٢ رمضان سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، وقد بثت هذه الانتصارات الزنجية المتتالية الرعب فى قلوب أهل البصرة ، حتى هجرها الكثير منهم خوفا مما يفعله بهم صاحب الزنج اذا ما دخل مدينتهم .

وهكذا يتضح ان ميزان القوى فى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م كان فى صالح

---

(٣٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧٠ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٥٨ .
(٤٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧١ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٥٩ .
(٤١) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧١ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٥٩ .
(٤٢) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧١ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٥ ص ٣٥٩ ، وقدر الذهبى عدد من قتل فى الأبلة بثلاثين الفا . الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ٤٥٥ .
(٤٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧٢ .

الزنج (٤٤) تماما ، وهى السنة التى تولى فيها الخليفة المعتمد (٢٥٦ هـ — ٢٧٩ هـ) الخلافة ، فماذا بعد أن تولى المعتمد الخلافة ؟ .

المعتمد والزنج :

كانت ثورة الزنج تمثل خطرا داهما على الدولة العباسية فى عقر دارها ، ولذلك تغير سلوك الخلافة تجاهها ، فاتخذ طابعا هجوميا ، لا طابعا دفاعيا ، واستوعب الخليفة المعتمد مدى قوة الزنج الذين تمكنوا من ايجاد نظام سياسى خاص بهم فى الأجزاء الجنوبية (٤٥) من العراق فى الأبلة وعبادان والاهواز والبصرة ؛ فارسل يستدعى اخاه أبا أحمد الموفق من مكة ، وعقد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس (٤٦) .

وقد سير المعتمد سعيد بن الحاجب لمحاربة صاحب الزنج فى سنة ٢٥٧ هـ ، فالتقى به عند نهر يسمى المرغاب (٤٧) ، وتمكن سعيد من الحاق الهزيمة بالزنج بعد معركة ضارية أصيب فيها سعيد نفسه بعدة جراح منها جرح فى فيه (٤٨) .

ثم كان لسعيد لقاء آخر مع الزنج عند هطمة من أرض الفرات ، وتمكن من الحاق هزيمة أخرى بالزنج ، وأسر فى هذا اللقاء عمران زوج جدة ابن صاحب الزنج ، وبدا الزنج وكانما أصابهم الوهن حتى بلغ من ضعفهم أن المراة من سكان الفرات كانت « تجد الزنجى مستترا بتلك الأدغال فتقبض عليه حتى تاتى به عسكر سعيد ما به منها امتناع » (٤٩) .

وتمكن سعيد كذلك من تحقيق عدة انتصارات متوالية فى غربى نهر دجلة ؛ وأسكرته تلك الانتصارات وجعلته يغفل عن احكام دفاعاته فى مواجهة ضربة قد تكون مفاجئة من صاحب الزنج .

---

(٤٤) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٢٤ .
(٤٥) حبيبة : عصر الدول الاقليمية حـ ١ ص ٢٥١ .
(٤٦) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٦٢ .
(٤٧) وهو أحد الأنهار المعترضة فى نهر معقل . الطبرى : حـ ٩ ص ٤٧٠ .
(٤٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٧٥ .
(٤٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧٥ .

وقد وجه صاحب الزنج فعلا تلك الضربة المفاجئة بحنكة وبراعة عسكرية حين أرسل جيشا كبيرا بقيادة سليمان بن جامع وأبى الليث لمفاجأة جند سعيد « فصادفنا منهم غرة وغفلة ، فأوقعنا بهم وقعة ، فقتلا منهم مقتلة عظيمة » (٥٠) ، وبذلك تمت على سعيد الهزيمة المنكرة رغم تفوقه فى الجند والعدة ؛ وثار صاحب الزنج من سعيد وجنده ثارا ثانيا .

وقد صرف بعد ذلك سعيد عن البصرة وعن قيادة الجيش العباسى ، واوكل ذلك الى منصور بن جعفر ؛ ولكن الزنج كمنوا له كمينا ، وقتلوا من أصحابه أعدادا كبيرة ، وهرب باقى جنده الى الماء فغرق منهم كثيرون ، وحملت رءوس القتلى الى صاحب الزنج فى مقره عند نهر معقل فأمر برفع رءوس القتلى على الرماح ، ونصبها كالأعلام (٥١) .

دخول الزنج البصرة وتخريبها :

بقى بعد ذلك أمام صاحب الزنج الاقدام على الخطوة الكبرى ، وهى الاستيلاء على مدينة البصرة التى ظلت طويلا تعانى من حصاره لها ، فادعى انه أوحى اليه بأن البصرة خبزة له يأكلها من جوانبها (٥٢) ، وحدد له أن وقت ذلك يحين « اذا انكسر نصف الرغيف » (٥٣) ، وقد أول كسر الرغيف بخسوف القمر المتوقع فى هذه الأيام .

وقام بهجومه فى ليلة الثلاثاء ١٤ شوال سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م وهاجم المدينة من عدة جهات مما يبين عن مقدرة عسكرية ، وقاد جيش الزنج آنذاك يحيى بن البحرانى وعلى بن أبان المهلبى .

وتمكن الزنج من اكتساح البصرة بعد قتال عنيف ، وخربوها تخريبا شديدا ، واحرقوا جامعها ، ودورها ، وانتهبوها ؛ ثم نادى ابراهيم بن المهلبى فى أهل البصرة بالأمان ثم غدر بمن استأمن اليه فلم يكد يفلت منهم أحد ، وكانت

---

(٥٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٧٨ .
(٥١) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٦٢ .
(٥٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٨١ .
(٥٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٨١ .

الزنج تحيط بالجماعة من أهل البصرة ، ثم يقول بعضهم لبعض « كيلوا » وهى الاشارة بينهم بالقتل (٥٤) .

وقد استعظم صاحب الزنج نفسه ما فعله أصحابه بالبصرة ، ولذلك نسبه الى الملائكة التى أيدته فى هذه الحرب ، قال صاحب الزنج : « دعوت على أهل البصرة فى غداة اليوم الذى دخلها أصحابى ، واجتهدت فى الدعاء ، وسجدت ، وجعلت أدعو فى سجودى ؛ فرفعت الى البصرة ، فرأيتها ، ورأيت أصحابى يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا فى الهواء فى صورة جعفر المعلوف المتولى كان للاستخراج فى ديوان الخراج بسامرا ، وهو قائم قد خفض يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة بأهلها ، فعلمت أن الملائكة تولت اخرابها دون أصحابى ، ولو كان أصحابى تولوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم الذى يحكى عنها ، وان الملائكة لتنصرنى ، وتؤيدنى فى حربى ، وتثبت من ضعف قلبه من أصحابى » (٥٥) .

وفى تصوير ما حل بالبصرة من القتل والتخريب قال صاحب شذرات الذهب : وبلغ عدد من قتلوا فى البصرة اثنى عشر الفا بينما هرب باقى أهلها بأسوأ حال فخربت البصرة (٥٦) .

وقد انضم بعد ما حدث على البصرة انضم اليه جماعة من العلوية منهم على بن أحمد عيسى بن زيد وعبد الله بن على ، فترك الانتساب الى أحمد بن عيسى ، وانتسب الى يحيى بن زيد مع أن يحيى بن زيد لم يعقب غير بنت ماتت رضيعة (٥٧) .

ثم صدرت أوامر صاحب الزنج الى جيشه بترك البصرة ، ويلفت ذلك الأنتباه الى مقدرة صاحب الزنج العقلية ، فلم يكن هدفه الاستيلاء على مدن يضع فيها عماله فهو يعلم أن هذا لا يمكن أن تسمح به الخلافة ، ومن ثم فقد

---

(٥٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٢٩ .
(٥٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٤٨٧ .
(٥٦) أبو الفلاح : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٣٦ .
(٥٧) الطبرى : المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٨٨ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٣ .

كان هدفه يتوقف عند السلب والنهب والتخريب ، فى حين ابتنى لنفسه مدينة سماها « المختارة » يصب فيها ما ينهبه أتباعه ومنها تخرج غزواته التخريبية .

ولعلنا لا نجانب الصواب اذا شبهنا صاحب الزنج بالحسن بن الصباح الذى استقر فى قلعة الموت يوزع منها الأذى والبلاء كما كان الأذى والبلاء يخرج من المختارة مدينة صاحب الزنج . على أية حال ، كان دخول الزنج البصرة وتخريبها يمثل تطورا خطيرا بالنسبة للدولة العباسية ، وخاصة أن الزنج اثبتوا تفوقهم أمام جيوش الخلافة منذ بروز حركتهم الثورية ، وأدرك المعتمد انه لا يفل الحديد الا الحديد فعقد لواء حربهم لأخيه البطل الموفق طلحة وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م (٥٨) .

الموفق وحرب الزنج :

خرج الخليفة المعتمد بنفسه فى ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م يشيع اخاه الموفق (٥٩) ، ومعه القائد العباسى مفلح الاذين سارا لحرب صاحب الزنج ، ووصف الطبرى هذا الجيش وصف شاهد عيان فقال : « فعاينت أنا الجيش الذى شخص فيه أبو أحمد ومفلح ببغداد ، وقد اجتاز بباب الطاق ، وأنا يومئذ نازل هناك ، فسمعت جماعة من مشايخ بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة من الخلفاء ، فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عدة وأكمل سلاحا وعتادا وأكثر عددا وجمعا ، وأتبع ذلك الجيش من متسوقة أهل بغداد خلق كثير » (٦٠) .
خلق كثير » (٦٠) .

وقد أوقع هذا الجيش الرعب فى صفوف الزنج ، وقد حاول الموفق طلحة اخفاء شخصيته كقائد للجيش عن الزنج حتى انهم ظنوا مفلحا هو قائده الأوحد ، ولعل السر فى اخفاء الموفق لشخصيته هو أن تتاح له فرصة التخطيط والتدبير دون أن يكون هدفا يستهدفه أصحاب الزنج ؛ ولعله كان مصيبا فى ذلك لأن

---

(٥٨) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٦٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٨ .
(٥٩) ابن الوردى : تتمة أخبار المختصر جـ ١ ص ٢٣٥ .
(٦٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٤٩٢ .

مفلحا تعرض لسهم قاتل من رجال صاحب الزنج مات على أثره (٦١) ، ونسب صاحب الزنج كذبا الى نفسه انه هو الذى قتله (٦٢) .

ومع ذلك فقد اجتهد صاحب الزنج ليعرف رأس هذا الجيش وعرفه من احد الأسرى ، وكان له وقعه السيىء عليه وان حاول تكذيبه حيث قال : « ليس فى الجيش غير مفلح لأنى لست أسمع الذكر الا له ، ولو كان فى الجيش من ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد ، ولما كان مفلح الا تابعا له ، ومضافا الى صحبته » (٦٣) .

وكانت نتيجة المعركة صدمة للموفق حيث قتل مفلح ولقى جيشه هزيمة قاسية ، وقتل الكثيرون من رجاله ، وعاد أصحاب صاحب الزنج الى صاحبهم « بالرءوس قابضين عليها بأسنانهم ، حتى ألقوها بين يديه ، فكثرت الرءوس يومئذ حتى ملأت كل شىء ، وجعل الزنج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادونها بينهم » (٦٤) .

أدرك الموفق ان أمر الزنج أخطر مما تصور ، لذلك توجه الى الأبلة فى محاولة للعق جراح الهزيمة وتضميد آثارها ، ثم تجديد استعداداته ، ثم توجه الى نهر أبى الأسد فأقام هناك ، ولكن المقام عند نهر أبى الأسد لم يطب للموفق حيث انتشرت الأمراض بين جنوده ، وفشا فيهم الموت بسبب وخامة المكان أو بسبب انتشار الوباء آنذاك فى كور دجلة (٦٥) ، فعاد الموفق بعد شفاء من مرض من جنوده الى وباذا ورد (٦٦) وأقام معسكره هناك ، وعمل على تجديد آلاته واصلاح الشذوات والسميريات والمعابر ، وعمل على شحنها بالقواد من مواليه وغلمانه ، كما منح جنوده ارزاقهم .

---

(٦١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٥ .
(٦٢) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ٣٦٥ .
(٦٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٤٩٢ ، الذهبى : دول الاسلام جـ ١ ص ١٥٦ .
(٦٤) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٤٩٤ ، الذهبى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٦ .
(٦٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩ .
(٦٦) اسم مدينة كانت قرب واسط ، بينها وبين البصرة . ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٨ .

واتبع الموفق خطة جديدة لحرب صاحب الزنج يبغي منها تشتيت جهوده فى عدة جبهات تجعله غافلا عن القوة الرئيسية فى جيش الموفق ، فاستقر فى مكانه ومعه عدد من قواده فى جزء كبير من الجيش ، وأرسل أعدادا أخرى من قواده الى مواضع عند نهر أبى الخصيب وغيره لمحاربة الزنج .

ولم تغب فطنة الموفق عن فطنة صاحب الزنج فأرسل بقوات ملائمة الى الموفق فى موضعه وأرسل الي شتى الجهات بقوات تحارب فيها ، وهكذا دارت المعارك فى اكثر من جبهة ، وتبادل الفريقان انزال الخسائر بعضهما ببعض ، ففى حين أحرق أصحاب الموفق بعض منازل الزنج ، واستنقذوا منهم أعدادا كبيرة من النساء ، تمكن الزنج من هزيمة الموفق نفسه ، الذى راى من الحكمة الانسحاب ، فأمر أصحابه باللجوء الى السفن فلجأ كثير منهم الى السفن ، وان لم يتمكن بعضهم من ذلك فضلوا فى الأدغال والمضايق وانقطعوا عن أصحابهم ، مما أوقعهم فى أيدى الزنج فقتلوا بأعداد كبيرة منهم رغم استبسالهم فى الدفاع عن انفسهم « وأدركتهم المنايا فقتلوا ، وحملوا الى قائد الزنج مائة رأس ، وعشرة أرؤس ، فزاد ذلك فى عتوه » (٦٧) .

واضطر الموفق الى العودة الى واسط فى شعبان سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م ؛ وهكذا انتهت سنة ٢٥٨ هـ وكفة الزنج هى الراجحة (٦٨) .

اكتساح الزنج للأهواز ، وموقف الخلافة :

تمكن الزنج فى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ — ٨٧٣ م من الاغارة على الأهواز وهزيمة واليها أضفجون (٦٩) هزيمة مريرة انتهت بغرقه وبمقتل نيزك قائد جيشه والكثير من رجاله بالاضافة الى أسر أعداد كبيرة ، وقد حملت رءوس القتلى الى صاحب الزنج ، وبقى أصحابه يعيثون الفساد فى مدينة الأهواز (٧٠) .

---

(٦٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٠٠ .
(٦٨) حبيبة : عصر الدول الاقليمية حـ ١ ص ٢٥٢ .
(٦٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٠٣ ، وفى الكامل لابن الأثير : اصعجور حـ ٥ ص ٣٦٦ .
(٧٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٠٤ ، وابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٦٧ ، أبو الفلاح : شذرات الذهب حـ ٢ ص ١٣٩ .

وازداد موقف الخلافة حرجا امام انتصـــارات صـــاحب الزنج ، فأمر الخليفة المعتمد قائده التركى موسى بن بغا بالخروج لمحـــاربة الزنج على الأهواز ، فخـــرج اليهم فى ذى القعدة ســـنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م ، وفى نفس الوقت توجه عبد الرحمن ابن مفلح اليها ، فى حين ســـار اسحق بن كنداج الى البصرة ، وابراهيم بن ســـيما الى باذاورد (٧١) ، وذلك فى محاولة لتكثيف الحرب ضد الزنج فى أكثر من جهة .

ويبدو أن هذه الخطة قد أفلحت ، وآتت ثمارها ، حيث تمكن عبد الرحمن بن مفلح يســـانده ابراهيم بن ســـيما من الحاق هزائم متتالية بالزنج الذين كانوا تحت قيادة على بن أبان المهلبى ، وكان اســـحق بن كنداج فى أثناء ذلك يعمل على قطع الميرة والامدادات عن عســـكر صـــاحب الزنج ، واســـتمر الحال على ذلك حوالى عشرة شـهور (٧٢) .

وقد واجه صـــاحب الزنج هذه الحركة فى محاولة لاجهاضـــها فكان « يجمـــع اصـــحابه يوم محـــاربة عبد الرحمن وابراهيم ، فاذا انقضى الحـــرب ســـير طائفة منهم الى البصرة يقاتل بهم اسحق » (٧٣) .

على أن تطورا له أهميته وقع فى جبهة محاربى صـــاحب الزنج ، وذلك حين وقعت الحرب بين ابن واصل المتغلب على فارس الذى ساءه تولية الخليفة المعتمد عبد الرحمن بن مفلح الأهواز وضـــم فارس اليها ، فخرج ابن واصل الى الأهواز لحرب عبد الرحمن والتقى به فى برامهرز ، وهزمه وأسره ، ورفض طلب الخليفة بالافراج عنه ، ثم قتله فى النهاية ، ثم سار من رامهرز فى طريقه الى واسط لحرب موسى بن بغا ، ووصل الى الأهواز ، فطلب موسى بن بغا اعفاءه مما كلف به ، وقد ذكر ابن الأثير ســـبب طلب موسى هذا حيث قال : « فلما راى موسى شـــدة الأمر بهذه الناحية ، وكثرة المتغلبين عليها ، وانه يعجـــز عنه ، ســـأل أن يعفى فأجيب الى ذلك » (٧٤) .

وتولى مسرور البلخى الأهواز ، والبصرة ، وكور دجلة واليمامة والبحرين فى

---

(٧١) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٠٤ .
(٧٢) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٠٦ .
(٧٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٦٨ .
(٤٧)ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢

شهر شعبان سنة ٢٦١ هـ / ١٨٧٥ م ، وكذلك حرب الزنج (٧٥) .

كما ان خطر الصفاريين من جهة أخرى هدد الخلافة العباسية ، حيث طمع يعقوب الصفار الذى كان بسجستان آنئذ أن يملك بلاد فارس من يد ابن واصل ويحرز منه الأموال والخزائن والسلاح التى غنمها من حربه لعبد الرحمن بن مفلح (٧٦) .

وكان لابد للخلافة من اتخاذ موقف حاسم ازاء الصفاريين ، وكان ذلك — بلا شك — على حساب الحرب فى جبهة الزنج ، وكان بلا شك — فى صالح الزنج (٧٧) .

وقد اغتنم صاحب الزنج الفرصة فعلا فأرسل فى سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٦ م بجيوشه الى البطيحة (٧٨) ودستميسان بقيادة سليمان بن جامع ، وتمكن سليمان من تحقيق عدة انتصارات على جعلان التركى وهزم باغرتمش وقتل خشيشا ، ونهب ما كان مع هؤلاء ، وقد ساعده فى ذلك صنيعة من صنائع صاحب الزنج يسمى احمد بن مهدى الجبائى (٧٩) .

دخول الزنج واسط :

وفى سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ — ٨٧٨ م تمكن سليمان بن جامع والخليل بن ابان وعبد الله المعروف بالمذوب من هزيمة محمد المولد عامل الموفق على واسط ، ودخلها الزنج وأتوا بها من الفظائع الكثير « فقتل بها خلق كثير ، وانتهبت واحرقت » (٨٠) ، وكان ذلك بفضل تكاتف الزنج تحت قياداتهم المختلفة فى الظفر بالمدينة ، فكان

---

(٧٥) الطبرى : تاريخ الرسل الملوك ج ٩ ص ٥١٤ .
(٧٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٦ ص ٢ .
(٧٧) Brokelman, History of Islamic people, p. 136.
(٧٨) البطيحة : ارض واسعة بين واسط والبصرة . ياقوت : ج ١ ص ٤٥٠ .
(٧٩) كان صاحب الزنج وجه بأحمد بن مهدى فى سمبريات الى نهر المراة فجعل الجبائى يوقع بالقرى التى بنواحى المذار ، فيعيث فيها ، ويعود الى نهر المراة ، وهو الذى أرسل الى صاحب الزنج يخبره بخبر خلو البطائح من الجند بسبب انصراف مسرور وعساكره عند ورود يعقوب بن الليث الى واسط . الطبرى ج ٩ ص ٥٢١ .
(٨٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٤٠ .

« الجبائى فى السميريات ، والزنجى بن مهران فى الشذوات ، وكان سليمان بن جامع فى قواده من السودان ورجالته منهم ، وكان سليمان بن موسى الشعرانى راخواه فى خيله ورجله مع سليمان بن جامع » ، فكان القوم جميعا يدا واحدة (٨١).

وبعد ان اتى الزنج بواسط ما اتوا حتى جعلوا اهلها يفرون حفاة عراة (٨٢)، انصرفوا تحت قيادة سليمان بن جامع الى جنبلاء فعاثوا فيها فسادا وخربوها (٨٣).

صدى دخول الزنج الى واسط :

دفع دخول الزنج الى واسط ، وعبثهم بها الموفق الى ان يتولى امر حربهم بنفسه ، وتحت قيادته المباشرة ، بل وصمم على ان يقيم بنفسه فى ميدان القتال بصفة دائمة (٨٤) ، ومن اجل ذلك أنشأ مدينة سماها « الموفقية » فى مواجهة المختارة مقر صاحب الزنج .

الموفق والزنج وجها لوجه :

بدا الموفق مواجهته الجادة ضد الزنج فى سنة ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م بارسال ابنه ابى العباس (٨٥) فى جيش احسن اعداده واختياره ، وركب الموفق بنفسه الى بستان موسى الهادى للاطمئنان على حالة القوات الخارجة لمحاربة الزنج ، وذلك فى شهر ربيع الآخر « فكان جميع الفرسان والرجالة عشرة آلاف رجل فى احسن زى ، واجمل هيئة واكمل عدة ، ومعهم الشذا والسمريات ، والمعابر للرجالة، كل ذلك قد احكمت صنعته » (٨٦) .

وواصل ابو العباس مسيره حتى وصل الى الصلح ، وارسل طلائعه

---

(٨١) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٥٤٠ .
(٨٢) الذهبى : دول الاسلام جـ ١ ص ١٥٩ .
(٨٣) الطبرى : المصدر السابق جـ٩ ص ٥٤٠ ، وجنبلاء : بضمتين ، وثانيه ساكن وهو ممدود ، كورة وبليد ، وهو منزل بين واسط والكوفة منه الى قناطر بنى دار الى واسط . ياقوت : جـ ٢ ص ١٦٨ .
(٨٤) حبيبة : الدول الاقليمية جـ ١ ص ٢٥٢ .
(٨٥) الخليفة المعتضد بالله فيما بعد .
(٨٦) الطبرى : المصدر السابق جـ ٩ ص ٥٥٧ ، والسميريات والشذا اسماء لمراكب خاصة بالأنهار . ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٧٥ .

يســتطلعون خبر الزنج فعلم انهم فى جيش كبير وأن « أولهم بالصلح ، وآخرهم ببســتان موسى بن بغا أسفل واسط » (٨٧) .

ودبر ابو العباس خططه للتمكن من هزيمة الزنج ، وتمكن من تحقيق ذلــك فهزمهم بالقرب من الصــلح ، وحقق بذلك أول نصر حاسم عليهم ، واستولى منهم على الكثير من المغانم ، قال الطبرى : « فكان ذلك اول الفتح على أبى العباس بن أبى أحمد » (٨٨) .

وعرف الزنج أن الأمور قد بدأت تأخذ وجهة أخرى لهم فى مواجهة الخلافة ، خاصة وقد كانوا استهانوا بأبى العباس واستصغروه (٨٩) .

ثم ما لبث أن اشتبك ابو العباس معهم فى عدة وقائع أخرى أوقع فى خلالها بهم الهزائم المتتالية ، ولم يعد فى اســتطاعتهم أن يثبتوا أمامه حتى بعد أن أمدهم صاحب الزنج بأربعين سميرية بآلاتها ومقاتلتها .

وقد أظهر أبو العباس فى حرب الزنج مقدرة عســكرية كبيرة ووضع الخطط الناجحة التى كفلت له النصر عليهم ؛ وأبدى بالاضافة الى ذلك شجاعة فائقة حين تمكن بنفسه من استنقاذ عدة سميريات استولى عليها الزنج من أصحابه (٩٠) .

وفر الزنج الى مكان يعرف بالصينية كما لجأوا الى موضع آخر يعرف بسوق الخميس ، واضطرهم ابو العباس الى التخلى عن الصينية والفرار الى طهشا (٩١)، ثم هزم جيشا زنجيا يقوده رجلان من الزنج هما ثابت بن أبى دلف ولؤلؤ قتل فيه لؤلؤ واسر ثابت ، وتمكن أبو العباس من استخلاص الكثير من النســـاء من اسر الزنج وردهن الى أهليهن ، وأخذ كل ما جمعه الزنج من أموال ، ثم ما لبث ان حارب الزنج بالقرب من سوق الخميس والحق بهم هزيمة مريرة .

---

(٨٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٧ .

(٨٨) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٥٨ .

(٨٩) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٥٩ .

(٩٠) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٧ .

(٩١) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٦٣ ، ابن الأثير : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٧ .

وهكذا تمكن ابو العباس من هزيمة الزنج فى أكثر من موقعة ، واستعاد بعضا من المناطق التى كان الزنج قد استولوا عليها (٩٢) .

وصــول الموفق نفسه الى ميدان القتال :

وصل الموفق الى ميدان القتال بالقرب من مدينة واسط فى ربيع الأول سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م (٩٣) ، وتمكن فى نفس الشهر من أن يلحق بالزنج هزيمة قاسية فى المنيعة أحد معاقلهم القوية بعد ان وضع خطة محكمة للاستيلاء عليها ، واشترك معه أبو العباس فى تنفيذ هذه الخطة ، وقد اضطر الشعرانى قائد الزنج الى الهروب الى البطائح ، فتبعه أصحاب الموفق فتفرق عنه جنده من الزنج وغرق كثير منهم فى حين لجأ بعضهم الى الآجام ، يختفون فيها ، فانهزم الشعرانى الى المذار (٩٤) .

وقد اباح الموفق المدينة للناس ، فأخذوا جميع ما فيها ، ثم أمر بهدم سورها ، وطم خندقها ، واحراق ما بقى فيها من السفن (٩٥) .

وكان لسقوط المنيعة فى يد الموفق اسوأ الأثر فى نفس صاحب الزنج ، وقد صور الطبرى حاله رواية عن محمد بن الحسن الذى قال له محمد بن هشام المعروف بابى وائلة الكرمانى : « كنت بين يدى الخائن ، وهو يتحدث ، اذ ورد عليه كتاب سليمان الشعرانى بخبر الوقعة ، وما نزل به ، وانهزامه الى المذار ، فما كان الا أن فض الكتاب ، فوقعت عينه على موضع الهزيمة حتى انحل وكاء بطنه ، ثم نهض لحاجته ثم عاد ، فلما استوى به مجلسه أخذ الكتاب ، وعاد يقرؤه ، فلما انتهى الى الموضع الذى انهضه نهض ثم فعل ذلك مرارا »، ثم قال أبو وائلة : « فلم أشك فى عظم المصيبة ، وكرهت أن أسأله . فلما

---

(٩٢) حبيبة : الدول الاقليمية حـ ١ ص ٢٥٣ .

(٩٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٦٦ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٢٨ .

(٩٤) المذار : فى ميسان بين واسط والبصرة ، وهى قصبة ميسان ، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . ياقوت : حـ ٥ ص ٨٨ .

(٩٥) الطبرى : المصدر السابق حـ ٩ ص ٥٦٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق حـ ٦ ص ٢٩ .

طال الأمر ، تجاسرت فقلت : أليس هذا كتاب سليمان بن موسى ؟ قال : نعم ، ورد بقاصمة الظهر ، ان الذين اناخوا عليه ، اوقعوا به وقعة لم تبق منه ولم تذر ، فكتب كتابة هذا ، وهو بالمذار ، ولم يسلم بشيء غير نفسه » (٩٦) .

ورغم فداحة الخطب فان شاهد العيان يقول : « وصبر الخائن على ما وصل اليه ، وجعل يظهر الجلد ، وكتب الى سليمان بن جامع يحذره مثل الذى نزل بالشعرانى ، ويأمره بالتيقظ فى أمره ، وحفظ ما قبله » (٩٧) .

وبقى امام الموفق ان يواجه قائد الزنج الآخر سليمان بن جامع الذى أخر الموفق حربه حتى يفرغ من الشعرانى الذى كان وراءه ويمثل خطورة عليه . وكان رأى الموفق يمثل بعد نظر حربى حيث انه « اذا بدأ بابن جامع فانه اذا أتاه آنئذ من الخلف شغله عمن هو أمامه » (٩٨) .

استيلاء الموفق على المنصورة (٩٩) :

توجه الموفق الى المنصورة فى جمادى الآخرة سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م وعسكر على بعد ميلين منها ، ثم تقدم الى سور المدينة ، ودارت مناوشات بينه وبين جند سليمان الذين خرجوا عليها من الاكمنة التى اعدوها لذلك فى المضايق ، ورغم أسر بعض غلمان الموفق فقد تمكن بعضهم من اصابة أحمد بن مهدى الجبائى اصابة أدت الى وفاته بعد أيام (١٠٠) ، وكانت وفاته موجعة بالنسبة للزنج .

وقد أعد الموفق العدة للهجوم على المدينة ، ورتب جنده الترتيب الذى يكفل لهم النصر ، وفق تخطيط عسكرى سليم حيث عبأ أصحابه ، « وجعلهم كتائب يتلو بعضها بعضا ، فرسانا ورجالة ، وامر بالشذا والسميريات أن يسار بها معه فى النهر الذى يشق مدينة طهيثا والمنصورة ، المعروف بنهر المنذر ، وسار نحو الزنج حتى انتهى الى سور المدينة ، فرتب قواد غلمانه فى

---

(٩٦) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٦٩ ، وانظر : الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٦١ ، ابو الفلاح : شذرات الذهب حـ ٢ ص ١٥٢ .
(٩٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٦٩ .
(٩٨) الطبرى : نفس المرجع حـ ٩ ص ٥٦٨ .
(٩٩) المنصورة : مدينة كانت بالبطيحة من نواحى واسط : ياقوت : المشترك وضعا ص ٤٠٤ وابو الفداء : تقويم البلدان ص ٣٤٦ .
(١٠٠) الطبرى : المصدر السابق حـ ٩ ص ٥٧٢ .

المواضع التى يخاف خروج الزنج عليه منها ، وقدم الرجالة أمام الفرسان ، ووكل بالمواضع التى يخاف خروج الكمناء منها ، ونزل فصلى أربع ركعات ، وابتهل الى الله عز وجل فى النصر له وللمسلمين » (١٠١)

ثم ما لبث أن عبر جنده الخنادق التى حفرها سليمان بن جامع أمام مدينته ، وتمكن الموفق من تحقيق النصر على سليمان واضطر الى الهرب وهرب معه بعض اصحابه ، ثم امر الموفق بهدم سور المدينة ، وطم خنادقها ، كما أمر بتطهير الآجام المحيطة من رجال سليمان الذين لجأوا اليها .

ولجأ الموفق الى اسلوب حكيم فعفا عن الأسرى ، بل وخلع عليهم وضمهم الى قواد غلمانه ، وبذلك ادخل سلاح الترغيب بمالة من آثار نفسية فى معاركه مع الزنج ، وكان هدفه من وراء ذلك « استمالتهم ، وصرفهم عن طاعة صاحبهم » (١٠٢) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فاستخدم سلاحا نفسيا آخر ضد بعض من أسرهم وهو سلاح الترهيب حيث أمر بقطع راس أحمد بن موسى بن سعيد المعروف بالقلوصى احد أصحاب صاحب الزنج ونصبه على جسر واسط (١٠٣) .

ولا شك أن استخدام السلاحين معا فى آن واحد وبحكمة يحقق أهدافا رائعة . ثم لجأ الموفق الى التقدم بعد ذلك الى الكور التى كان الزنج أقاموها ففتحها بهدف قطع الشذا عن دجلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبى الخصيب .

وهكذا أصاب الموفق الزنج فى مقتلين بانتصاره فى المنيعة ثم المنصورة ، حتى أن صاحب الزنج عندما وصلته تلك الأنباء « انتقض علية أمره وضلت حيله » (١٠٤) .

ومما يدل على مدى الارتباك الذى وقع فيه صاحب الزنج استدعاؤه لبعض قواده للوصول اليه ، فاستدعى المهلبى من الأهواز وبهبود بن عبد الوهاب

---

(١٠١) الطبرى : نفس المرجع حـ ٩ ص ٥٧٣ .
(١٠٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٧٤ ، الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٦١ .
(١٠٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٧٥ .
(١٠٤) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٧٥ .

صاحب عمل الفندم والباسيان بين الأهواز وفارس فترك كل منهما عمله لقمة سائغة للموفق ، مما دفع ببعض اتباع المهلبى وبهبود الى طلب الأمان من الموفق « لما انتهى اليهم عن عفوه عمن ظفر به من اصحاب الخبيث بطهيثا » (١٠٥) ؛ مما يوضح أن سياسة الترغيب التى سلكها الموفق آتت أكلها طيبة .

ولكن رغم هذه الانتصارات ، فان القضاء على حركة الزنج كان يستدعى القضاء على راس الحركة فى مدينته « المختارة » التى يتحصن بها .

الموفقية والمختارة :

وقرر الموفق أن يحسم الأمور للقضاء على حركة الزنج فقرر الاقامة الدائمة بقواته فى مواجهة الزنج ، ولذلك انشأ مدينته المسماة الموفقية بالقرب من المختارة مقر زعيم الزنج (١٠٦) .

كانت المختارة على درجة عالية من الحصانة هيأها صاحب الزنج للمقاومة تهييئا قويا ، وقد رأى الموفق ذلك عندما أشرف عليها وتأملها « فرأى من مناعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها ، وما عور من الطرق المؤدية اليها ، واعد من المجانيق والعرادات والقسى الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعى السلطان » (١٠٧) .

اما الموفقية فقد هيأها الموفق تهييئا تاما لتكون مدينة اقامة فى مواجهة المختارة مهما طال الأمر ، فأقام بها معسكره ، وجعل بها بيت مال خاص بها وأمر عماله فى النواحى فى حمل الأموال اليه فيها ، وجعل لها ديوانا اثبت فيه من يرغب فى ذلك .

وقد وردت الميرة الى الموفقية تباعا ، كما جهز التجار صنوف التجارات والأمتعة ، وحملوها اليها ، واتخذت بها الاسواق ، وكثر بها التجار والمتجهزون

---

(١٠٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٧٦ ، وانظر امثلة اخرى ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

(١٠٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٤٣ ؛
BROKEL man, History of Islamic people, p. 137.

(١٠٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٨١ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٣١ .

من كل بلد ، كما بنى بها الموفق مسجدا جامعا ، وأمر الناس بالصلاة فيه ، واتخذ فيها دورا لضرب النقود ، فضرب فيها الدنانير والدراهم « فجمعت مدينة ابى احمد جميع المرافق ، وسيق اليها صنوف المنافع ، حتى كان ساكنوها لا يفقدون شيئا مما يوجد فى الأمصار العظيمة القديمة ، وحملت الأموال ، وادر للناس العطاء فى أوقاته ، فاتسعوا ، وحسنت احوالهم ، ورغب الناس جميعا فى المصير الى المدينة الموفقية ، والمقام فيها » (١٢٨) .

ويمكن ادراج بناء هذه المدينة كجزء من الحرب النفسية التى شنها الموفق على صاحب الزنج ، فلا شك أن انشاء هذه المدينة جعله يدرك ادراكا تاما ان الموفق قد قرر أمر الانتهاء من حركته ، وان الصراع قد قدر له أن ينتهى فى هذا المكان . وبذلك رما الموفق عصفورين بحجر فهو قد أعد نفسه لحرب طويلة فاصلة مع صاحب الزنج واصابه فى نفس الوقت فى معنوياته .

ورأى الموفق أن من خير الوسائل لكسب الحرب فرض الحصار على المؤن والميرة التى تصل الى صاحب الزنج فعمل على قطع كل موضع أو مسلك يرد منه الى صاحب الزنج ميرة ، وقام ابنه أبو العباس بدور كبير فى هذا المجال (١٠٩) .

وهكذا توطد مركز الموفق ، ورأى أن يبدأ حربه بمكاتبة الى صاحب الزنج يزعزع بها ثقته فى نفسه ويزعزع بها بعض انصاره الذين رأوا الحلقات تضيق على صاحبهم وعليهم ، فكتب الموفق اليه « يدعوه الى التوبة والانابة الى الله تعالى ، مما ركب من سفك الدماء ، وانتهاك المحارم ، واخراب البلدان والأمصار ، واستحلال الفروج والأموال ، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلا من النبوة والرسالة ، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة ، والأمان له موجود ، فان هو نزع عما هو عليه من الأمور ، التى يسخطها الله ، ودخل فى جماعة المسلمين ، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه ، وكان له به الحظ الجزيل فى دنياه » (١١٠) .

---

(١٠٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٨٦ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٣٢ .

(١٠٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٨٧ .

(١١٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٨١ .

ولم يجب صاحب الزنج على كتاب الموفق ، وما كان له أن يجيب اذ كانت اجابته تعنى بالنسبة لأتباعه أنه غرر بهم مما قد يعرضة لفتكهم به ، ولذلك كان عليه أن يسير فى الطريق حتى نهايته .

ولجأ الموفق الى القيام بعملية استطلاعية لمعرفة قوة عدوه واستعداده ، فأمر ابنه أبا العباس بالتقدم الى سور المدينة ، فتقدم اليه بشذواته حتى اقترب منه ورمى بسهامه من المواضع التى تقدم أليها ؛ وكان الرد على أبى العباس عنيفا ، شارك فيه الجنود والعوام فقد ردوا على رمى السهام بسهامهم وحجارتهم وغيرها « وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ، وعراداتهم ومقاليعهم ، ورمى عوامهم بالحجارة عن أيديهم ، حتى ما يقع طرف ناظر من الشذا على موضع الا رأى فيه سهما أو حجرا » (١١١) .

وقد ثبت أبو العباس ورجاله فى مواجهة الزنج رغم ما أصيبوا به ثم انهم عادوا بأمر من الموفق لمداواة الجراح ، والاستعداد لجولة جديدة بعد أن عرف كلا الخصمين قوة صاحبه عن كثب .

على أية حال اثبتت المعارك التى دارت بين الموفق وصاحب الزنج فى سنة ٢٦٧ هـ تفوق الموفق وتفوق أسلوبه الحربى الذى يجمع بين الترغيب والترهيب مضيفا الى ذلك أيضا عنصر الاقناع الذكى ، كما حدث فى احدى الوقعات التى انتصر فيها أبو العباس حيث أمر — تخويفا لأصحاب الزنج ، وترويعا لهم — بتعليق رءوس القتلى فى الشذرات واظهار الأسارى مصلوبين فيها ، وأن يظهرها أصحابه أمام المختارة ليرهبوا بها أشياع صاحب الزنج ، ونجح فى ذلك فعلا حيث ان من بالمختارة عندما رأوا ذلك « أبلسوا ، وايقنوا بالبوار » (١١٢) .

وقد حاول صاحب الزنج حينئذ التمويه على أصحابه ، فأخبرهم بأن الرءوس المرفوعة مثل مثلت لهم ليراعوا ، وأن الأسارى من المستأمنة ، فلما علم الموفق بذلك أفسد عليه تمويهه حيث أمر بجمع الرءوس ، والمسير بها الى

---

(١١١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٨١ .
(١١٢) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٩٠ .

قصر صاحب الزنج ، وقذفها فى منجنيق منصوب فى سفينة الى عسكره ، وعندما سقطت الرءوس فى المختارة ، عرف أولياء القتلى رءوس أصحابهم « فظهر بكاؤهم ، وتبين لهم كذب الفاجر وتمويهه » (١١٣) .

ولا شك ان اظهار كذب صاحب الزنج امام اصحابه خطوة لها خطرها ؛ دفعت البعض من اتباعه الى الانصراف عنه الى الموفق طالبين الأمان ليتمتعوا بما يقرره لهم من امتيازات وتكريم .

ونشطت سفن الموفق فى دجلة نشاطا كبيرا ، حتى ان صاحب الزنج امتنع من اخراج الشذا من فناء قصره ، ومنع اصحابه أن يجاوروا بها الشط ، الا فى الأوقات التى يخلو فيها دجلة من شذرات الموفق (١١٤) .

وشهدت أواخر سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م تباشير واضحة تؤذن بقرب زوال حركة صاحب الزنج ، حيث استأمن فيها عدد من كبار قواده الى الموفق ، فاستأمن محمد بن الحارث العمى وأحمد المعروف بالبرذعى ، وكان احمد من اشجع الرجال ، وكذلك مدبد وابن انكلويه ومنهنة ؛ وقد خلع عليهم الموفق جميعا ، ووصلهم بصلات كثيرة ، وحملهم على الخيل ، كما احسن الى جميع من جاءوا به معهم (١١٥) .

وقد بدات سهام صاحب الزنج تطيش فى صورة تصرفات خاطئة تبعد عنه البعض ايضا ، كما حدث مع زوجة محمد بن الحارث الذى التجا الى الموفق ، فقد كان محمد بن الحارث حاول اخراج زوجته معه ولكن جهده لم يوفق ، واخذ الزنج زوجته الى صاحبهم فحبسها مدة ، ثم امر باخراجها والنداء عليها فى السوق ، فبيعت (١١٦) .

هذا ، وقد أثمرت عمليات الحصار الاقتصادى التى قام بها الموفق لمنع الميرة عن صاحب الزنج ، مما اضطر صاحب الزنج الى اخراج جيش كبير بلغ تعداده عشرة آلاف للعمل على قطع ما يرد الى الموفق من بغداد وواسط من

---

(١١٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٩٠ .
(١١٤) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٩٢ .
(١١٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٩٣ .
(١١٦) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

الميرة ، فأرسل الموفق للقاء هذا الجيش قائده زيرك فألحق الهزيمة الساحقة به (١١٧) .

وقد جمع الطبرى فى براعة الأسباب التى حدت بصاحب الزنج أن يغامر بآخر أسهم ، لتحسين وضعه حين قال : « ان الرؤساء من أصحاب الفاسق لما راوا ما قد حل بهم من البلاء من قتل من يظهر منهم ، وشدة الحصار على من لزم المدينة ، فلم يظهر منهم احد ، وحال من خرج منهم بالأمان من الاحسان اليه والصفح عن جرمه ، ومالوا الى الأمان ، وجعلوا يهربون فى كل وجه ، ويخرجون الى ابى احمد فى الأمان كلما وجدوا اليه السبيل ، فملىء الخبيث من ذلك رعبا ، وأيقن بالهلاك » (١١٨) .

واتخذ صاحب الزنج خطوات مضادة الحفاظ على قوته وقواته ، ومنعها من الخروج من مدينته ، وهى خطوات تدل على مدى حرج موقفه ومدى ما حدث من تخلخل فى جبهته « فوكل بكل ناحية كان يرى أن فيها طريقا للهرب من عسكره احراسا وحفظة ، وأمرهم بضبط تلك النواحى ، ووكل بفوهة الأنهار من يمنع السفن من الخروج منها ، واجتهد فى سد كل مسلك وطريق وثلمة لئلا يطمع فى الخروج عن مدينته » (١١٩) .

ومع ذلك فانه فى شهر ذى الحجة سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م أرسل جماعة من قواد صاحب الزنج الى الموفق يستأمنون اليه ، ويطلبون منه أن يوجه لمحاربة صاحبهم جيشا ، حتى يتمكنوا من الخروج عليه والانضمام الى الموفق ، فأرسل اليهم الموفق جيشا بقيادة ابنه أبى العباس .

ووصل أبو العباس الى نهر الغربى ، ودارت معارك ضارية استمرت بينه وبين جيش كبير للزنج بقيادة على بن أبان المهلبى انضم اليه جيش آخر بقيادة سليمان بن جامع ؛ واستمرت المعارك من الصباح حتى وقت العصر ؛ وتحقق النصر لأبى العباس خاصة وقد انضم اليه من راسلوا أباه من القواد

---

(١١٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٩٣ .
(١١٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٩٤ .
(١١٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٩٤ .

فى جمع كثير من الفرسان ، وكذلك من انضم اليه من رجال صاحب الزنج (١٢٠) .

ولم يكتف أبو العباس بهذا النصر فأغار — فى أثناء عودته — على قوم من الزنج بنهر الأتراك ، وكاد يحقق النصر عليهم ، لولا اجتماع أعداد كبيرة من الزنج جاءت لمناصرتهم ، فى حين لجأ سليمان بن جامع الى مهاجمة قوات أبى العباس من الخلف ، مما أوقع جيشه فى موقف سيىء خسر بسببه كثيرا من رجاله ، مما أطمع الزنج فيه فهاجموه بشدة .

عبور الموفق لقتال صاحب الزنج :

ساء ذلك الموقف الموفق فعزم على العبور بنفسه لمحاربة صاحب الزنج وعبر فعلا فى ٢٤ ذى الحجة « فى أكثف جمع وأكمل عدة » (١٢١) .

ووضع الموفق خطة تجبر صاحب الزنج على تفريق أصحابه ، فكلف ابنه أبا العباس أن يأتى الزنج من مؤخر النهر المعروف بمنكى فى حين يقصد مسرور البلخى الى نهر الغربى ، وكلف قائدين آخرين هما نصير ورشيق غلام أبى العباس بقصد فوهة نهر أبى الخصيب لمحاربة ما يظهر من شذوات صاحب الزنج . أما الموفق نفسه فقصد بجميع من كانوا معه ركنا من أركان مدينة المختارة كان صاحب الزنج قد حصنه أحسن تحصين ، ودارت حرب كبيرة يصورها الطبرى فيقول : « وقصد أبو أحمد بجميع من معه لركن من أركان مدينة الخبيث قد كان حصنه بابنه المعروف بأنكلاى ، وكنفه بعلى بن أبان ، وسليمان بن جامع ، وابراهيم بن جعفر الهمدانى ، وحفه بالمجانيق والعرادات والقسى الناوكية ، وأعد فيه الناشبة ، وجمع فيه أكثر جيشه .

فلما التقى الجمعان ، أمر الموفق غلمانه : الناشبة والرامحة والسودان ، بالدنو من الركن الذى فيه جميع الفسقة ، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك ، وهو نهر عريض غزير الماء ، فلما انتهوا اليه ، أحجموا عنه ، فصيح بهم ، وحرضوا على العبور ، فعبروا سباحة ، والفسقة يرمونهم بالمجانيق والعرادات والمقاليع

---

(١٢٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٩٤ ، وابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٣٣ .

(١٢١) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥٩٧ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٣٤ .

والحجارة عن الأيدى ، وبالسهام من القسى الناوكية ، وقسى الرجل ، وصنوف الآلات التى يرمى عنها ، فصبروا على جميع ذلك ، حتى جاوزوا النهر ، وانتهوا الى السور ، ولم يكن لحقهم من الفعلة من كان أعد لهدمه . فتولى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من سلاحهم ، ويسر الله ذلك ، وسهلوا لأنفسهم السبيل الى علوه ، وحضرهم بعض السلاليم ، التى كانت أعدت لذلك ، فعلوا الركن ، ونصبوا هنالك علما من أعلام الموفق ، وأسلم الفسقة سورهم ، وخلوا عنه بعد ان حوربوا عليه أشد حرب ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وأصيب غلام من غلمان الموفق يقال له ثابت فى بطنه فمات ، وكان من قواد الغلمان وجلتهم .

ولما تمكن أصحاب الموفق من سور الفسقة ، أحرقوا ما كان عليه من منجنيق وعرادة وقوس ناوكية ، وخلوا عن تلك الناحية ، وأسلموها » (١٢٢) .

وفى موضع آخر يقول : « لما غلب أصحاب الموفق على الموضع الذى كان الفاسق حرسه بابنه ، والمذكورين من أصحابه وقواده ، وشعثوا من السور الذى أفضوا اليه ما أمكنهم تشعيثه ، وافاهم الذين كانوا أعدوا للهدم بمعاولهم وآلاتهم ، فثلموا فى السور عدة ثلم ، وقد كان الموفق أعد الخندق الفسقة جسرا يمد عليه ، فمد عليه ، وعبر جمهور الناس ، فلما عاين الخبثة ذلك ، ارتاعوا فانهزموا عن سور لهم ثان قد كانوا اعتصموا به ، ودخل أصحاب الموفق مدينة الخائن ، فولى الفاجر وأشياعه منهزمين ، وأصحاب الموفق يقتلون من انتهوا اليه منهم ، حتى انتهوا الى النهر المعروف بابن سمعان ، وصارت دار ابن سمعان فى أيدى أصحاب الموفق ، وأحرقوا ما كان فيها وهدموها ... » (١٢٣) ورغم ذلك فان « الخبيث حرض أشياعه واستنجدهم ، فبانت منهم جماعة ، وشدوا على السفن المتخلفة ، فنالوا منها نيلا ، وقتلوا نفرا ، وقد كان بهبوذ بازاء مسرور البلخى وأصحابه فى هذا اليوم فى نهر الغربى فأوقع بهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر أسارى ، وصارت فى يده دواب من دوابهم ، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفق » (١٢٤) .

---

(١٢٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٩٧ .
(١٢٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٩٧ .
(١٢٤) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٩٨ .

وعلى الجملة ، يتبين مما تقدم عن المعارك التى دارت فى أخريات سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م ان موازين القوى بين الزنج وقوات الخلافة العباسية قد تغيرت بسلسلة المعارك التى خسرها الزنج ، وان المختارة نفسها اصبحت هدفا قريب المنال للقوات العباسية (١٢٥) .

واستمر الحال كذلك فى سنة ٢٦٨ هـ / ٨٨١ — ٨٨٢ م ، وان بدا تفوق القوات العباسية ارجح ولكن دون تحقيق نتيجة حاسمة (١٢٦) ، وان كانت الشواهد كلها باتت توحى بالانهيار الوشيك لكيان الزنج (١٢٧) .

سنة الحسم (سنة ٢٦٩ هـ) (٨٨٢ — ٨٨٣ م) :

كان الموفق قد اعد العدة فى هذا العام ليعبر الى الجانب الغربى من دجلة ، وعبر بعض قواده فعلا لهذا الغرض ، وتمكن صاحب الزنج ان يفتكوا بجيش احد قواد الموفق فى غربى دجلة مستغلا انفراد هذا القائد ، وسوء الأحوال الجوية ، وقتل كثير من هذا الجيش ، واسرت أعداد أخرى ، بينما عبر من كتبت له الحياة الى المدينة الموفقية وهم فى اسوأ حال .

وكان لذلك اثره السيىء على أهل المدينة ، ولكنه دفع الموفق الى اعادة حساباته ، وتغيير خطته ، فانصرف عن رايه فى النزول غربى دجلة ، وعزم على هدم سور مدينة المختارة مما يلى نهر منكى (١٢٨) .

وحشد صاحب الزنج قواته فى مواجهة قوات الموفق حتى لا تتمكن من هدم سور مدينته ، ودارت المعارك بين الفريقين دون أن يتمكن أيهما من تحقيق النصر ، وخاصة ان أصحاب صاحب الزنج كانوا يسيطرون على قنطرتين على نهر منكى تمكنانهم فى وقت اشتداد الحرب من خروجهم الى طريق يخرج بهم خلف أصحاب

---

(١٢٥) حبيبة : الدول الاقليمية جـ ١ ص ٢٥٩ .
(١٢٦) حبيبة : نفس المصدر ص ٢٦٠ .
(١٢٧) حبيبة : نفس المصدر ص ٢٦٠ .
(١٢٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٦١٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٤١ .

الموفق مما يهيىء لهم فرصة النيل منهم ، واجهاض محاولاتهم لهدم سور المدينة (١٢٩) .

وكان لابد للموفق من التخلص من هاتين القنطرتين ، فكلف بعض رجالها بقطعهما فتمكنوا من ذلك بعد مواجهات عنيفة مع القائمين على حمايتها من الزنج وحملوا خشبها الى الموفق (١٣٠) .

وعمل الموفق على أن يهدم جزءا من السور تمكن قواده ورجاله من الدخول منه، ومحاربة الزنج فى داخل مدينتهم ، وهدموا دور مشاهير رجال الزنج ونهبوها.
واشتد القتال بين الفريقين حول « مسجد الجامع » الذى استبسل رجال الزنج فى الدفاع عنه « حتى لقد كانوا يقفون الموقف ، فيصيب احدهم السهم او الطعنة او الضربة فيسقط ، فيجذبه الذى جنبه ويقف موقفه ، اشفاقا منه أن يخلو موقف رجل منهم ، فيدخل الخلل على سائر أصحابه » (١٣١) .

وبعد مجهود مضن تمكن أصحاب الموفق من هزيمة الزنج وهدموا البناء ، وحملوا منبره الى الموفق ؛ وتمكنوا من ناحية أخرى من هدم السور فى أماكن متعددة ، ووصلوا الى دواوين صاحب الزنج ، وبعض خزائن أمواله وانتهبوا ما فيها ، وبدأت آنئذ تباشير الفتح تلوح للموفق (١٣٢) .

وقد أصيب الموفق فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م بسهم فى صدره رماه به غلام رومى لصاحب الزنج يسمى قرطاس (١٣٣) ، وأظهر الموفق — رغم اصابته — منتهى التجلد ، حيث أخفى خبر اصابته ، وعاد

---

(١٢٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٦١٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١ .

(١٣٠) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٦١٧ ، ابن الأثير : نفس المصدر ج ٦ ص ٤١ .

(١٣١) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٦١٩ ، ابن الأثير : نفس المصدر ج ٦ ص ٤٢ .

(١٣٢) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٦١٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٤١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٤٥ .

(١٣٣) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٦١٩ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٤١ .

الى المدينـة الموفقية حيث عولج من جراحه (١٣٤) ، وعـاد الى الحـرب فى اليوم التالى رغم شـدة آلامه حتى لا يتسرب الضـعف الى جنوده مما أصـاب جراحته بمضاعفات « فغلظت ، وعظم امرها ، حتى خيف عليه ، واحتاج الى علاجه بأعظم مـا يعالج به الجراح » (١٣٥) .

وكانت الأمور فى بغداد آنئذ تسـتدعى عودة الموفق ، بسـبب عزم الخليفة المعتمد الالتجاء الى ابن طولون للتقوى به على الموفق (١٣٦) ، ولكن الموفق أخلص لمعركته ولرجاله ، وصـمم الا يترك المعركة مهما كانت الأمور .

ورغم عنف المعـارك التى شـنها الموفق على مدينة صـاحب الزنج ، فانه لقى منه عنادا شديدا ، وتشـبثا بمدينته ، ومحاولة اصـلاح الثلم التى احدثهـا اصـحاب الموفق فى سـور المدينة .

وظهرت براعة الموفق الحربيـة فى هذه المعـارك ، فكان يترك مكانا يتوقعه فيه عـدوه ليغير عليه فى مكـان يقل توقعه له فيه ، ومن ذلك مهاجمته لصـاحب الزنج على نهـر جوى كـور الذى كان خاليـا من المقاتلين ، مما يسر لأصـحاب الموفق هـدم السـور مما كان يلى هذا النهر ، ويذكر الطبرى نتيجة قيـام الموفق بهذه الحركة البارعة فيقول : « فقرب ، واخرج الفعلة ، فهدموا من السـور مـا كان يلى ذلك النهر ، وصـعد المقاتلة وولجوا النهـر ، فقتلوا فيه مقتلة عظيمة ، وانتهوا الى قصـور من قصـور الفسـقة ، فانتهبوا مـا كان فيها ، واحرقوها ، واستنقذوا عـددا من النسـاء اللواتى كن فيها ، واخذوا خيلا من خيـل الفجرة ، فحملوها الى غربى دجلة ، فانصرف الموفق فى وقت غـروب الشـمس بالظفـر والسـلامة » (١٣٧) .

---

(١٣٤) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك حـ ٩ ص ٦١٩ ، ابن الأثير : الـكامل حـ ٦ ص ٤٢ .

(١٣٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٦١٩ .

(١٣٦) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٤٩ ، سـيدة كاشـف : أحمـد بن طولون ص ١٠٨ ، الكندى : الولاة والقضـاة ص ٢٢٥ وانظر كتابنا : الخلافة العباسية فى العصر التركى الأول ص ١٠٢ .

(١٣٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٦٢٣ .

واستمر الموفق فى العمل جاهدا لهدم سور المدينة وخاض فى سبيل ذلك معارك ضارية حتى تمكن من هدم السور حتى دار أنكلاى ابن صاحب الزنج ، وكانت داره متصلة بدار ابيه ، وهكذا بدأت الحلقات تضيق على صاحب الزنج مما دفعه الى مشاورة أصحابه فى مواجهة الخطر المحدق به وبهم ، فاشاروا عليه ان يجرى الماء على السباخ فى الطريق التى يسلكها أصحاب الموفق ، حتى لا يجدوا الى سلوكها سبيلا ، وأن تحفر خنادق عديدة فى مواضع مختلفة تعوقهم عن دخول المدينة « فان حملوا أنفسهم على اقتحامها فوقعت عليهم الهزيمة ، لم يسهل عليهم الرجوع الى سفنهم » (١٣٨) .

ولكن الموفق بعد أن أتم هدم سور المختارة ، عمل على طم الخنادق والأنهار ، حتى تصلح مسالك لخيله ورجاله ، وعمل الزنج على الحيلولة دون ذلك ، وخاضوا المعارك الضارية .

ولم يجد الموفق من سبيل لتحقيق النصر غير قصد قصر صاحب الزنج نفسه واحراقه ، على أن يهاجم من بالشذوات من دجلة ، ولم يكن ذلك أمرا يسيرا بسبب ما أعده صاحب الزنج من المقاتلة للذود عن داره « فكانت الشذا اذا قربت من قصره ، رموا من سوره ، ومن أعلى القصر بالحجارة والنشاب والمقاليع والمجانيق والعرادات ، وأذيب الرصاص ، وأفرغ عليهم ، فكان احراق داره يتعذر عليهم » (١٣٩) .

واحتال الموفق لذلك بحيلة حربية بارعة فأمر « باعداد ظلال من خشب الشذا ، والباسها جلود الجواميس ، وتغطية ذلك بالخيش المطلى بصنوف العقاقير والأدوية ، التى تمنع النار من الاحراق ، فعمل ذلك ، وطليت به عدة شذوات ، ورتب فيها جميعا شجعان غلمانه : الرامحة والناشبة ، وجمع من حذاق النفاطين ، وأعدهم لاحراق دار الفاسق صاحب الزنج » (١٤٠)

وتمكن الموفق بهذا التخطيط البارع من احراق الكثير من قصور مدينة

---

(١٣٨) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٩ ص ٦٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ﺣ ٦ ص ٤٢ .
(١٣٩) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٩ ص ٦٢٣ .
(١٤٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ﺣ ٩ ص ٦٢٤ .

المختارة ، بما فيها قصر صاحب الزنج نفسه ، الذى فر هاربا بنفسه ، تاركا امواله وذخائره واثاثه ، وسائر أمتعته .

ودخل اصحاب الموفق القصر فانتهبوا ما به من الأموال وكل ما غلا ثمنه ، واستنقذوا النساء اللائى استرقهن ، واضطر صاحب الزنج الى ان يتحول من غربى نهر ابى الخصيب، الى شرقيه (١٤١) .

وحاول صاحب الزنج تأمين نفسه ، فحفر الخنادق ، وافسد الطرق فى وجه اصحاب الموفق ، وكان مما فعله أن حفر خندقا عريضا من حد جوى كور الى نهر الغربي ؛ فراى الموفق عند ذلك أن يخرب باقى السور الى نهر الغربى وتمكن الموفق بعد وقت طويل ، وجهد جهيد من تحقيق ذلك (١٤٢) .

وقد بدا واضحا من سير المعارك آنئذ أن نجم صاحب الزنج قد بدا فى الأفول ، وأن النهاية بدت قريبة ، وليس أدل على ذلك من أن ابنه انكلاى نفسه طلب ان يستأمن الى الموفق ، ووافق الموفق على ذلك ، ولكن صاحب الزنج تمكن من أن يثنى ابنه عن عزمه ، فأطاعه وعاد الى حرب الموفق من جديد (١٤٣) .

وكان مما اثر فى جبهة صاحب الزنج فى تلك الفترة استئمان أحد كبار قواده وهو سليمان بن موسى الشعرانى ، واحسن الموفق استغلال استئمانه فى التأثير فى الجبهة الزنجية ، فأمر ابنه ابا العباس بأن يصحب هذا القائد ومن استأمن معه من رجاله فى الشذا الى حيث أصحاب صاحب الزنج فى نهر ابى الخصيب ، واثمرت خطته فلم تبرح الشذا موقعها حتى استأمن جمع كثير من قواد الزنج وغيرهم (١٤٤) .

وكان مما زاد فى ارتباك صاحب الزنج ، أنه ولى شبل بن سالم مكان موسى الشعرانى ليضبط به مؤخرة جنده ، وكان شبل هذا قائدا مشهورا « من عدد الخبيث ، وقدماء اصحابه ، وذوى الغناء والبلاء فى نصرته » (١٤٥) ،

---

(١٤١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ﺣ ٩ ص ٦٤٤ .
(١٤٢) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٩ ص ٦٣٤ .
(١٤٣) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٩ ص ٦٤٢ .
(١٤٤) الطبرى : نفس المصدر ﺣ ٩ ص ٦٤٢ .
(١٤٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ﺣ ٩ ص ٦٤٣ .

ولكنه فى مســاء نفس اليوم الذى ولى فيه اســتأمن الى الموفق ، وحماته شذوات الموفق وحملت معه أولاده ، وجماعة من قواده ورجاله الى الموفقية ، فوصله الموفق واجــزل له ولأصــحابه العطــاء ، ثم وجه بهم — كشــانه — الى حيث يراهم صــاحب الزنج واشــياعه . وقــد افــاد الموفق كثيرا من شــبل هذا حيث كان الرجل يعرف من اسرار صاحب الزنج وخططه الكثير .

الاقتحــام والنصــر :

ادرك الموفق أن الوقت قد حان للعبور الى محاربة صــاحب الزنج فى الجانب الشرقى ، فعقد لذلك مجلســا عاما عمــل فيه على تأمين جبهته من المســتأمنة انفســهم ، لتكون جبهته صــلبة متماسكة ، فبين لهم مــا كانوا عليه من الضلالة ، وبين لهم تقديره لهم وعفوه عنهم واحســانه اليهم ولذلك فان « مــا كان منه ذلك يوجب عليهم حقــه وطاعته ، وأنهم لن يأتوا شــيئا يتعرضون به لطاعة ربهم ، والاستدعاء لرضــا ســلطانهم ، أولى بهم من الجد والاجتهاد فى مجاهدة عدو الله الخائن وأصحابه » (١٤٦) ، فارتفعت أصــواتهم جميعــا ، تؤكد له اخلاصــهم فى طاعته ، وجدهم فى مجــاهدة عــدوه ، وبذل دمائهم وارواحهم فى ســبيل ذلك ، وارادوا أن يظهروا له مدى صــدق نواياهم ، فطلبوا منه افرادهم بناحية يحاربون فيها ، فأجابهم الموفق الى ما طلبوه (١٤٧) .

ولا شك أن افراد المســتأمنة بناحية يحاربون فيها يدل على مدى بعد نظر الموفق ، حيث سيكونون تحت المراقبة فلا يســتطيعون الخيــانة ، وان حاولوها يمكن الســيطرة عليهم ، كما أمن جنــده من خطر وجودهم بينهم بما يشــكله ذلك من خطورة فى حالة عدم اخلاصــهم ، بالاضــافة الى أن افرادهم بناحية سيدفعهم الى الاستبســال لاظهار مدى بلائهم واخلاصــهم .

هكذا ، وثق الموفق من قوة جبهته ، وبقى عليه أن يتقدم الى قتــال عــدوه بخطى واثقة ثابتة ؛ لتحقيق النصر النهائى .

حشــد الموفق لهذا الهجوم كل ما أمكنه من الشــذا والسميريات ، ووضــع

---

(١٤٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٦٤٤ .
(١٤٧) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٦٤٥ .

خطـة متكاملة له ، فجعل ابنه ابا العباس على جيشــه الى الجـانب الغربى من نهــر ابى الخصـيب ، واضـاف اليه قوادا من قواد غلمانه فى زهــاء ثمانية آلاف من أصـحابهم ، ليهاجموا مؤخرة صـاحب الزنج ، كما وجه عشرين الفا من جنده بقيادة مولاه راشـد الى الجانب الشرقى ، وأمرهم بالمسـير على شـاطىء النهر حتى يصـلوا الى الدار التى نزلها صـاحب الزنج المعروفة بدار ابى عيسى ؛ فى حين أمر فريقا آخر بالخروج الى فوهة نهر ابى شاكر اسـفل نهر ابى الخصيب ، وآخرين على فوهة نهـر جوى كور ، وأمر بأن يتقدم الرجالة على الفرسـان فى جميع الأحوال ، وان يزحفوا جميعهم نحو دار صاحب الزنج (١٤٨) .

ونفذ القواد الخطـة بدقة ، وتمكنوا من تحقيق انتصـارات سـاحقة على صـاحب الزنج ظفروا فيها بالكثير من الأسرى ، وقتلوا الكثير من أصـحاب صاحب الزنج وحملوا رءوسـهم وطافوا بها فى الجند تقوية لروحهم (١٤٩) .

وقد انتهت المعارك الضـارية بين الفريقين بالنصر الحاسم للموفق ، وقتـل صـاحب الزنج ، وقطع رأسـه ، وخر الموفق ساجدا لله على مـا أولاه من نعمة النصر ، ثم أمـر الموفق برفع رأس صـاحب الزنج على قنـاة ونصـبه بين يديه اعلانا بانتهاء تلك الحركة العاتية .

وكان الموفق كريما بعد انتصاره مع من جاءه من الزنج مستأمنين ، فبذل لهم الأمان ، وكان حكيما فى تصرفه هذا « لمـا رأى من كثرتهم وشـجاعتهم ، لئلا تبقى منهم بقية تخاف معرتها على الاسلام وأهله » (١٥٠) .

هكذا ، تمكن الموفق الموفق من القضـاء على تلك الحـركة الخطـيرة التى

---

(١٤٨) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك حـ ٩ ص ٦٤٦ ، ابن الأثير : الكـامل حـ ٦ ص ٥١ .

(١٤٩) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٦٥٢ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٥٢ ، ٥٣ .

(١٥٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٦٦٠ ، ابن الأثير : نفس المصـدر حـ ٦ ص ٥٣ .

ارقت جفن الخلافة ردحا طويلا من الزمان بلغ اربع عشرة سـنة واربعـة اشـهر وسـتة أيام (١٥١) .

وكان لهذا النصر الكبير رنة فرح كبيرة ، وقال الشعراء فيه فأكثروا ، فقال يحيى بن خالد فى الموفق :

ملك أعـاد الدين بعد دروسـه	واسـتنقذ الأسرى من الأغـلال
اطفأت نيران النفاق وقـد علت	يـا واهب الآمـال والآجـال
افنيت جمـع المارقين فاصـبحوا	متلددين قـد أيقنـوا بزوال
امطـرتهم عزمات رأى حـازم	مـلأت قلوبهم من الاهـوال
لـما طغى الرجس اللعين تصدته	بالمشرفى وبالقنـا الجـوال
وتركته والطـير يحجل حوله	متقطع الأوداج والأوصـال (١٥٢)

والحق ، أن الموفق كان يتمتع بعبقرية عسـكرية فـذة (١٥٣) اسـتخدم فى حربه مع صـاحب الزنج أسـاليب الحـروب الحديثـة من حرب نفسـية وحرب اقتصـادية ببراعة وحكمة ، فكان بحق رجل الأقدار الذى سـاقته العناية الالهية لانقاذ الخلافة من هذا الخطـر الكبير الذى تمثل لهـا فى صـورة « حركة الزنج » ، وغيره من الأخطار ، اذ لم يكن انتصـاره على الزنج الا واحدا مما حققه الموفق من انجازات فى دولة أخيـه المعتمد ، حتى ليعود اليه الفضـل فى امتداد سـلطة الحكومة المركزية الى جزء كبير من املاك الخلافة (١٥٤) .

وقد استشعر المؤرخون قديما خطـر ثورة الزنج ولعنوا صـاحبها على مـا

---

(١٥١) كان خروجه يوم الأربعاء ٢٦ رمضـان سنة ٢٥٥ هـ وقتل يوم السـبت ٢ صـفر سـنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م . الكـامل جـ ٦ ص ٥٣ ، الفخرى ص ٢٤٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ .
Saunders, history of medieval Islam, p. 270.

(١٥٢) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك جـ ٩ ص ٦٦٢ ، وغـيرها كثير من ص ٦٦٣ ، ٦٦٥ .

(١٥٣) Shaban Islamic history Vol 2, p. 102 & AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 292.

(١٥٤) Shaban, Ibid, p. 106 & Saunders, p. 107.

(١٥٥) شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٣٠ ، دول الاسـلام جـ ١ ص ١٦٣ ، أبو الفـدا جـ ٢ ص ٥٣ ، أبو المحاسن : جـ ٣ ص ٤٧ .

سـببه من تمزق فى جسـد الخلافة (١٥٥) ومـا أصـاب الناس من ويلاتها حيث قيل ان عدد القتلى فى أثنائها بلغ مليون ونصف مليون انسان (١٥٦) .

وشاركهم فى تقدير خطرها المؤرخون المحدثون فقال الخضرى : « ولم يكن يدرى الا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم ، كان الأمـر ينتقل من ايدى الاتراك الى ايدى الزنوج فتقع الامـة فى الشر العظيم ، والوباء الوبيل ، لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف ، بل لا يكـادون يفقهون قولا ، فانتصار العباسيين عليه خلاص للأمة من شر مستطير » (١٥٧) .

وقال صـاحب موسـوعة التاريخ الاسـلامى : « ونجا العالم الاسـلامى من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرعاع » (١٥٨) .

ويكفى هذا فى بيان فضل الموفق على الخلافة الاسلامية فى تلك الأثناء .

---

(١٥٦) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠١ .
(١٥٧) الخضرى : محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٣٠٥ .
(١٥٨) أحمـد شـلبى : موسـوعة التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسـلامية جـ ٣ ص ٤٠٨ .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

صفحة غادرة

الحكم العباسي المباشر لمصر
في فترة ما بين الطولونيين والإخشيديين

مصر تحت الحكم العباسي المباشر
فى فترة ما بين الطولونيين والأخشيديين

توفى أحمد بن طولون فى ١١ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م عن خمسين عاما (١) ، مخلفا وراءه دولة عظيمة على درجة كبيرة من القوة السياسية والاقتصادية (٢) ، وان خلف وراءه مشكلتين كبيرتين كان على خلفه خمارويه بن احمد بن طولون ان يواجههما وهما : الجزء الشمالى الشرقى المهدد من دولته (اى فى الشام ، واطراف الجزيرة العراقية) والخلاف بينه وبين الموفق طلحة رجل الخلافة العباسية الأول فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) .

والحق أن وفاة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر كانت أول عوامل سقوط الدولة التى أسسها ، حيث لم يخلفه رجال فى مثل مقدرته من خلفائه الأربعة : خمارويه بن أحمد ؛ وجيش بن خمارويه ، وهارون بن خمارويه ، ثم شيبان ابن أحمد بن طولون .

ويؤكد صدق ما ذهبنا اليه ان الدولة التى تركها احمد بن طولون فى عنفوان قوتها الاقتصادية ، حتى صارت محط نظر الموفق لتكون بمثابة الممول لحروبه التى خاضها لاقرار سلطان الخلافة العباسية ، هذه الدولة وصلت الى درجة الخراب الاقتصادى فى أخريات عهد أبنه خمارويه (٢٧٠ — ٢٨٢ هـ = ٨٨٣ — ٨٩٥ م) .

حقا نجح خمارويه فى تحقيق الاستقرار للأجزاء الشمالية الشرقية (٣) ، وحقا نجح فى تحسين علاقة دولته بالخلافة العباسية ، ولكنه دفع بالاقتصاد المصرى الى حافة الهاوية فى سبيل ذلك ؛ فقد أوقع نفسه فى شرك مصاهرة الخليفة

---

(١) الكندى ، الولاة والقضاة ص ٢٣١ ، على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٨٣ وانظر :

AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 249.

(٢) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ١ ص ٣٥٢ .

(٣) Shaban, Islamic history Vol 2, pp. 112—113 & H. IBRAHIM, Islamic and history Culture, pp. 217—218.

العباسى المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) = (٨٩٢ — ٩٠٢ م) ، حين عرض أن يزوج ابنته قطر الندى من المكتفى ابن الخليفة المعتضد ، ولكن المعتضد رأى أن تكون تلك الزيجة من نصيبه هو (٤) ، وبذلك أحكم الشرك الذى وقع فيه خمارويه ، فزواج الخليفة نفسه من ابنته تشريف دونه أى تشريف ، وكان عليه أن يجهزها بجهاز يضاهى به نعمة الخلافة (٥) « فلم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها » (٦)

ويقال ان الخليفة العباسى المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها ، ويعلق أبو المحاسن على هذا فيقول : « وكذا وقع ، فانه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف » (٧) .

فاذا أضيف الى ذلك اسراف خمارويه على المنشآت التى أنشأها ، والتى كانت على خلاف منشآت أبيه ، فلم تكن منشآت تهدف الى النفع العام ، بل اتخذت الطابع الخاص مثل بستان خمارويه الذى كسا فيه أجسام النخل بالنحاس المذهب ، وأنشأ له فيه مجلسا سماه « دار الذهب » طلى حوائطه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش وجعل فى حوائطه مقدار قامة ونصف صورا بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياه والمغنيات اللائى يغنينه « فكان من أعجب ما بنى فى الدنيا » (٨) على حد قول أبى المحاسن ، وكان خمارويه بنى هذه الدار لحظية له تسمى « بوران » ، توفيت قبيل تجهيز خمارويه لابنته قطر الندى (٩) ؛ كما حفرت فى عهده بركة من الزئبق ، لتساعده على النوم

---

(٤) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 74 & Shaban, Islamic history Vol 2, p. 117.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٩ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٩ .

(٧) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٣ ، ٥٦١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٩ ،

Lane Poole, A history of Egypt..., p. 74.

(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ ، ٥٥ .

(٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٩ ،

ZAKI HASSAN, Les Tulunids, p. 129.

المربع ، وذلك أمام دار الذهب ، بالاضافة الى حديقة للحيوان ، جلب لها كل ما هو عجيب من أصناف الحيوان (١٠) .

وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة الف دينار فى السنة وبلغت نفقات مطبخه بمفرده ثلاثة وعشرين الف دينار فى الشهر أى « ٢٧٦ الف دينار سنويا » (١١) .

ولم يكن غريبا بعد كل هذا الاسراف أن تقفر خزائنه ، حتى عد المؤرخون وفاته مكرمة له أنقذته من الافتضاح ، فقال صاحب النجوم الزاهرة : « فمات حقا حين حاجته الى الموت ، لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت عادته به ، لاستصعب ذلك عليه ، ولو نزلت به ملمة لافتضح » (١٢)

وتؤكد كثير من المصادر العربية أن قطر الندى حين وصلت الى بغداد كان خمارويه فى هم مقيم وكرب شديد ، مما دعاه الى لعن ابن الجصاص الذى تولى أمر هذا الجهاز وأشار على خمارويه بمحتوياته (١٣) .

وقد شهدت سنة ٢٨٩ هـ وفاة قطر الندى ثم الخليفة المعتضد وفى ذلك يقول أحد المؤرخين المحدثين : « وهكذا زال من عالم الوجود خمارويه وقطر الندى والمعتضد ، وكأن القدر لم يشأ أن يبقيهم على قيد الحياة حتى يشهدوا مصرع الدولة الطولونية ، فقد كان زواج قطر الندى والمغالاة فى تجهيزها ايذانا بزوال تلك الدولة الفتية ، التى بدأ السوس ينخر عظامها فى ليالى أعراسها ، حتى لفظت فى النهاية أنفاسها ، بعد أن كان الأمل من الزواج أن يثبت العرش فى بيتها » .

وقد انعكست آثار اسراف خمارويه وتخريبه لخزانة الدولة فى عهد ابنه أبى العساكر جيش الذى كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره (١٤) ، حتى ان

---

(١٠) Lane Poole, A history of Egypt..., p. 74.

(١١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ١٤٩ ، Lane Poole, Ibid, p. 74.

(١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ .

(١٣) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٨٦ .

(١٤) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle Egypt, p. 75.

جماعة من كبار القواد تقاعدوا عن مبايعته « لقلة المال ، وعجزه عن أن ينعم عليهم » (١٥) .

وليس ثمة شك فى أن مركز الدولة السياسى يتوقف الى درجة كبيرة على مركزها الاقتصادى ، ومن ثم يصح لنا أن نقول — وفقا لما قدرته الأحداث فيما بعد — أن الدولة الطولونية بدأت مرحلة الاحتضار فى سنة ٢٨٢ هـ / ٢٩٥ هـ سنة وفاة خمارويه : حيث استمر حكم الطولونيين بعد ذلك حوالى عشر سنوات من سنة (٢٨٢ هـ ٢٩٢ هـ) (٨٩٥ — ٩٠٥ م) كلها فوضى وشقاق ونزاع ، وبخاصة بين الجند الذين انقسموا فى نصرتهم للأمراء الى طوائف وأحزاب .

والحق ، أنه لم توجد الشخصية القوية — بعد خمارويه — التى تستطيع انقاذ الدولة من محنتها ، فشخصية جيش شخصية ضعيفة متهالكة على اللذة واللهو ، بويع « وهو صبى لم يؤدبه الزمان ، ولا محنه التجارب والعرفان » (١٦)، فوقع فريسة لبطانة السوء . ويصور أبو المحاسن ذلك فيقول : « فلما تم أمر جيش المذكور أقبل على الشرب واللهو مع عامة أوباش منهم غلام رومى لا وزن له ولا قيمة يعرف ببندقوش ، ورجلان من عامة العيارين الذين يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ، ويمانون الصراع ، أحدهما يعرف بخضر ، والثانى يعرف بابن البواش ، وغير هؤلاء من غلمان لم يدن لهم حال ، جعلهم بطانته » (١٧) .

وقد حرضت بطانة السوء هذه جيشا على عمه أبى العشائر نصر بن أحمد ابن طولون ، وأهمل جيش أمر رعيته ، ووجه اهتمامه الى تلك الطائفة من بطانة السوء مما أثار عليه قواد أبيه الذين كانوا على درجة من الكفاءة والقوة ، ووصلت الى أسماع هؤلاء القواد ما كان يتوله جيش فى مجالس سكره وعربدته ، حيث كان يمنى بطانته بأن يلوا ما يليه هؤلاء القواد قائلا لهم : « غدا أقلدك موضع فلان ، وأهب لك داره ، وأسوغ لك نعمته ، فأنت أحق من هؤلاء الكلاب » ، ثم يزيد وعيده بالفتك بهم فيقول : « لأطلقن الرجالة عليهم ، ولأفعلن بهم » (١٨) .

---

(١٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٨ .
(١٦) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٣ ص ٨٨ وانظر :
Lane-Poole, op cit, p. 75.
(١٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٨ .
(١٨) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٣ ص ٩٠ .

وكانت نتيجة ذلك أن انحاز عـــدد كبير من كبار قواد دولته مثل ابن كنداح ، ومحمد بن اسحق ، وخاقان البلخى ، وبدر بن وصيف الى الخليفة المعتضـــد بالله الذى احســـن لقاءهم وضـــاعف أرزاقهم « وخلع عليهم ، وصـــنع فى أمرهم كل جميـل » (١٩) .

وكان ممن انشق عليه طغج بن جف أمير دمشق — وابن طوغان أمير الثغور ، مما أثر تأثيرا كبيرا على كيان الدولة الطولونية .

وفوق ذلك ، فان تهور جيش وصل الى أقصى درجاته ، حينما أقدم على قتل عمه نصر ، وعم آخـــر ، والقى برأسيهما الى الجنـــد الذين كانوا قد ثاروا رغبة فى تنحيته وقال لهم : « هؤلاء هم امراؤكم » (٢٠) .

وكانت النتيجة أن هجم الجند الثائرون عليه ، وقتلوه ، وقتلوا أمه معـــه ، واحرقوا داره بعد ان نهبوها ، وولوا مكانه أخاه هارون بن خمارويه (٢١) ، وقد قيل كذلك أن أبا موسى هارون هو الذى قتل أخاه أبا العساكر جيش (٢٢) .

وعلى أية حال ، فان ما يهمنا هو معرفة شخصية هارون هذا ، وكيف سارت الأمور فى عهده .

بعد قتل جيش بن خمارويه بايع كبار رجال الدولة أخـــاه أبا موسى هارون الذى كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره ، فلم يكن يصلح للولاية والحكم (٢٣) ، وقد ظهرت فى خلال مدة حكمه التى استمرت من سنة ٢٨٣ — ٢٩٥ : ٨٩٥ — ٩٠٥م كل السلبيات التى كانت تحيط بالدولة الطولونية ، وفى مقدمتها انقســـام البيت الطولونى ، واحتدام الصراع بين زعمائه .

---

(١٩) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٣ ص ٩٠ ، الكندى : الولاة والقضـــاة ص ٢٤٢ ، الخطط ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢٠) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 75.

(٢١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٢ والخطط ج ١ ص ٣٢٢ ، Lane-Poole, Ibid, p. 75.

(٢٢) ZAKI HASSAN, Les Tulunids, p. 138.

(٢٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٤٩ .

وقد هيأ صغر سن هارون لأبى جعفر بن ابى أن يدبر الأمور دونه (٢٤) ، وقد راى ابن ابى فى وجود ربيعة بن احمد بن طولون عم هارون خطورة على هارون ، حيث كان ربيعة يرى نفسه احق بالأمر من ذلك الصبى الصغير ، فأبعده الى الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يحد من مطامع ربيعة ، وراسله قوم يحثونه على ان يعمل لتقلد الأمور بدلا من هارون ، وقالوا له : « انت رجل كامل ، مكمل التدبير ، وقد تقلدت البلدان ، وأحسنت سياستها ، ولو كشفت وجهك لتبعك اكثر الجيش » (٢٥) ، فحضر ربيعة الى الفسطاط ، ولكنه لم يجد التأييد الذى وعد به فهزم (٢٦) ، وان اظهر شجاعة فائقة فى حرب من تصدوا له « وبقى كالليث يحمل على قطعة قطعة فينقضها وتنهزم عنه » ولكنه فى النهاية قبض عليه ، وضرب بالسياط حتى الموت (٢٧) .

وقد أدت سيطرة ابن ابى على الأمور الى طموح بعض كبار رجال دولة خمارويه الى أن يكون لهم نصيبهم ، فسيطر كل منهم على قطاع من الجيش ، « وصار عطاء كل طائفة من الجند الى دار الذى صارت فى جملته ، وصاروا له كالغلمان » (٢٨) ، وأدى ذلك الى تمزيق القوة العسكرية للجيش الطولونى بكل ما يعنيه ذلك من تأثير مدمر على كيان الدولة الطولونية (٢٩) ، فقد عجزت الدولة الطولونية عن محاربة القرامطة الذين هزموا جيوش خمارويه فى سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) فى الشام وتمكنوا من حصار دمشق ، وقد قاست الجيوش المصرية من الخسائر الثقيلة (٣٠) .

---

(٢٤) A history of Egypt in the middle ages Lane-Poole, op. cit, p. 75.

(٢٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٩ .

(٢٦) Lane-Poole, Ibid p. 75.

(٢٧) الكندى : الولاة والقضاة ٢٤٢ ، ويقول الدكتور حسن ابراهيم فى وصف انفضاض الجند عن ربيعة « وكان حالهم مع ربيعة كحال أهل الكوفة مع الحسين ابن على ، فقد خذلوا ربيعة ، وقعدوا عن نصرته » تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ١٥٠ .

(٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ص ١٠١ .

(٢٩) حامد غنيم : عصر الدولة الاقليمية جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٣٠) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 76 &

ودبت الوحشة — من ناحية أخرى — بين الخليفة المكتفى بن المعتضد (٢٨٩ — ٢٩٥ = ٩٠٢ — ٩٠٨ م) وبين هارون ، فأرسل لحربه محمد بن سليمان الكاتب للاستيلاء على مصر واسقاط دولته .

وقد تجهز هارون لمقاومة الجيش العباسى القادم برا بقيادة محمد بن سليمان ، وبحرا بقيادة دميانة بن يازمان أمير البحر وقتئذ (٣١) ، ووصل هارون الى العباسة (٣٢) ، ولكنه قتل بعد أن شرب الخمر حتى الثمالة ، ونام آمنا ، حيث وثب عليه بعض غلمانه فذبحه ، وحامت الشبهة حول بعض أعمامه ، وتفرقت الظنون فى قاتله (٣٣) .

وقام بالأمر بعده عمه شيبان بن أحمد بن طولون المعروف بأبى المناقب ، وبايعه الناس بعد أن تعهد أن يقوم بأمور الدولة أحسن قيام ، وكان ذلك فى صفر سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م ، ولم تطل مدة شيبان هذا اذ استمرت اثنى عشر يوما تاركا جيشه لقدره (٣٤) .

وكانت شكوك قواد جيش شيبان فى قتله لهارون من أسباب انفضاض بعضهم عنه ، فانفض عنه أبو جعفر بن أبى ، ونجيح الرومى ، وانضما الى جيش محمد بن طغج الذى كان نائب دمشق المناوىء للطولونيين (٣٥) .

وفى عهد شيبان تمكن محمد بن سليمان الكاتب من دخول مصر ، واعادتها الى الحكم العباسى المباشر ، وسقطت دولة الطولونيين .

وقد قال بعض الشعراء عن شيبان وعهده :

أصبحت تطلب أمرا عز مطلبه   هيهات صدع زجاج ليس ينجبر (٣٦)

---

(٣١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٩ وانظر :

(٣٢) هى بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من ناحية الشام من الديار المصرية ، وبينها وبين القاهرة ٢٥ فرسخا . وهى من أعمال الشرقية ، على مسيرة يوم من بلبيس . ياقوت : جـ ٤ ص ٧٥ ، قوانين الدواوين ص ٨٥ وانظر :
Lane-Poole, Ibid, p. 76.

(٣٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ٣ ص ١٠١ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٢٢ ،
Lane-Poole, Ibid, p. 76.

(٣٤) Lane-Poole, Ibid, p. 76 & ZAKI HASSAN, Les Tulunids, p. 151.

(٣٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٧ .

(٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٤ .

وبانتهـــاء فترة حكم الطولونين لمصر ، قاســـــت مصر فترة ثلاثين ســـنة من عـــدم الاســـتقرار (٣٧) .

حال الدولة العباسية فى تلك الفترة :

توفى الخليفة المعتضـــد بالله فى ســـــنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م لتنتهى بذلك فترة الصـــحوة المؤقتـــة التى بدات منذ ســـنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م ، واســـتعادت فيهـــا الخلافة هيبتهـــا وتحررت من نفوذ الأتراك على مقدراتها (٣٨) ، وكان الموفق طلحة ابو الخليفـــة المعتضـــد صـــاحب الفضـــل فى تعميق هذه الصـــحوة بشـــخصيته القوية المســـيطرة .

ورغم ان فترة حكم المعتمد (٢٥٧ هـ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م) شهدت فى بدايتها مرحلة عصـــيبة فى العلاقات بين احمـــد بن طولون فى مصر والموفق طلحة الرجل الأول فى الخلافة العباســـية ، فانها شـــهدت تحســـنا فى العلاقات منذ ولاية خمارويه وتأكد هذا التحســـن باصـــهاره الى الخليفـــة المعتضـــــد الذى تزوج من قطر الندى ابنة خمارويه .

غير أن الخلافة العباســـية بعد وفاة المعتضـــد ما لبثت أن ارتدت مرة ثانية الى الوقوع تحت ســـيطرة الأتراك حيث لم يكن للخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) مـــا كان لأبيه المعتضـــد من مقدرة وقوة ، فعادت للمنافسات والدسائس من جديد بين الوزراء والقادة الأتراك .

ومع ذلك فان الدولة لم تتزلزل دفعة واحدة لأن المعتضـــد قبل المكتفى كان قـــد ثبت قواعدها ، وعلى هذا فما كان لمن يجىء بعـــده مهما ارتكب أن يقضى على التراتيب الموضوعة من سنين .

ولكن الأمور مـــا لبثت أن تردت الى اقصى درجاتها بتولى المقتدر بالله للحكم (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٧ — ٩٣٣ م) حيث « انحرفت الهيبة ، وضـــعف امـــر

---

(٣٧) H. IBRAHIM, Islamic and history Culture, p. 218.

(٣٨) انظر كتابنا : الخلافة العباسية فى العصر التركى الأول ص ٧٣ — ١٢٤ .

الخـلافة » (٣٩) ، وقـد غلب هذا الخليفـة على أمـره ، وخلع مرتين ثم ذبح فى النهـاية (٤٠) .

ولم يكن عجبـا والحال كذلك أن تلاشـت هيبة الخلافة ، وأصـبح العرش مـرة ثانية هدفا للازدراء فى الداخل ، وفرصـة سـانحة للمغيرين على الدولة من الخارج (٤١) ، وكان من أسـباب ضـعف هذا الخليفة تصرفه على مقتضى اشـارة النسـاء والخدام ، فخرجت الممالك ، وطمع العمال فى الأطراف (٤٢) .

وهذا كان عصر المقتدر على حد قول ميور عصرا « زالت فيه الرجولة والقوة والفضـيلة » (٤٣) واسـتمر الصراع على السـلطة بعد تولى القاهرة الخلافة (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ = ٩٣٥ — ٩٣٧ م) .

محمد بن سليمان وحكم العباسيين المباشر لمصر :

كان الخليفة المعتضـد بالله العباسى ابن أبيه حقـا ، فقد سـيطر على أمور الدولة التى وطأ أكنافها له أبو الموفق طلحة ، وظهر فى صـورة الحاكم القادر على مباشرة سلطانه والتمتع بحقوقه .

واذا كان المعتضـد قـد نجح — كما يقال — فى العمـل على خـراب مصر الاقتصـادى الذى أدى الى الفسـاد العسـكرى والسـياسى لدولة الطولونيين بعد خمارويه ، فقد نجح خمارويه فى تأخير رغبة المعتضـد فى اسـترداد مصر الى سـلطان الخلافة العباسـية المباشر ، فقد كان فى اسـتطاعة المعتضـد استرداد مصر والشـام والقضـاء على مـا تبقى من نفوذ الطولونيين لولا مراعاته لعلاقة المصـاهرة ووفاؤه لزوجته قطر الندى ، وعـدم رغبته فى التعرض لأخيهـا أبى العسـاكر جيش (٤٤) .

---

(٣٩) Encylopedia of Islam, Art "Al Muktadir".

(٤٠) Muir, The Caliphate, p. 568 & AMIR Ali,
A short history of the Saracenes, p. 300.

(٤١) ابن الوردى : تتمة تاريخ المختصر ص ٢٥٣ ، أبـو الفـدا بالمختصر حـ ٢ ص ٢٦ .

(٤٢) Muir, up. op. cit, p. 568.

(٤٣) Muir Ibid, p. 568.

(٤٤) سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ١١٣ .

فلما آلت الخلافة الى المكتفى كان لنظره أن يمتد الى مصر المتداعية ، لاسيما بعد تمكنه من هزيمة القرامطة قرب حماه ، والقضاء عليهم ، وحمل زعمائهم أسرى الى العراق (٤٥) .

وصدرت اوامر المكتفى الى محمد بن سليمان قائده المنتصر على القرامطة بالزحف على مصر (٤٦) ، وذلك بعد أن عرض محمد بن سليمان ما عرضه عليه بعض الأمراء الناقمين على البيت الطولونى (٤٧) .

وقد زود المكتفى محمد بن سليمان بما يلزمه من الجنود والأموال ، وقد بلغ عدد جنده سبعة عشر الف رجل (٤٨) ، كما أمر دميانة أمير البحر بالتوجه فى أسطول بحرى الى مصر ، بحيث يتمكن من دخول النيل وقطع المواد عن مصر .

وفى حين نجح دميانة فى مهمته ، زحف محمد بن سليمان فى جيشه برا حتى دنا من مصر ، وكاتب من بها من القواد المتنكرين للطولونيين ، فانضموا اليه ، مما أثر فى القوة الطولونية التى كان عليها أن تتصدى لجيش الخلافة .

ورغم ما كان قد أصاب الطولونيين من ضعف ، ورغم خيانة بعض قوادهم ، فانهم لم يستسلموا دون مقاومة ، فقد خرج هارون بن خمارويه فيمن معه لقتال محمد بن سليمان « فكانت بينهم وقعات » (٤٩) .

وليت الأمور وقفت عند هذا الحد ، بل شاء القدر أن يقتل هارون بن خمارويه فى ١٩ صفر سنة ٢٩١ هـ والموقف متحرج للغاية ، فقد استولى العباسيون على تنيس ودمياط ، بعد أن انتصر الأسطول العباسى على أسطول الطولونيين ؛

---

(٤٥) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ١٠٨ وانظر
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 299.
(٤٦) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 133.
(٤٧) Shaban, Ibid, p. 133.
(٤٨) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٩٩ .
(٤٩) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ١١٠ ، ابو الفدا : المختصر حـ ٢ ص ٦٠ .

وروايات قتله تدل على مـا أصـاب المعسكر الطولونى من ضعف وانشقاق (٥٠) .

وعلى الجملة ، فان هارون قتـل والموقف متأزم ، فقـام بالأمـر بعده عمه شـيبان الذى اراد جمع مـا تبقى من فلول الجيش الطولونى ، وعمـل شـيبان على صرف العطـاء لجنده ، ولكن الأمور كانت قد زادت تحرجا لتقدم الحسـين بن حمدان أحد قادة الجيش العباسى من جرجير (٥١) الى العباسة فى جيش قوى انضم اليـه فى الطريق ابن ابى مـع جميع الرؤسـاء الذين كانوا قـد انفضـوا عن الطولونيين .

وتمكن محمـد بن سـليمان من تجميع القوات كلها تحت قيادته والتقدم بهـا صـوب مصر ، ومن ناحية اخرى ، وصـل دميـانة قائد الأسـطول العباسى فى ثمانية عشر مركبـا حربيا مشـحونة بالرجال والسـلاح ، ونفذ الخطـة المتفق عليها بقطع المواد عن مصر ، فضرب جسر مصر الشرقى بالنار فأحرقه عن آخره ، واحرق بعض الجسر الغربى ، فى الوقت الذى كان فيه محمد بن سليمان قد ضرب خيامه على مدينة مصر .

ورغم تحرج الموقف فان شـيبان الذى كان « جسـورا جسـيما جلدا شديد البدن فى عنفوان شـبابه » (٥٢) ، اراد أن يقاوم ، واجتمع حوله عـدد غـير قليل بين فارس وراجل ، وقـام بمقاومة الجيش العباسى فعلا ، ولكن المقاومة لم تطل واضـطرت الظروف شـيبان الى التفكير فى الأمر بعد ان وصـله كتـاب من القـائد العباسى محمـد بن سـليمان يعرض عليه فيه أن يؤمنه « على نفسـه ، وجميع اهله وماله وولده وبنى عمه جميعا » ؛ فقد قارن شـيبان بين جيشـه وجيش

---

(٥٠) فرواية المقريزى : ان الذى قتله عماه شيبان وعدى حيث قتلاه وهو ثمل ، ورواية أبى المحاسن : أن قاتله عمه شـيبان ، ورواية ابن الأثير : ان الذين قتلوه بعض المغاربة لخلاف فى صفوف أصـحاب هارون ، ويوافقه فى هذا أبو الفدا وابن الوردى . أنظر : الخطط حـ ١ ص ٣٢٢ ، النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، الكـامل حـ ٦ ص ١١٠ ، المختصر حـ ٢ ص ٦٠ . وتتمـة تاريخ المختصر حـ ١ ص ٢٤٨ وانظر ،

Lane-Poole, p. 76.

(٥١) جرجير : من اعمال محافظة الشرقية . قوانين الدواوين ص ١٢٤ .

(٥٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٧ .

اعدائه ، ووجد أن المقارنة ليست فى صالحه ، وان الحرب طالت أم قصرت ستنحسم لصالح العباسيين ، فآثر السلامة ، واغتنام الفرصة التى اتاحها له محمد بن سليمان فاستأمن اليه ، وارتكب فى آخر لحظات حكمه ذنبا لا يغتفر فى حق جيشه ، وذلك انه استأمن الى محمد بن سليمان ، وسار اليه بليل فى اخوته وبنى عمه ، دون أن يخطر جيشه بما قر عليه قراره ، ووصف الكندى ذلك الموقف فقال : « فلما راى شيبان ذلك ، اى انحياز الكثيرين من اتباعه الى جانب القائد العباسى أرسل الى محمد بن سليمان فى أمانه وأمان اخوته واهله فامنهم » (٥٣) .

وهكذا ، فى حين وقع شيبان واقاربه فى قبضة محمد بن سليمان ، ترك جيشه فريسة للقوات العباسية دون قيادة ، فانهزم جيشه فى صبيحة اليوم التالى ، وفعل العباسيون بقطائع السودان الطولونية أفظع القبائح ، فكانوا يأخذون من وقع فى أيديهم ، فيصيرون بهم الى محمد بن سليمان « فيأمر بذبحهم بين يديه كما تذبح الشاة » (٥٤) .

وهكذا تم لمحمد بن سليمان استرداد مصر الى حكم العباسيين المباشر فى سنة ٢٩٢ هـ ٩٠٥ م ودخل الفسطاط (٥٥) ، وقد تم له ذلك فى خلال شهور (٥٦) ؛ وأصبحت مصر ولاية عباسية ، وجزءا لا يتجزأ من بلدان الخلافة العباسية (٥٧) .

سيرة محمد بن سليمان وجنده فى مصر :

اتبع محمد بن سليمان اقبح سيرة فى تعامله مع اهل مصر ، فأخذ يضرب أعناق المصريين ، واحرق مساكن السودان بعد ان قتل فيها خلقا كثيرا منهم ، وصيرها خرابا يبابا .

---

(٥٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٧ .

(٥٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٧ ،
Lane-Poole, A history of Egypt..., p. 76.

(٥٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٧ ،
Lane-Poole, Ibid, p. 76.

(٥٦) Lane-Poole, Ibid & Shaban, Islamic history Vol2, p. 133.

(٥٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٨ وانظر :
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 299 & Shaban, Ibid, p. 134.

وســلك جنوده فى مدينة مصر أقبح مســلك حيث « هجموا على دور الناس فنهبوها ، وأخذوا أموالهم واســتباحوا حريمهم ، وفتكوا فى الرعيــة ، وافتضــوا الأبكار ، واسروا المماليك والأحرار من النساء والرجال » ، « وفعلوا فى مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم » ، ولم يســلم منهم حتى كبــار رجال الدولة وأربابها « فأخربوا ديارهم ليسكنها الجند العباسيون » ، « وهرب غالب أهــل مصر منها ، وفعلوا فى المصريين ما لا يفعلونه فى الكفرة ، وأقاموا على ذلك أياما كثيرة مصرين على هذه الأفعال القبيحة » (٥٨) .

وأمر محمد بن ســليمان بتشــهير الأسارى الذين وقعوا فى أسر دميانة لدى ســقوط دمياط ، فشهروهم على الجمال ، وطافوا بهم فى العســكر العباسى كله وهم يلبســون القلانس الطوال . ثم قام محمــد بن ســليمان بمصــادرة الأموال ، وتعذيب الرجال والكتــاب ، وشــملت تلك المصــادرة حتى الخائن ابن أبى الذى خان الطولونيين وهو رجلهم الذى رفل فى نعمائهم فانضــم الى العباسيين الغزاة ، وأخذ منه خمسمائة الف دينار (٥٩) .

هذا ، وقد ظل القطر المصرى وحاضرته مدة ثلاثين عاما فريســة لاســتبداد جند العباســيين وعدوانهم ، وكان قواد الخلفاء يفعلون مــا يحلو لهم ، حيث لم يكن للخلافة فى بغداد عليهم قوة أو سلطة (٦٠) .

وتبين لهجــة المؤرخين المصريين فى تناولهم لفظــائع العباســيين بمصر أن المصريين كانوا آنئــذ يؤثرون حكم بنى طــولون على حكم الولاة التــابعين للدولة العباسية تماما (٦١) .

وقد صــدرت أوامر الخلافة الى محمد بن ســليمان بالرحيل عن مصر والعودة الى بغــداد حاملا معه آل طولون ، فاســتصــحبهم معه جميعــا وكانوا حوالى

---

(٥٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٢ .

(٥٩) أبو المحاسن : نفس المصــدر جـ ٣ ص ١٣٩ ، المقريزى : نفس المصــدر جـ ١ ص ٣٢٢ .

(٦٠) لين بول : سيرة القاهرة ص ٩٥ .

(٦١) حسن محمود : الطولونيون والأخشيديون ص ١٢٨ .

عشرين رجلا (٦٢) ، وفى هذا يقول أبو المحاسن : « ثم أخرج قوادهم الى بغداد على اقبح وجه ، فلم يبق بمصر احـد يذكر ، وخلت منهم الديار ، وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد التطريد والتشريد بعد اللذ » (٦٣) .

وبذلك انتهت دولة بنى طولون بعد حكم مصر سـبعة وثلاثين عاما استعادت مصر فى خلالها كثيرا من اهميتها الغـابرة ، ووصـلت فى خلالها حاضرتها الى درجة عالية من الغنى والرفاهية لم تعرفها منذ الفتح العربى (٦٤) .

وقد قبض الخليفة بعد ذلك على محمد بن سليمان وصادر أمواله ، ويبدو أن الخليفة اتهمه باختلاس اموال مصر (٦٥) .

وعلى الجملة ، فقد كان سـلوك العباسـيين لدى دخولهم مصر لاعادتها الى الحكم العباسى المبـاشر من آل طولون الذين كانت دولتهم « من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام » (٦٦) .

والحق أن هذا المسـلك الشـائن الذى سـلكه العباسـيون فى مصر لم يكن له مـا يبرره ، فبنو طولون كانوا ابر الناس بالدولة العباسـية وانفعهم لهـا « فهم لم يخرجوا على الطـاعة ، ولم يمنعوا مالا » (٦٧) ، وهم الذين سـاندوا الخلافة بالأموال فى حربها ضـد الزنج ، وهم الذين اصـهروا الى الخـلافة تقديرا لهـا وتعظيما ، وهم الذين حملوا على قدر اسـتطاعتهم عبء الحـرب ضـد البيزنطيين (٦٨) ، فما الذى جعل محمد بن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بنى

---

(٦٢) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٣٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١ ص ٩٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر حـ ١ ص ٢٤٨ وانظر :
Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 77.

(٦٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٣٣ ، وانظر : خطط المقريزى حـ ١ ص ٣٢٢ .

(٦٤) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 77.

(٦٥) أحمـد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٥ ص ٨٨ ، على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٨٩ .

(٦٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٣٩ وانظر :
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 249.

(٦٧) حسين مؤنس : تاريخ مصر من الفتح الاسلامى ص ٤٠٤ .

(٦٨) حسين مؤنس : نفس المصدر ص ٤٠٤ .

طولون مـا فعلوا ؟ لماذا خملوهم الى بغداد مصفدين كانهم أسرى حرب ؟ ثم لماذا عاثوا فسادا فى بلاد مصر فأحرقوا ونهبوا وكأنهم يقتحمون بلدا معاديا ؟ .

ويجيب على ذلك احد المؤرخين المحدثين فيقول : « الحق ان ذلك يدل على انحطاط المستوى الخلقى العام لرجال الدولة العباسية ، فقد كانوا شراذم من الشذاذ والعفاة شقيت بهم الفسطاط ، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون . كانت بلاد الخلافة العباسية كلها فريسة أولئك الطغاة ، واذا تأمل الانسان افعالهم أدرك ان حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال ، وانه لم يكن بدعا بين اهل زمانه حين اعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها ، واستحل دماءهم ، وفعل مـا فعل مما تقشعر منه الأبدان ، فلم يكن رجال الدولة خيرا منه ، وكانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو الحق او النظام » (٦٩) .

ومن الغريب ان بعض شعراء بنى العباس نظروا الى مـا قام به محمد بن سليمان على أنه فتح عظيم ، بل فتح الدنيا بأسرها ، فقال أحمد بن محمد الحبيشى :

الله اكبر هذا الفتح لاكذب	فسوء عاقبه المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها	وفرج الظلم والاظلام والكربا (٧٠)

ولكننا اذا صادفنا مثل هذا الشاعر الشامت أو المنافق ، فاننا نجد من شعراء مصر من وقف مما جرى وقفة صدق ، واراق عبرة وفاء ، فقال اسماعيل بن ابى هاشم فى بنى طولون :

كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى	يسرى بها السارون فى الادلاج
كانوا ليوثا لايرام حماهم	فى كل ملحمة وكل هياج
فانظر الى آثارهم تلقى لهم	علما بكل ثنية وفجاج
وعليهم مـا عشت لا أدع البكا	مع كل ذى نظر وطرف ساج (٧١)

---

(٦٩) حسين مؤنس : تاريخ مصر من الفتح الاسلامى ص ٤٠٥ .
(٧٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨ .
(٧١) الكندى : نفس المصدر ص ٢٥٢ ، المقريزى : الخطط حـ ١ ص ٣٢٣ .

ومن احسن ما قيل فى فقد دولة بنى طولون قول ابن القاص :

طوى زينة الدنيا ومصباح اهلها بفقد بنى طولون والانجم الزهر

وقوله فى نفس القصيدة جاعلا مصر قد ضاعت بعدهم :

فمن يبك شيئا ضاع من بعد اهله لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر(٧٢)

وتدل هذه الأشعار وغيرها فى بكاء دولة الطلولونيين على أن المصريين آنذاك كانوا يؤثرون حكم الطولونيين الذى كان يشعرهم باستقلالهم ككيان قومى يصب فيه ولاته من الطولونيين خيرات البلاد أرزاقا لهم واصلاحات عمرانية لبلادهم .

وضع مصر تحت الحكم العباسى المباشر لها وحال الخلافة العباسية :

استطاع العباسيون الاحتفاظ بحكم مصر حوالى ثلاثين عاما من سنة ٢٩٢ هـ الى سنة ٣٢٣ هـ (٩٠٥ — ٩٣٤ م) ، وفى الظروف التى أعيدت فيها مصر الى سلطان العباسيين المباشر نلحظ تطورا هاما فى اراضى الاسلام ، ذلك أن الفاطميين الاسماعيليين نجحوا فى تأسيس دولة مستقرة لهم فى شمالى أفريقية، بعد أن قضت على حكم الأغالبة بها ، فأصبح هذا القسم شيعى الصبغة ، وفى شرقى مصر اشتد نشاط القرامطة أحلاف الفاطميين ، وعملوا على تقويض ملك بنى العباس بالبصرة وما حولها ، ثم الشام واعمالها ، وقد اثاروا القلق والفوضى اينما حلوا .

وهكذا احتاط مصر العباسية من الجانبين أعداء شيعيون متحالفون فى فورة قوتهم وباسهم ، اما بغداد نفسها ، فقد اضطربت الأمور فيها أمام النزاع المستمر بين الأمراء والأتراك على المناصب الرئيسية ، وهو النزاع الذى أدى فى النهاية الى انشاء منصب امير الأمراء كخطوة لتحسين الوضع ، ولكن الأمر لم يلبث أن تفاقم بالنزاع حول هذا المنصب أيضا ، وكان من أقطاب هذا النزاع البريدى والي الأهواز ومحمد بن رائق والي البصرة .

---

(٧٢) انظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٢ — ٢٥٧ .

وقد وجد عنصر آخر له تأثيره فى زيادة الاضطراب فى هذه الفترة وهو تدخل النساء — وخاصة والدة الخليفة المقتدر — فى شئون الدولة (٧٣) .

هذه الظروف مجتمعة والتى يمكن تلخيصها فى الفوضى القرمطية والتهديد الفاطمى كان لها تأثيرها فى حالة مصر التى كانت آنئذ بين شقى الرحى .

وفى هذه الظروف حاول العباسيون التمسك بمصر ، واستطاعوا الاحتفاظ بها مدة ثلاثين عاما نتحدث عنها بوجه عام فيما يلى :

ثورة ابن الخلنجى (٧٤) :

كان أول من ولى مصر بعد سقوط دولة الطولونيين محمد بن سليمان الكاتب ، وذلك فى يوم الخميس أول ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، حيث دعا على المنبر للخليفة العباسى المكتفى بالله ، غير أن الخليفة ما لبث ان جعل ولاية مصر الى عيسى بن محمد النوشرى فى ١٧ من جمادى الآخرة (٧٥) ، وخرج محمد بن سليمان من مصر بعد أن قضى بها أربعة أشهر مستصحبا معه آل طولون ، واكابر رجال الدولة الطولونية وغيرهم من الجند وضمهم الى جنده وقت خروجه من مصر .

وعندما وصل الى دمشق تخلف عنه بعضهم فى حين سار بعضهم معه الى حلب حيث تفرق عنه من كان معه من الجند المصريين ، فمنهم من سار الى العراق ، ومنهم من رجع الى مصر ، وكان مع هؤلاء الذين عادوا الى مصر شاب اسمه محمد بن على الخلنجى ، ومعه بعض القواد الذين كرهوا معه مفارقة مصر وكانوا يتعاطفون مع البيت الطولونى الذى سقط حكمه (٧٦) .

وأبدى ابن الخلنجى رغبته فى الانتصار للطولونيين ، وأيده هؤلاء القواد « فعقدوا له ، وبايعوه بالامرة » (٧٧) وذلك فى شعبان ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م ، وانضم

---

(٧٣) AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 300.

(٧٤) ويلقب ابن الخلنجى أيضا بالحلنجى والخليجى .

(٧٥) AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 300.

(٧٦) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle Egyypt, p. 78.

(٧٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٢٧ ، ولين بول : سيرة القاهرة ص ٩٥ .

اليهم من المصريين من كان يرى فى دولة الطولونيين رمـزا لاستقلال مصر ورخائها وازدهارها .

وليس ثمة شك فى اخلاص ابن الخلنجي لبنى طولون ، وحتى ان تسرب الشك فى اخلاصه لهم على أساس أنه كان يصدر عن مطمح شخصى فلا يوجـد شـك فى اخلاصه لقضية مصر المستقلة (٧٨) .

وتوجه محمد بن على الخلنجى فيمن معه الى الرملة فى فلسـطين ، ونزل بناحية باب الزيتون ، وهزم والى الرملة وصيف بن صوآرتكين الأصغر ، ثم دعـا على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة المكتفى ثم لابراهيم بن خمارويه ثم دعا بعدهما لنفسه باعتباره نائبا عن ابراهيم بن خمارويه (٧٩) .

وادى ذلك النصر الذى حققـه محمد بن على الخلنجى الى انعاش الأمل فى نفوس المصريين « فوافوه من كل فج لما فى نفوسهم من تشتتهم عن بلادهم وأولادهم وأوطانهم ، وصار الجميع من حزب محمد المذكور من غير بذل دينار أو درهم » (٨٠)، وهكذا استفحل أمر ابن الخلنجى (٨١) .

وتدلنا سرعة التفاف المصريين حوله على أن ثورته أخـذت الطابع القومى ، ومبر شاعرهم عن ذلك حين قال فى ابن الخلنجي :

غضبت لمصر ومـا نالهـــا   وشردت بالخوف من غالهـــا
لقد فرج الله كـرب النفوس   وبلغهـــا فيـك آمالهـــا
ولمـا رأينـاك فى مصـــرنا   منحنا الامـارة إجلالهـا (٨٢)

وقد ازعج ذلك والى مصر عيسى النوشرى ، واسرع بتجهيز عسكره لملاقاة ابن الخلنجى ، وارسل قواته بحـرا الى العريش ، حيث سـاروا منها الى غزة ،

---

(٧٨) حسن محمود : الطولونيون والأخشيديون ص ١٢٨ .
(٧٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٧ وانظر :
Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 78 & ZAKI Hassan, Les Tulunids, p. 152.
(٨٠) أبو المحاسن : نفس المصدر ج ٣ ص ١٤٨ .
(٨١) ابن الوردى : تتمة المختصر ج ١ ص ٢٤٨ .
(٨٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٠ .

لكن قوات ابن الخلنجى الحقت بهم الهزيمة واجبرتهم على الانسحاب الى العريش ، ثم طاردتهم الى الفرما حيث نزلها ابن الخلنجى ، واضطر جيش عيسى النوشرى الى الانسحاب الي العباسة (٨٣) .

واضطر عيسى النوشرى الى الخروج بنفسه فى عسكر ضخم من مصر ، ووصل الى العباسة ، فترك ابن الخلنجى الفرما وتوجه الى جرجير ، فعاد النوشرى الى مدينة مصر ونزل على باب المدينة ، وتقدم ابن الخلنجى تجاهه ، فلم يثبت النوشرى ، وتولاه الخوف والرعب ، فهرب بجنده الى الجيزة ، واحرق جسرى المدينة الشرقى والغربى ليحول دون وصول ابن الخلنجى اليه ، وفى تلك الأثناء صارت مدينة مصر بلا وال عليها ولا حاكم فيها (٨٤) ، مما أدى الى انتشار الفوضى فيها وظهور اللصوص والغوغاء فى أرجائها يسلبون وينهبون دون أن يجدوا من يردعهم .

وعلى الجملة ، فقد ادى انسحاب عيسى النوشرى الى تمكن ابن الخلنجى من دخول مدينة مصر دون مقاومة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٢٩٢ هـ سبتمبر ٩٠٥ م ، وخطب على منابرها للخليفة العباسى المكتفى ثم لابراهيم بن خمارويه ثم لنفسه بعدهما ، كما سبق وفعل بالرملة (٨٥) .

وقد أنعش دخول ابن الخلنجى مدينة مصر الأمل فى قرب عودة دولة الطولونيين مرة أخرى ، وكان سرور المصريين بذلك شديدا « ففرح به أهل مصر الى الغاية ، وقاموا معه » (٨٦) وذلك انهم لم ينسوا أيام بنى طولون المجيدة ، وفى فورة تحمسهم له تخلقوا بالزعفران ، وحلقوا وجه دابته ووجوه دواب أصحابه فرحا به » (٨٧) .

واستقر محمد بن على الخلنجى فى مدينة الفسطاط بعد أن اطمأن على

---

(٨٣) أبو الفلاح : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢١٣.

(٨٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٢٨ .

(٨٥) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 78.

(٨٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٤٩ ،

Lane-Poole, Ibid, p. 78.

(٨٧) أبو المحاسن : نفس المصدر حـ ٣ ص ١٤٩ ،

Lane-Poole, Ibid, p. 78.

توطيد مركزه فى مصر وفى الدلتا (٨٨) ، حتى انه بدأ فى توزيع مناصب دولته من وزارة وخراج وشرطة ، واستشعر الناس قرب عودة بنى طولون ، فالتفوا حوله ، واقبلوا عليه من جميع البلدان ، حتى بلغت عساكره خمسين الفا .

وواجهت محمد بن على الخلنجى صعوبة الحصول على الأموال لسد احتياجات رجاله ، وصرف أعطياتهم ، وخاصة أن عيسى النوشرى ، وعامل الخراج فى مصر المعروف بأبى زنبور تمكنا من ايقاعه فى تلك المشكلة حين اخفيا الأموال المجموعة من الخراج ، وكذلك أخفيا الدفاتر التى تسهل على ابن الخلنجى معرفة أصول الأموال فى الضياع ، وذلك حتى لا يتمكن ابن الخلنجى من مطالبة أهل الضياع بما عليهم ، كما أن ابن زنبور حمل معه كذلك جماعة من المتقبلين — أى المدركين والكتاب — حتى لا يطالبوا بما عليهم من الأموال . ولكن ابن الخلنجى نجح فى العثور على بعض الكتاب الذى أوقفه على أمور الخراج والدواوين .

ومع ذلك فان هذا الوضع الاقتصادى الحرج أدى الى أن يلجأ ابن الخلنجى — مضطرا — الى بعض أعمال الظلم والجور « فصادر أعيان البلد ، فلقي منه الناس شدائد » (٨٩) ، الا أنه كان اذا أخذ شيئا من أحد أعطاه ما يثبت ذلك ، ووعده بأن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج (٩٠) .

وكانت الحكمة تقتضى من محمد بن على الخلنجى التخلص من الوجود العباسى بأقصى سرعة ، فوجه بخفيف النوبى أحد قواده لمحاربة النوشرى ، ولم يثبت النوشرى أمام خفيف النوبى ، واضطر الى الرحيل الى الاسكندرية ثم تروجة (٩١) ، فسار وراءه خفيف النوبى فى حين تابع ابن الخلنجى امداده بالنجدات ، ولكن عيسى النوشرى هزم خفيف النوبى عند تروجة ، وقتل من جنده عددا كبيرا ، فاضطر خفيف الى الانسحاب الى مصر بينما توجه عيسى النوشرى الى الصعيد .

---

(٨٨) المسعودى : مروج الذهب ح ٤ ص ٢٨٦ ؛

ZAKI HASSAN, Les Tulunids, p. 153.

(٨٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٣ ص ١٥٠ .

(٩٠) أبو المحاسن : نفس المصدر ح ٣ ص ١٥٠ ؛

Lane-Poole, A history of Egypt..., p. 78.

(٩١) تروجة : قرية من كورة البحيرة بأعمال الاسكندرية . معجم البلدان ح ٢ ص ٢٧ . وانظر قوانين الدواوين ص ١٢٢ ، ٢٢٦ .

وأمام هذا الموقف المتأزم فى مصر ارسلت الخلافة قوات برية وبحرية لتعضيد النوشرى ومؤازرته ، برا بقيادة أبى الأعز ، وبحرا بقيادة دميانة ؛ وهكذا أصبح الأمر فى غاية الخطورة بالنسبة لابن الخلنجى أمام جيش الخلافة وأسطولها القادمين من الشمال ، وجيش عيسى النوشرى المتحفز فى الصعيد .

ولم يفت ذلك فى توة محمد بن على الخلنجى الذى صمم على محاربة العباسيين حتى النهاية ، فخرج لملاقاة الجيش القادم بقيادة أبى الأعز ، والتقى به عند العريش ، ويذكر أبو المحاسن أن محمد بن على الخلنجى « وقع له مع عساكر العراق وجيوش النوشرى وقائع يطول شرحها » (٩٢) .

ويفصل المقريزى ذلك فيذكر أن ابن الخلنجى التقى بجيش عباسى تحت قيادة أبى الأعز ، وتمكن ابن الخلنجى من هزيمة هذا الجيش فى المحرم سنة ٢٩٣ هـ / نوفمبر ٩٠٥ م ، كما تمكن من أسر عدد كبير من جند أبى الأعز ، ثم يذكر أنه واجه بعد ذلك جيشا عباسيا آخر تحت قيادة فاتك المعتضدى برا ، ودميانة فى مراكب عباسية ، وتمكن فاتك المعتضدى من هزيمة جيش ابن الخلنجى عند النويرة (٩٣) بعد مقاومة باسلة من ابن الخلنجى وبعد أن التقى بجيش فاتك اكثر من مرة ، واضطر ابن الخلنجى فى النهاية الى الانسحاب الى الفسطاط ، وفى تلك الأثناء دخل دميانة بمراكبه ، ورأى ابن الخلنجى أن وقائع الحرب بدأت تدور فى غير صالحه وأدرك أن « أمره فى أدبار ، وعلم أن أمره يطول ، ثم يئول الى انهزامه » (٩٤) ، وقد زاد من سوء موقف ابن الخلنجى سوء الأحوال فى مصر نتيجة لكثرة الحروب ، حتى أجدبت البلاد ، وارتفعت الأسعار ، وحصل بها الغلاء العظيم (٩٥) .

واضطر ابن الخلنجى فى النهاية الى الاختفاء فى منزل رجل يقال له تريك (٩٦) الذى وشى به فتم القبض عليه ، وارسل الى بغداد ومعه ثلاثون نفرا من أتباعه

---

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٥١ .
(٩٣) الذهبى : دول الاسلام حـ ١ ص ١٧٧ ، والنويرة من أعمال البوصيرية (بنى سويف حاليا) قوانين الدواوين ص ١٠٣ .
(٩٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٥١ .
(٩٥) أبو المحاسن : نفس المصدر حـ ٣ ص ١٥١ .
(٩٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦١ .

بعد أن تمكن من حكم مصر سبعة أشهر واثنين وعشرين يوما ؛ ونكل الخليفة به ، كما نكل باصحابه ، فأمر بتشهيرهم على الجمال ثم أمر بقتله (٩٧) .

وهكذا عاد عيسى النوشرى الى ولاية مصر من جديد دون منازع وعاد أبو زنبور الى ولاية الخراج (٩٨) .

وانتهت بذلك تلك المحاولة لاعادة الدولة الطولونية التى كلفت ابن الخلنجي حياته ، وكلفت المصريين الذين التفوا حوله وآزروه — حبا لدولة آل طولون — الكثير .

وفى تقييم ابن الخلنجى يقول ابو المحاسن : « وأمر محمد هذا من العجائب ، فانه اراد اخذ ثار بنى طولون ، والانتصار لهم غير مرة على ما وقع من محمد بن سليمان الكاتب من افساده الديار المصرية ، فوقع منه أيضا اضعاف ما فعله محمد بن سليمان الكاتب ، وكان حاله كقول القائل :

رام نفعا وضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا » (٩٩)

وعلى الجملة ، فان نجاح ثورة ابن الخلنجى التى كانت قاب قوسين من تحقيق هدفها الذى قامت من اجله يدل دلالة واضحة على شدة ضعف العباسيين — آنئذ — وعجزهم عن التمكين لسلطانهم ، وليس ادل على ذلك من أن سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ — ٩٠٥ م) شهدت أربعة ولاة لمصر هم : شيبان بن احمد بن طولون ، ومحمد بن سليمان الكاتب ، وعيسى النوشرى ، ومحمد بن على الخلنجي (١٠٠) .

والحق أن نجاح ثورة ابن الخلنجى قد كشفت « عن ضعف بناء الدولة ، وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب المغامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، وسيطر على مصر وهزم جيوشها ، وافزع عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من الفسطاط الى الصعيد الى الاسكندرية ،

---

(٩٧) أبو الفلاح : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢١٣ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٨٦ ، سيرة القاهرة ص ٩٦ وانظر :

Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 79.

(٩٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٥٤ .

(٩٩) أبو المحاسن : نفس المصدر جـ ٣ ص ١٥٥ .

(١٠٠) حسين مؤنس : تاريخ مصر من الفتح العربى ص ٣٢٣ .

ولولا انه هو نفسه لم يكن كفئا للمطلب الذى اراد لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه » (١٠١) .

ولعل ابرز آثار هزيمة المصريين فى عودة دولة بنى طولون هو استياؤهم من الخلافة العباسية ، ذلك الاستياء الذى دفع بهم الى طريق آخر تمثل فى تجاوبهم مع النفوذ الفاطمى الذى ظهر فى بلاد المغرب (١٠٢) ، وكان الفاطميون لا يعترفون للعباسيين بأحقيتهم فى الخلافة لا من الوجهة السياسية ، ولا من الوجهة الدينية (١٠٣) .

المحاولات الفاطمية لغزو مصر :

تمكن ابو عبد الله الشيعى بمواهبه الفذة حيث كان رجلا ذا علم ودهاء (١٠٤) من تمهيد الأمور لقيام دولة فاطمية فى المغرب (١٠٥) ثم ارسل يستدعى عبيد الله المهدى من سلمية (١٠٦) حيث يقيم للقدوم الى بلاد المغرب ، ففر عبيد الله ومعه ولده ابو القاسم نزار وقد تزيا بزى التجار الى مصر حيث وجد فى مصر ترحيبا من اتباعه بقدومه ، واقام فى دار ابن عياش ، ولم يقبض محمد بن سليمان والى العباسيين على مصر آنذاك عليه ، حيث اقنعه اتباع عبيد الله بأنه مجرد رجل هاشمى يحترف التجارة ، وان الشخص المقصود فر الى اليمن ، كما ان هذا الوالى نفسه لم يكن وفيا للعباسيين ، فاكتفى بالقبض على بعض غلمان المهدى ، وضربهم ضربا خفيفا ، واهمل شأن المهدى (١٠٧) .

---

(١٠١) حسين مؤنس : نفس المصدر ص ٤٠٦ ، وقد تكرر ذلك فى أواخر عهد الأخشيديين بمصر حيث استدعوا المعز لدين الله لتملك مصر ، فأرسل اليهم جيشا بقيادة جوهر استولى عليها .

(١٠٢) حسين مؤنس : نفس المصدر ص ٤٠٦ .

(١٠٣) حسن محمود : الطولونيون والأخشيديون ص ١٢٩ .

AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 599.

(١٠٤) ابن الوردى : تتمة المختصر حـ ١ ص ٢٥١ .

(١٠٥) قامت دولة الفاطميين فى المغرب سنة ٢٩٦ هـ . ابو الفدا : المختصر حـ ٢ ص ٦٣ .

(١٠٦) سلمية : بليدة فى ناحية البرية من اعمال حماه بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من اعمال حمص . معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٠ .

(١٠٧) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٣ .

وادى اهمال محمد بن سليمان ، وتهاونه فى القبض على المهدى الى استدعائه الى بغداد ، وتولية عيسى بن محمد النوشرى الذى وصلها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢ / ٩٠٥ م ، غير ان بعض حاشية هذا الوالى الذين كانوا يعتقدون المذهب الاسماعيلى عملوا على ترحيل عبيد الله من مصر خوفا عليه من الوالى الجديد ومن عيون العباسيين عليه ، فخرج يريد المغرب ، ولكن النوشرى تمكن من القبض عليه ، فلجأ عبيد الله الى رشوته بمبلغ كبير من المال ، فاطلق سراحه (١٠٨).

وعلى اى الأحوال ، فان عبيد الله تمكن فى النهاية من الوصول الى بلاد المغرب لتقوم بوصوله للفاطميين دولة بالمغرب .

وراى الفاطميون فى مصر — غير ما راوا فى المغرب — مكانا يصلح لأن يكون منطلقا لاتساع النفوذ الفاطمى وامتداده ، تمهيدا للقضاء على سلطان العباسيين ، ولاسيما أن الشام والحجاز كانت تتبع ولاية مصر آنذاك ، وكان هذا يعنى أن الفاطميين او تمكنوا من الاستيلاء على مصر خضع الشام والحجاز لهم (١٠٩) ، بالاضافة الى ما تتمتع به مصر من وغور ثروة (١١٠) .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف أرسل المهدى جيشا لغزو مصر بقيادة ابنه أبى القاسم فى سنة ٣٠١ هـ / ٩١٤ م (١١١) ، فسار الى برقة واستولى عليها فى ذى الحجة ، ثم سار الى مصر فملك الاسكندرية ، وانحدر الى الفيوم فاستولى عليها ، وصار فى يده أكثر البلاد .

وقد أفزع ذلك الغزو الفاطمى لمصر الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م) الذى أرسل للقضاء على ذلك الخطر جيشا عباسيا بقيادة مؤنس الخادم الذى حارب الفاطميين ، وتمكن من اجلائهم عن مصر فعادوا الى المغرب مهزومين .

وذكر المقريزى فى أسباب ذلك التحرك الفاطمى أن أبا القاسم أرسل قصيدة

---

(١٠٨) جمال سرور : نفس المصدر ص ٢٣ .
(١٠٩) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٨١ .
(١١٠) جمال سرور : المصدر السابق ص ٦١ .
(١١١) ويذكر صاحب شذرات الذهب أن عبيد الله المهدى هو الذى سار بنفسه الى مصر فى اربعين الفا . شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٣٧ .

الى بغداد يفتخر فيها ببيته ، وبما فتح من البلاد ، فأجابه الصولى (١١٢) بقصيدة على وزنها ورويها جاء فيها قوله :

فلو كانت الدنيا مثالا لطائر   لكان لكم منها بما حزتم الذنب

فحرك ذلك البيت همة أبى القاسم ، وقال : « والله لا ازال حتى أملك صدر الطائر وراسه ان قدرت والا اهلك دونه » (١١٣) .

ثم أرسل المهدى فى سنة ٣٠٢ هـ جيشا لغزو مصر بقيادة حباسة بن يوسف قدر عدده بمائة الف ، فتوجه حباسة الى الاسكندرية واستولى عليها ، ثم توغل فى الدلتا والوجه البحرى (١١٤) ، واضطر تكين والى مصر آنذاك — وقد علم ان لا طاقة له بجيوش الغزو — الى الاستنجاد بالخليفة المقتدر بالله ، فأمده بجيش كبير على راسه عدد من القواد تحت امرة مؤنس الخادم . وتمكن العباسيون من هزيمة الفاطميين عند الجيزة بعد معارك ضارية قتل فيها آلاف الجنود من الطائفتين (١١٥) ، وكان الجيش الفاطمى قد تمكن فى البداية من الثبات أمام الجيش العباسى ، ولكنه هزم فى النهاية ، وتم اجلاؤه عن البلاد المصرية ، وعندما عاد حباسة مهزوما الى بلاد المغرب امر المهدى بقتله (١١٦) .

على أنه من الجدير بالذكر أنه كان فى مصر آنذاك من يتعاطف مع الدعوة الفاطمية ، حتى انهم كاتبوا الفاطميين يطلبون منهم غزو البلاد ، ولعل الفضل فى ذلك يعود الى نشاط الاسماعيلية كأبى على الداعى الذى بذل اقصى جهوده لنشر المذهب الاسماعيلى فى مصر حتى شبه دوره فى مصر بدور أبى عبد الله الشيعى

---

(١١٢) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين المعروف بالصولى الشطرنجى ، توفى مستترا فى سنة ٣٣٥ أو ٣٣٦ هـ ، لأنه روى فى حق على بن أبى طالب ، فطلبته الخاصة والعامة لقتله ، فلم يقدروا عليه ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٩ حاشية (١) .

(١١٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٩٩ .

(١١٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ١ ص ٢٠٤ ، حسن محمود : الطولونيون والأخشيديون ص ١٣٠ .

(١١٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٧ .

(١١٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٠ ، الكامل جـ ٦ ص ١٤٩ ، ويذكر صاحب شذرات الذهب ان حباسة قتل فى احدى المواقع فى مصر . شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٢٩ .

فى بلاد المغرب (١١٧). وقد أشار ابن مهران الشاعر المصرى الى ذلك حيث يقول :

واقبـل جاهــلا حتى تخطي وجــاز بجهله حـد التخطى
بكتب جمـاعة قـد كاتبـوه من اقبـاط مصر وغـير قبطى
وكـل كاتبـوه ونافقـونا وكـل فى البـلاد لـه موطي

ولعل ذلك دفع بوالى مصر الجديد المسمى ذكا (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ = ٩١٥ — ٩١٩ م) الى تتبع من كان له هوى مع الفاطميين بمصر ، واتخذ ضـدهم الأعمـال الانتقامية ، حتى وصـل به الأمر الى انه كان يقطع أيديهم وارجلهم .

وتكرر خروج أبى القاسم للمرة الثانية فى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٩ م ، وذلك فى ولاية تكين الثانية بعد وفاة ذكا الرومى ، وذلك فى جيش كبير ، وتمكن من الاستيلاء على الاسـكندرية ، ثم توجه الى الجيزة ، ولم يصـمد تكين أمام الفاطميين فتمكنوا من الاسـتيلاء على الأشمونين وكثير من بلاد الصعيد (١١٨) .

وبدا أن الموقف فى هذه الحملة جد خطير ، وخيل للفاطميين أنهم قاب قوسين من تحقيق أملهم ، حتى ان ابا القاسم ارسـل الى أهـل مكة يدعوهم الى الدخول فى طاعته (١١٩) .

وأمام هذا الموقف المتحرج أرسل الخليفة المقتدر جيشـا كبيرا بقيادة مؤنس الخادم لوقف الغزو الفاطمى ، ودارت بين الجيشين وقائع هائلة .

ومن ناحية اخرى ارسـل المهـدى الفاطمى نجدة بحرية كبيرة تقدر بثمانين مركبا لمؤازرة ولده أبى القاسم ، وصـلت الى الاسكندرية يقودها سـليمان الخادم ويعقوب الكتامى ، وفى المقابل أرسلت الخلافة العباسية نجدة بحرية لمؤازرة مؤنس الخادم يقدر عدد مراكبها بخمس وعشرين تحت قيادة أبى اليمن ، ودارت معـركة بحرية كبيرة بين الأسطولين الفاطمى والعباسى عند رشـيد ، ورغم قوة الأسطول الفاطمى وتفوقه فى العدد والعدة فان العباسيين تمكنوا من الحاق الأذى به ، واحرقوا

---

(١١٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٤ .
(١١٨) ابن الوردى : تتمة المختصر حـ ١ ص ٢٥٥ ، حسن محمود : الطولونيون والاخشيديون ص ١٣١ .
(١١٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ١٠٣ .

الكثير من مراكبه ، وأهلكوا الكثير من رجاله ، بل ووقع قائدا الأسطول الفاطمى : سليمان الخادم ويعقوب الكتامى فى الأسر ، وقد مات سليمان فى حبسه فى مصر ، فى حين تمكن يعقوب من الهرب بعد أن حمل الى بغداد وعاد الى بلاد المغرب .

ولعل مما ساعد على هزيمة الفاطميين تفشى الوباء بين جنودهم حيث مات الكثير من رجالهم ، واضطر أبو القاسم الى العودة للمغرب فيمن بقى من رجاله (١٢٠) .

وكان للنصر الذى أحرزه مؤنس الخادم فى هذه الموقعة وما سبقها أثره الكبير فى علو منزلته فلقب بمؤنس المظفر « لغلبه عساكر المغرب غير مرة » (١٢١)؛ وقد خلع الخليفة المقتدر عليه لدى عودته الى بغداد سنة ٣٠٩ هـ « وطوق وسور على مائة واثني عشر قائدا من قواده » (١٢٢) .

ومهما يكن من أمر فان الخلافة العباسية ، وان كانت تمكنت من صد الخطر الفاطمى على مصر فانها اهتزت أمام ذلك الخطر الذى لم يكن يهدد بضياع مصر فحسب من قبضة العباسيين بل يهدد بامتداد النفوذ الفاطمى الى بلاد الشام والحجاز مما يعنى تهديد الخلافة العباسية فى عقر دارها (١٢٣) .

السمات العامة للحكم العباسى فى مصر خلال تلك الفترة :

كان المصريون يتعاطفون مع الفاطميين كتعبير عن أستيائهم من سلوك العباسيين ضد دولة الطولونيين التى سعد الناس فى ظلها ونعموا بالرخاء والاستقرار والاستقلال ، وكنتيجة لثمار الدعوة الاسماعيلية فى مصر على يد أبي عبد الله الداعى .

وقد ذاقت بلادهم الكثير لكونها منطقة صراع بين الفاطميين والعباسيين مما عرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود العباسيين ، فساءت أحوال البلاد ،

---

(١٢٠) ابن الفلاح : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٥٠ .
(١٢١) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبرى ص ٢١٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٤ .
(١٢٢) الهمذانى : نفس المصدر ص ٢١٨ .
(١٢٣) سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

وتعرضت مرافقها للاهمال ، حيث كان العنصر الغالب فى هذه الجيوش من الأتراك ، وكانت الرئاسة لهم ، وكان اعتمادهم المالى على مصر ، يأخذون منها مرتباتهم وارزاقهم ، فأثار هذا مشكلات كبيرة واضطرابات متعددة .

وقد ادى كثرة الانفاق فى سنة ٣٠٢ هـ لدى قدوم جيش حباسة الى مصر ان محمد بن على المادرائى كتب الى الخليفة المقتدر « يذكر ضيق الحال بمصر وكثرة الجيوش بها ، وما يحتاج اليه من الأموال » (١٢٤) .

ويلاحظ فى هذه الفترة ان مصر عادت الى نظام تولية حاكم عام ، ووال على الخراج ، اى الى سياسة توزيع السلطان ، ولكن هذا لم يكن فى صالح الخلافة اذ كان والى الخراج قوى النفوذ عظيم السلطان مطمئنا الى ضعف الرقابة عليه ، مخضعا الحكام المحليين ومديرى الأقاليم المختلفة لنفوذه المباشر .

من ناحية أخرى كان الوالى العام يعانى من ضغط الأتراك ، ومن تجبر والى الخراج ، وكثيرا ما عجز الوالى عن رد الفاطميين أو قمع الثورات بسبب ضغط هذين الطرفين عليه ، كما كان الولاة المحليون أيضا مسلوبى السلطان عاجزين عن التصرف ، وفى الثلاثين سنة التى خضعت فيها مصر للعباسيين تغير الوالى العام اربع عشرة مرة .

وكان من مظاهر القلق أيضا ان تكين الجزرى ولى مصر اربع مرات على فترات متقطعة ، بلغت الأولى خمس سنوات والثانية سنتين والثالثة سنة واحدة والرابعة حوالى تسع سنوات (١٢٥) .

وفى الوقت الذى كانت فيه أمور مصر مقسمة بين الولاة من ناحية وقادة الجيش من ناحية ثانية تمكن المادرائيون (١٢٦) من السيطرة على الحياة الاقتصادية

---

(١٢٤) ابن عريب : صلة ابن عريب ص ٥٢ وانظر : الطولونيون والأخشيديون ص١٣٢ .

(١٢٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢١١ ، مصطفى بدر : مصر الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٢ .

(١٢٦) وينتسب المادرائيون الى قرية ماذريا بالقرب من البصرة على نهر دجلة ويحددها ياقوت بأنها قرية فوق واسط من أعمال فم الصلح فى مقابل نهر سابس. سيرة القاهرة ص ٩٦ ، معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٤ .

والنشـــاط المالى فى مصر والشام ، وتمكنوا من جمع ثروة طائلة من وراء ذلك ، بحيث صـاروا قوة يحسـب لها حسـابها ووزنها فى مصر عند قيـام الدولة الأخشـيدية (١٢٧) .

وقد اتهم الماذرائيون — الذين كانوا يدفعون مرتبات الجنود (١٢٨) — باختلاس أموال مصر والشام ، ففى حين كان على بن بسطام سـلف الماذرائيين قد جمع للخلافة مليونين وثلاثمائة الف دينار ، لم يدفع الماذرائيون سوى نصف مليـون ، وكان هـذا ما أخـذه ابن الفرات على على بن عيسى حينما ولى الأخـير الوزارة للعباسـيين وصرف على بن بسـطام وولى الماذرائيين الأمر ، فقال ابن الفرات فى مناظرته لعلى بن عيسى فى عهد المقتدر بالله : « قد أخذ ابن بسـطام خطوطهما فى أيام وزارتى الثانية صلحا عما وجب عليهما من خراج ضياعهما بمصر والشـام ، وما أخـذاه من المرافق بهـا مدة تقلدهما فى أيامك الأولى بألفى الف وثلاثمائة الف دينار ، وأديا فى أيامى خمسمائة الف دينار ، فصرفت على بن بسـطام ساعة وليت الدواوين ، وقلدت هذين العاملين المجاهدين باقتطاع مال السلطان » (١٢٩) .

وفى سـنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م قبض الوزير ابن الفرات على ابراهيم بن أحمـد الماذرائى — الذى قدم من مكة الى بغداد — وعامله بشـدة ، وصادره على مـال معجل ومال مؤجل ، وفى نفس الوقت امر ابن بسطام بالسـير الى مصر والقبض على أبى زنبور الحسـين بن أحمد ، وعلى ابن أخيـه أبى بكر محمـد بن على ، وحملهما الى بغداد ، وتمت مصادرتهما بأموال كثيرة (١٣٠) .

ويبدو ان الوزير ابن الفرات كان يضمر السخط على الماذرائيين ، لما تمتعوا به من نفوذ مالى كبير وتصرفهم فى أموال مصر والشام .

ومع ذلك فان الخليفة المقتدر بالله أعاد الماذرائيين فى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م أعاد الحسين بن أحمد الى مصر وأعمالها واخاه الى الشام ، وأسقط جميع ما صودر عليه الحسين بن أحمد وابن أخيـه محمد بن على ، وان يكتفى منهما بأخـذ مائتى

---

(١٢٧) سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

(١٢٨) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 81.

(١٢٩) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٠٦ .

(١٣٠) ابن عريب : صلة ابن عريب ص ٦٢ .

الف دينار (١٣١) ، وكان ذلك لأن الخليفة المقتدر الذى كان كل شىء فى عهده يشترى بالمال والهدايا قد تلقى المال والهدايا من الحسين بن احمد الماذرائى كما أن الحسين ابن احمد الماذرائى كان قد حمل المال والهدايا كذلك الى السيدة والدة المقتدر (١٣٢) التى كان لها نفوذ كبير فى دولة ابنها المقتدر .

ويبدو من كلام ياقوت أن الحسين الماذرائى قبض عليه ثانية فى سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٤ م وصودر على مال كثير رغم ما كان يقوم به الماذرائى من بذل الهدايا للخليفة، قال ياقوت : « وكان قد اهدى للمقتدر هدية فيها بغلة معها فلوها وزرافة وغلام طويل اللسان ، يلحق لسانه طرف انفه ، ثم قبض عليه وحمل الى بغداد مصودر ، واخذ خطه بثلاثة آلاف وستمائة الف فى رمضان سنة ٣١١ هـ ، ثم أخرج الى دمشق مع مؤنس المظفر فمات فى ذى الحجة سنة ٣١٤ هـ وقيل ٣١٧ » (١٣٣) .

ولعل سلوك الحسين بن احمد الماذرائى فى اثناء ثورة ابن الخلنجى يدل على مدى ما كان يلجأ اليه الماذرائى من سلوك غير قويم فى جباية الخراج حيث اخذ دفاتر الدولة ، وفر بها حتى لا يوقف على معرفة اصول الأموال (١٣٤) .

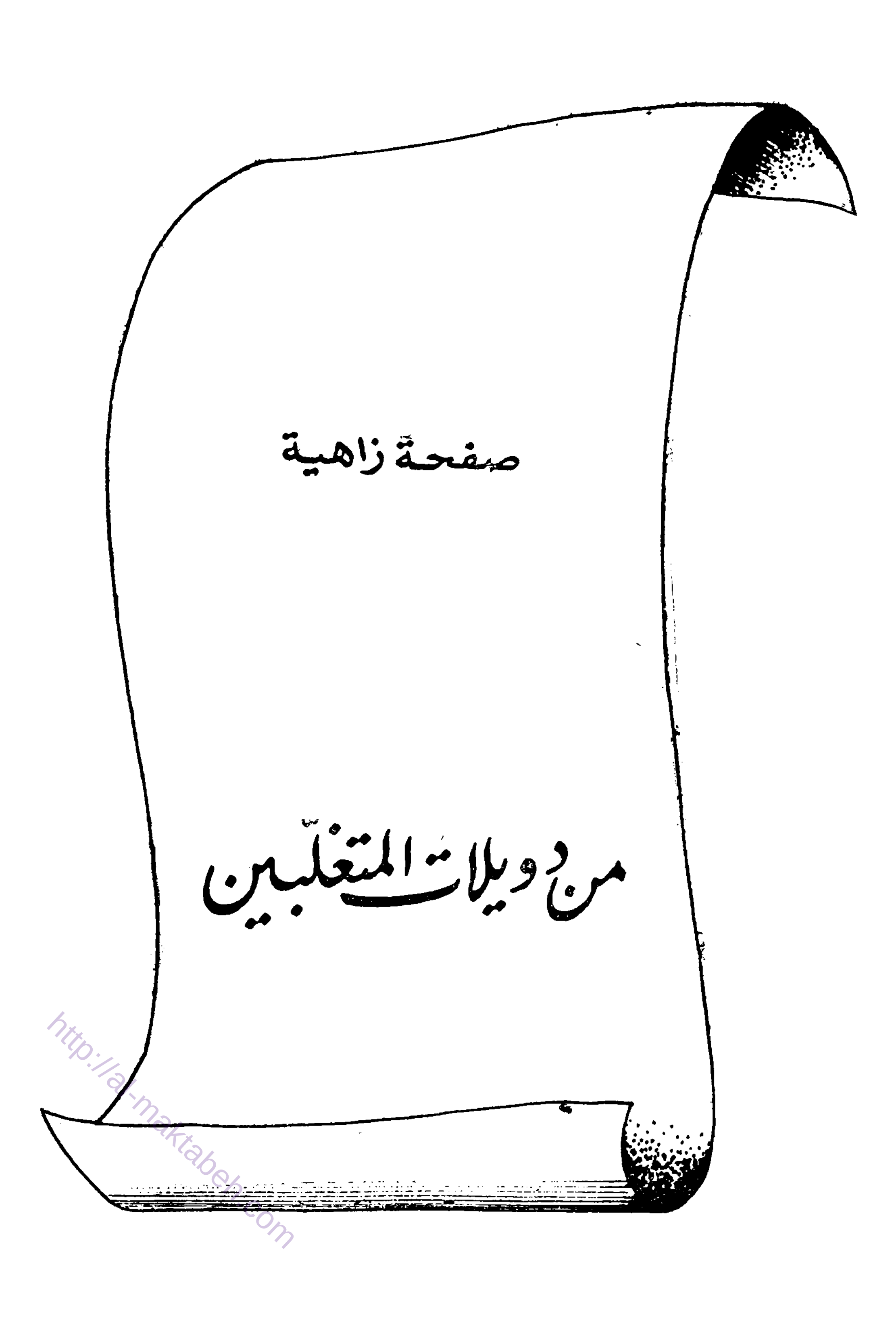
وقد كان الماذرائى ينفق فى كل عام ستين الفا الى ثمانين الفا من الجنيهات على رحلاته التى كانت تبلغ احدى وعشرين (١٣٥) .

وكان من نتيجة سياسة الماذرائيين الجائرة أن ثار الجند على أبى الحسن بن احمد الماذرائى صاحب الخراج سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م (فى ولاية ابن كيغلغ الثانية » فاستتر منهم فأحرقوا دوره ودور اهله ، وحدثت فتن كبيرة ، ومعارك بين طوائف الجند ، وقدم محمد بن تكين فى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م من فلسطين واليا على مصر ، ودارت المعارك بينه وبين ابن كيغلغ .

وانتهى الأمر بتقليد محمد بن طغج ولاية مصر سنة٣٢٣ هـ /٩٣٥ م فى ولايته الثانية ، واضطر ابن كيغلغ بعد ان ايقن من ضعفه الى تسليم مقاليد الأمور فى مصر له (١٣٦) .

---

(١٣٢) ابن عريب : نفس المصدر ص ٦٩ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٤ .
(١٣١) ابن عريب : نفس المصدر ص ٧٠ .
(١٣٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٤ .
(١٣٤) حسين مؤنس : تاريخ مصر من الفتح العربى ص ٤٠٦ .
(١٣٥) لين بول : سيرة القاهرة ص ٩٦ .
(١٣٦) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٥٤ ، وانظر :
Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 81.


صفحة زاهية
من دويلات المتغلّبين

١ - دولة العلويين فى طبرستان *

المسرح السياسى قبيل ظهور الدولة :

انطلقت الشرارة الأولى التى أدت الى قيام دولة العلويين فى طبرستان من المنطقة التى تقع بين مدينتى كلار وسالوس سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م (١) ، وكان السبب المباشر لظهور الداعى الى الحق الحسن بن زيد (٢) ما ساد منطقة طبرستان من فوضى سياسية هى جزء من الفوضى السياسية العامة التى عاشتها الدولة العباسية فى تلك الأثناء .

ويتجلى ذلك فى اقليم طبرستان فى تصرفات حاكمه سليمان بن عبد الله بن طاهر الذى كان نائبا فيه عن محمد بن عبد الله بن طاهر ، وقد غلب عليه محمد بن أوس البلخى ووزع أولاده على مدن طبرستان ، فأساء هؤلاء الأولاد السيرة فى الناس وضايقوهم .

ولم يكن سوء السيرة هذا وقفا على أبناء محمد بن أوس فقد ساءت فى

---

* طبرستان : هى بلدان كثيرة يشملها هذا الاسم ، خرج من نواحيها ما لا يحصى من اهل العلم والأدب والفقه ، والغالب على هذه النواحى الجبال ، فمن أعيان بلادها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل وهى قصبتها ، وسارية وهى مثلها ، وشالوس وهى مقاربه لها ، وربما باعدت جرجان من خراسان الى غير ذلك من البلدان ، وطبرستان فى البلاد المعروفة بمازندران ... وهى بين الرى وقومس والبحر وبلاد الديلم والجيل . ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٣ ، ١٤ ويصفها الاصطخرى بقوله : وأما طبرستان فان أكبر مدنها آمل وهى مستقر الولاة فى هذا العصر ، وكانوا فى قديم الأيام يسكنون سارية ، وطبرستان بلد كثير المياه والأشجار الجبلية والسهلية ، والغالب عليها الغياض ، والغالب على أبنيتها الخشب ، وهى كثيرة الأمطار شتاء وصيفا ، وسطوحهم مسنمة لذلك . الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٢٤ .

(١) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 87.

(٢) هو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٥٣ . النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨١ .

الناس سيرة أبيهم وسيرة سليمان كذلك ؛ وقد وصف الطبرى صورة هذه الفوضى السياسية والظلم الاجتماعى التى لحقت باقليم طبرستان آنذاك فقال : « وعامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبد الله خليفة محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٣) اخو محمد بن عبد الله بن طاهر والمستولى على سليمان والغالب على امره محمد بن أوس البلخى ، وقد فرق محمد بن أوس ولده فى مدن طبرستان ، وجعلهم ولاتها ، وضم الى كل واحد منهم مدينة منها ، وهم احداث سفهاء قد تأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم من الرعية ، واستنكروا منهم ومن والدهم سليمان بن عبد الله سفههم وسيرتهم فيهم ، وغلظ عليهم سوء أثرهم فيهم بقصص يطول الكتاب بشرحها » (٤) .

كما أن محمد بن أوس لم يقتصر شره على ما أصاب أهل طبرستان بل تعداه الى جيرانهم من الديلم الذين كانت تسودهم آنذاك وأهل طبرستان علاقة سلم وموادعة حيث أغار عليهم ، وقتل منهم وسبى مما ساء أهل طبرستان وزاد حنقهم على أوس (٥) ، ولم يكن أوس موفقا فى توقيت اغارته على الديلم (٦) فى ذلك الوقت .

فاذا أضيف الى ذلك بعض التطورات التى أصابت المنطقة كرد فعل لانتكاس حركة يحيى بن عمر الطالبى الثورية ضد العباسيين فى منطقة الكوفة ، ومقتله فى رجب سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ حيث كوفىء محمد بن عبد الله بن طاهر قائد العباسيين الذى قضى على الحركة ببعض الصوافى بمنطقة كلارا وسالوس ، وقد ارسل محمد بن عبد الله بن طاهر جابر بن هارون النصرانى نائبا عنه لوضع يده على تلك الصوافى (٧) ، ولم يقتصر جابر على امتلاك الصوافى بل عمد الى

---

(٣) كان آل طاهر امراء المشرق منذ عهد المأمون اليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما اليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان . الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ص ٣٠٥ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٥) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٢٧٢ .

(٦) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ٢ ص ١٨٣ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٦ .

الاستيلاء على أرض موات كان مواطنو كلارا وسالوس ينتفعون بها فى الاحتطاب والرعى ، ويتخذونها مرافق لهم وليس لأحد عليها ملك (٨) .

ولم يقبل أهالى كلارا وسالوس ذلك التصرف الذى يضر بهم فانضووا تحت لواء الأخوين محمد وجعفر ابنى رستم لمقاومة ذلك العدوان .

وتمكن هذان الرجلان بما عرف عنهما من بأس وشجاعة من الوقوف فى وجه جابر ، ومنعه من تحقيق ما أراده من الاستيلاء على الأرض الموات ، واضطر جابر نفسه الى الهرب يشكو ما أصابه الى سليمان بن عبد الله بن طاهر .

وخشى الأخوان محمد وجعفر من تطور الأمور ، ورأيا تكوين حلف طبرى ديلمى يتصدى لأى خطر منتظر ، وقد وضح الطبرى السر فى لجوء ابنى رستم الى محاولة تكوين ذلك الحلف حيث يقول : « وأيقن محمد وجعفر ابنا رستم ومن نهض معهما فى منع جابر عما حاول حيازته من الموات التى ذكرت بالشر ، وذلك أن عامل طبرستان كلها سليمان بن عبد الله ، وهو أخو محمد بن عبد الله بن طاهر وعم محمد بن طاهر بن عبد الله عامل المستعين على خراسان وطبرستان والرى والمشرق كله يومئذ » (٩) .

حذر الأخوان محمد وجعفر الديالمة من أن يصيبهم ما أصاب أهل طبرستان ، وضرورة تكوين حلف بينهما ، ووجدت دعوتهما آذانا صاغية من الديلم لما كان بينهم يومئذ من حسن الجوار ، وبسبب ما كان قد أصابهم على يد محمد بن أوس — كما قدمنا — من اغارة وقتل وسبى .

وتمت المراسلات بين الطرفين ، واتفقا على التحالف للوقوف فى وجه من يحاول حربهم بعد أن وعد الطبريون الديلم بتأمين ظهرهم ضد اى خطر يتعرضون له (١٠)

---

(٨) الخضرى ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ٢٧٦ ، ويورد الخضرى ما أورده أبو يوسف فى كتاب الخراج عن الأرض الموات ، قال أبو يوسف « لو ان بلادا فتحت عنوة أو صلحا ، وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد ، وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات » الخضرى ص ١٤٩ .

(٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٢٧٢ .

(١٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٢٧٣ .

وهكذا تقوى أهل طبرستان بالديالمة جيرانهم الذين يتميز جنودهم بالخشونة والطبع المتبربر وبالقدرة الفائقة على الحرب (١١) .

وهكذا ، أنتجت الفوضى السياسية التى سادت الدولة العباسية آنذاك ، وما نتج عنها من ظلم اجتماعى واقتصادى حركة تمردية فى بلاد طبرستان ، انضم اليها الديالمة الذين رأوا فى تحالفهم مع جيرانهم مصلحة مشتركة .

البحث عن رئيس للحركة :

بعد هذا التحالف الطبرى الديلمى بدأ القوم فى البحث عن قائد لحركتهم ، ولما كانت شخصية الزعيم المنتظر ستواجه الدولة العباسية كقائد لحركة ثورية كان من الضرورى أن تكون شخصية يمكن أن تلتف حولها جميع العناصر مما يضمن لها النجاح فى حركتها وهذا ما لا يمكن أن يتمثل مثلا فى ابنى جعفر رغم شجاعتهما وبأسهما .

ومن ثم استقر رأى القوم على أن تكون تلك الشخصية علوية لما للعلويين من خبرة وتمرس فى الثورات ضد السيادة العباسية ، بالاضافة الى ما يتمتعون به من تقدير جمهرة المسلمين وحبهم وتعاطفهم معهم ، وبذلك تضمن الحركة بقيادتها العلوية أنصارا ومؤيدين (١٢) .

وكانت الشخصية التى وقع عليها الاختيار للاضطلاع بهذه المهمة هى محمد بن ابراهيم أحد الطالبيين المقيمين بطبرستان (١٣) ، فراسله ابنا رستم ولكنه رأى انه لا يقوم بهذا الأمر ورشح لهم شخصية علوية أخرى رآها أقوم بما دعوه اليه منه هى شخصية الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى كان يتخذ الرى مقاما له ، فأرسل رسولا الى الحسن يعرض عليه الأمر وترشيح محمد بن ابراهيم له فقبل الرجل وشخص معهم الى طبرستان (١٤) .

---

(١١) ابراهيم الشريف : العالم الاسلامى ص ٤٨٤ .
(١٢) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ٢ ص ١٨٨ .
(١٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٢٧٣ .
(١٤) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 87.

الحســن بن زيد فى طبرســتان :

هكذا ، جاء الحسن بن زيد الى طبرستان فى أواخر شــهر رمضــان ســنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ م (١٥) والوضــع مهيأ له لتأسيس دولة علوية بها حيث « صــارت كلمة الديلم واهــل كلار وسالوس ورويان على بيعته وقتال ســليمان بن عبد الله واحدة » (١٦) ، وبايعه بعد وصوله الى طبرستان ابنا رســتم ، وجماعة من أهــل الثغور ورؤساء الديلم ، وعبد الله بن ونداميد من أهــل رويان ومعظم زعماء أهــل السـفح وجبال طبرستان (١٧) .

كون الحســن بن زيد جيشــا زحف به ، ومعه جماعة من قواد أهل النواحى التى بايعته ، وتوجه لحرب محمد بن أوس الذى كان آنئذ فى سارية (١٨) ، وســار محمد بن أوس للقائه ، وكان اللقاء فى بعض نواحى آمل (١٩) .

ومن خلال ســير المعركة بين الجانبين يتضــح أن الحســن بن زيد كان ذا كفاية قيادية باهرة اذ تمكن من شغل محمد بن أوس بحرب طائفة من جنده ، وانقض بطائفة أخرى على مدينة آمل فدخلها واستولى عليها (٢٠) .

واســقط فى يــد محمــد بن أوس ورجاله ، ولم يجدوا أمامهم غير الفرار الى مدينة سارية حيث سليمان بن عبد الله .

وكان على الحســن بعد أن فتح آمــل وجبى خراجها أن يتوجه الى ســارية نفســها لمواجهة ســليمان بن عبد الله بن طاهر صــاحب الســلطة العليا فى طبرســتان وغيرها من الأقاليم المجاورة ، وتمكن الحســن من تكرار مــا حدث فى آمل فى ســارية كذلك ، حيث قســم جيشــه الى قســمين هاجم بأحدهما خارج

---

(١٥) سيديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١١٨ .

(١٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٢٧٣ .

(١٧) الطبرى : نفس المصــدر حـ ٩ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، النويرى : نهــاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨٢ وانظر : الكامل حـ ٥ ص ٣١٦ .

(١٨) مدينة من مــدن مازندران بينها وبين الرى ثمانون ميلا . أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٣٦ : ٤٣٧ .

(١٩) آمل : قصبة طبرستان . ابو الفدا : نفس المصدر ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

(٢٠) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٦ .

مدينة سارية في حين تمكن القسم الآخر من دخول مدينة سارية والاستيلاء عليها .

ولم يجد سليمان بن عبد الله من وسيلة أمامه غير النجاة بنفسه فهرب وترك أهله وعياله وأثقاله ، « وكل ما كان له بسارية من مال وأثاث بغير مانع ولا دافع » (٢١) .

وكانت هزيمة سليمان من الحسن في ذى الحجة سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ م ؛ وقد لجأ سليمان بن عبد الله الى جرجان .

وتصرف الحسن بن زيد شأن العلويين في معاركهم تصرفا أخلاقيا رائعا مع أهل سليمان القائد المنهزم وضحه الطبرى بقوله : « فأما عيال سليمان وأثاثه فانه بلغنى أن الحسن بن زيد أمر بمركب حملهم فيه حيث ألحقهم بسليمان وهو بجرجان » (٢٢) .

وقد قيل ان هزيمة سليمان قد تمت عليه باختياره حيث كان الطاهريون — وهو منهم — يتشيعون ، وتأثم سلمان لشدة تشيعه من محاربة الحسن ابن زيد وقال :

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حينا ... تريدنا لتحسينا الأمرينا
يا قوم ان كانت الأنباء صادقة ... فالويل لى ولجمع الطاهريينا
اما أنا فاذا اصطفت كتائبهم ... أكون من بينهم رأس الموليناـ
والعذر عند رسول الله منبسط ... اذا احتسبت دماء الفاطميينا (٢٣)

ولعل ما يضعف هذا القول هو أن المعارك فعلا دارت بين الحسين والطاهريين على أبواب سارية وفي داخلها ، ولو كان الأمر غير ذلك ما جرت مثل تلك المعارك ، ثم ان سليمان وان كان متشيعا فهو عامل من عمال العباسيين .

وربما يمكن القول أن وجود رأى عام شيعى في هذه البلاد كان يزعزع جبهة الطاهريين الداخلية حيث كان العلويون منبثين في كل هذه المناطق ، وكانوا يظهرون عندما تتقدم الجيوش الطبرية فيهددون الجبهة الداخلية ، ويعرضون جيوش الطاهريين للوقوع بين نارين فتضطر الى التراجع (٢٤) .

---

(٢١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٢٧٤ .
(٢٢) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٢٧٥ وابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣١٦ .
(٢٣) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨٣ .
(٢٤) أبراهيم الشريف : العالم الاسلامى ص ٢٨٤ .

على أننا نذكر فى هذا المجـال أن محمـد بن عبد الله بن طاهر على سـبيل المثـال هو الذى قضى على ثورة يحيى بن عمـر الطـالبى فى الكوفة وقتل يحيى نفسـه (٢٥) .

وكانت هذه الانتصارات السريعة المتوالية والحاسمة فى نفس الوقت تعنى أنه فى الشـهور الأخيرة من سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ — رجحت كفـة العلويين فى مواجهة الحكام المحليين الذين كانوا يمثلون سلطان الخلافة العباسية (٢٦) .

وجه الحسن بن زيد بعد ذلك اهتمامه الى الرى فأرسل اليها جيشـا بقيادة رجل يحمـل نفس اسـمه ، تمكن من الاسـتيلاء على الرى (٢٧) ، وطرد عامل آل طاهر منها (٢٨) ، وجعل عليها محمد بن جعفر الطالبى .

واستشعرت الخلافة العباسية الخطر العلوى يتهددها من طبرستان ، فوجه الخليفة المسـتعين بالله (٢٤٨ — ٢٥١ = ٨٦٢ — ٨٦٥ م) بقائده اسـماعيل بن فراشه فى الف وخمسمائة رجل الى همذان ، وأمره أن يتقدم بها ليحول دون دخول خيـل الحسـن بن زيد اليها ، فى حين يقع عبء حماية مـا وراء عمل همذان على محمد بن طاهر بن عبد الله عامل تلك البلاد .

وقد ساءت الأمور فى الرى نتيجة لسـياسة محمـد بن جعفر الطالبى الذى أسـاء الى الناس ، فوجه محمد بن طاهر بن عبد الله قائده محمد بن ميكال الذى تمكن من هزيمة محمد بن جعفر الطالبى واسره ، ودخل الرى (٢٩) .

وتمكن الحسن بن زيد من استعادة الرى مرة أخرى حيث ارسل اليها جيشـا بقيادة واجن فهزم محمد بن ميكال وقتله (٣٠) واصـبحت بذلك الرى جزءا من الدولة الطبرية .

---

(٢٥) ابن الوردى : تتمة المختصر حـ ١ ص ٢٣٠ .
(٢٦) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ٢ ص ٢٨١ .
(٢٧) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 87.
(٢٨) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك حـ ٩ ص ٢٧٥ ، الكامل حـ ٥ ص ٣١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٨ .
(٢٩) الطبري : نفس المصدر حـ ٩ ص ٣١٧ .

وفى سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٦ م انقلب ميزان القوى فى منطقة طبرستان حين أعد سليمان بن عبد الله العدة لاستعادة طبرستان من يد الحسن بن زيد ، وجهز لذلك جيشا ضخما ، مما اضطر الحسن بن زيد الى التخلى عن طبرستان لسليمان ، ولجأ الى حلفائه من الديلم استعدادا لجولة أخرى .

وقد حاول احد الطالبيين وهو على بن عبد الله الطالبى المسمى بالمرعشى ومعه رجلان من رؤساء الجبل ان يقاوم برجاله الذين يزيدون على الفى رجل عندما علموا بهزيمة الحسن بن زيد ، ولكن الطاهريين تمكنوا من هزيمتهم (٣١) .

واوضح كتاب الفتح الذى ارسله محمد بن سليمان بن عبد الله الى اخيه محمد بن طاهر ما يوضح أن اهل هذه البلاد كانوا عاونوا على انتصار الحسن ابن زيد عندما هاجم بلادهم وانهم تابوا وانابوا (٣٢) فقال : « دخل سارية على حال من السلامة ، وانه ورد عليه ابنان لقارن بن شهريار مولى أمير المؤمنين يقال لهما مازيار ورستم فى خمسمائة رجل ، الى غير ما ذكر من غير ذلك فى الفتح ، وأن أهل آمل أتوه منيبين مظهرين انابتهم مستقلين عثراتهم فلقيهم بما زاد فى سكونهم وثقتهم ، ونهض بعسكره على تعبئة مستقرئا للقرى والطرق وتقدم بالنهى عن القتل ، وترك العرض لأحد فى سلب وغيره ، وتوعد من جاوز ذلك ، وأن كتاب اسد بن جندان وافاه بهزيمة على بن عبد الله الطالبى المسمى بالمرعشى فيمن كان معه وهم أكثر من ألفى رجل ورجلين من رؤساء الجبل فى جمع عظيم عند تأدى الخبر اليهم بانهزام الحسن بن زيد ودخوله بالأولياء الى تلك الناحية ، وانه دخل مدينة آمل فى أحسن هيئة واظهر عزة وسلامة شاملة وانقطعت عنه أسباب الفتنة » (٣٣) .

وتمكن الحسن بن زيد من العودة الى طبرستان بعد أن هزم سليمان بن

---

(٣٠) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٣١٧ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٨٤ .
(٣١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٣٠٧ ، الكامل جـ ٥ ص ٣٢٩ .
(٣٢) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٣٣) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٣٠٨ .

عبد الله فى سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٧ م ليغير ميزان القوى لصالحه من جديد (٣٤) .

وقد عمل الحسن بن زيد على تثبيت اقدامه فى طبرستان وحل ما يواجهه فيها من مشاكل داخلية .

موقف الخلافة من دولة العلويين :

لم تكن الخلافة العباسية راضية عن التطورات السريعة التى حدثت فى طبرستان وبلاد الديلم ، وكان من نتيجتها ظهور دولة علوية فى هذه الأنحاء مما يهدد فيها نفوذ الخلافة . وقد حاول الولاة المحليون منذ البداية التصدى لهذا الخطر وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالحسن بن زيد فى احدى مراحل الصراع واضطراره الى اللجوء الى بلاد الديلم ، ولكن استرداد الحسن بن زيد لمناطق نفوذه من جديد القى على الخلافة العباسية نفسها عبء المواجهة المباشرة بينها وبينه .

وبدات تلك المواجهة المباشرة بين الخلافة العباسية والحسن بن زيد بتوجيه القائد العباسى مفلح الى طبرستان فى سنة ٢٥٥ هـ (٣٥) / ٨٦٩ م ، وتمكن مفلح من الحاق الهزيمة به ، واحرق منازله ، مما اضطر الحسن بن زيد الى اللجوء الى الديلم مرة اخرى (٣٦) ، وكان مفلح مصمما على القبض عليه حيث كان اقسم على « اتباع الحسن بن زيد حيث توجه حتى يظفر به أو يخترم دونه » (٣٧) ، وكان واثقا من أن الديلم لن يستطيعوا الوقوف فى وجهه ويقول : « لو رميت قلنسوتى فى أرض الديلم ما اجترأ أحد منهم ان يدنو منها » (٣٨) .

ولكن الظروف الخطيرة التى كانت تمر بها الخلافة العباسية آنذاك استدعت

---

(٣٤) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨٥ ، حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ٢ ص ٢٨١ .

(٣٥) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨٥ ، وكان الأتراك آنذاك يسيطرون على أمر الخلافة . الخضرى ص ٢٧٧ .

(٣٦) Saban, Islamic history Vol 2, pp 87—88.

(٣٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٤٠٦ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ١٥ .

(٣٨) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٠٧ .

ضرورة عودته حيث كانت السيدة قبيحة أم الخليفة المعتز بالله استنجدت بموسى ابن بغا لما رأت من اضطراب الأمور من الأتراك على الخليفة المعتز فى سامرا فأرسلت اليه مؤملة وصوله « قبل ان يفرط فى ولدها فارط » (٣٩) ؛ مما دفع بموسى ابن بغا الذى كان فى الرى آنذاك ان يطلب من مفلح ضرورة العودة عن طبرستان وبلاد الديلم ، ولم يكن أمام مفلح غير طاعة موسى بن بغا والقدوم عليه فى الرى .

وكانت الأحداث فى عاصمة الخلافة أسرع منهما حيث كان قد تم فى تلك الأثناء قتل الخليفة المعتز بالله ، وقيام الخليفة المهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ — ٨٧٠ م) بالأمر من بعده (٤٠) .

وكانت النتيجة ان عاد الحسن بن زيد ليحكم قبضته على طبرستان من جديد ، وهكذا ساعدت مقدرة الحسن بن زيد العسكرية من ناحية ، وما ساد الجبهة العباسية من ناحية ثانية على تثبيت أقدام الحسن بن زيد فى طبرستان .

وجه الحسن بن زيد بعد ذلك وجهه صوب جرجان ، وتمكن من الاستيلاء عليها رغم الجهود التى بذلها والى خراسان محمد بن طاهر لدحر ذلك الهجوم حيث أرسل الكثير من الجند لحماية المدينة من قوات الحسن بن زيد ، ولكن الحسن ابن زيد تمكن من هزيمتهم ، وأصاب منهم الكثير من الغنائم .

وكانت الهزيمة قاصمة بالنسبة لمحمد بن طاهر وكان من نتيجتها أن ضعف أمره « وانتقض عليه كثير من الأعمال التى كان يجبى خراجها اليه ، فلم يبق فى يده الا بعض خراسان ، وأكثر ذلك مفتون منتقض بالمتغلبين فى نواحيها والشراة الذين يعيثون فى عمله فلا يمكنه دفعهم ، فكان ذلك سبب تغلب يعقوب الصفار على خراسان » (٤١) .

وتمكن الحسن بن زيد كذلك من الاستيلاء على مدينة الرى بعد أن فارقها عبد العزيز بن أبى دلف من غير سبب يعلم (٤٢) . فأرسل اليها الحسن بن زيد

---

(٣٩) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٤٥ .
(٤٠) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 89.
(٤١) ابن الأثير : الكامل حـ ٥ ص ٣٦٣ .
(٤٢) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٨٦ .

قائده القاسم بن على العلوى المعروف بدايس ، وقد اساء القاسم السيرة فى أهل الرى الى درجة كبيرة ، وخلع ابواب المدينة المصنوعة من الحديد ، وأرسلها الى الحسن بن زيد ، وظل الحال كذلك مدة ثلاث سنين (٤٣) .

وفى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م تمكن الحسن بن زيد من الاستيلاء على قومس(٤٤) ، ودخلها أصحابه .

الحسن بن زيد والصفاريون :

تمكن يعقوب بن الليث الصفار من دخول مدينة بلخ فى سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م ، ثم تمكن من دخول نيسابور عاصمة خراسان فى ذى القعدة سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م ، واسر محمد بن طاهر والى خراسان وما يزيد على ستين من الطاهرية (٤٥) ، وخرج فى سنة ٢٦٠ هـ ومعه محمد بن طاهر مقيدا بقية الطاهريين متوجها الى جرجان للقاء الحسن بن زيد العلوى أمير طبرستان وجرجان ، ولم يكن فى نية يعقوب محاربة الحسن ، وانما كان يرغب فى القبض على شخص يسمى عبد الله السجزى كان ينافسه الرياسة بسجستان ، وكان عبد الله هذا قد وصل الى محمد بن طاهر بنيسابور ، ثم هرب بنيسابور الى الحسن بن زيد عندما تمكن يعقوب من هزيمة محمد بن طاهر واسره .

وتذكر المصادر أن يعقوب بن الليث أرسل الى الحسن بن زيد يطلب منه تسليمه عبد الله السجزى حتى ينصرف عنه ، ولكن الحسن رفض تسليم رجل احتمى به والتجأ اليه (٤٦) .

وان كان من المستبعد أن يزج يعقوب بنفسه فى حروب ضد الطاهريين

---

(٤٣) ابن الأثير : المصدر السابق حـ ٥ ص ٣٦٤ ، النويرى حـ ٢٥ ص ٨٦ .

(٤٤) كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون فى ولاية ملكها ، وقصبتها المشهورة دامغان وهى بين الرى ونيسابور . ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ٤١٤ .

(٤٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٠٦ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٨٦ .

(٤٦) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٥٠٩ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٧١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٨٠ .

وضد الزيدية فى طبرستان من أجل الحصول على رجل هارب ، وانما هى أطماع زعيم الصفاريين الذى استشعر فى نفسه القوة لتوسيع رقعة دولته على حساب الطاهريين والزيدية ، ولا شك انه حسب حساباته جيدا مستغلا ضعف الخلافة العباسية وارتباكها عندئذ ، وفى ضوء ذلك هزم الطاهريين ، وتقدم الى جرجان لمحاربة الحسن بن زيد .

وكان اللقاء بين جيش الحسن بن زيد وجيش يعقوب بن الليث سهلا على يعقوب فلم يثبت رجال الحسن فى المعركة كثيرا أو قليلا حتى وصف الطبرى المعركة بقوله : « فلم تكن الا كلا ولا ، حتى هزم الحسن بن زيد » (٤٧) .

واضطر الحسن بن زيد الى الفرار من جرجان الى طبرستان ، وتمكن يعقوب من دخول سارية ثم تقدم منها الى آمل وجبى الخراج من أهلها (٤٨) ، واضطر الحسن بن زيد الى الهرب الى مدينة سالوس ، ولكنه لم يجد التأييد من أهلها كما كان له من قبل ، فترك سالوس ، وفى تلك الأثناء كان يعقوب قد خرج اليه من آمل ، ولكن أخبارا وصلت الى يعقوب ساءته وجعلته يقصر فى الوصول للقاء الحسن بن زيد حيث وصله أن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قد دخل مرو الروذ ومعه صاحب خوارزم فى ألفين من الأتراك .

وبدأت الكفة تميل الى الحسن بن زيد مرة ثانية فى أوائل سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ ، وأبان عن مقدرته فى فن الحرب حين اتخذ للقاء يعقوب طريقا من ناحية البحر ، وجهز لذلك اللقاء رجالا من الديلم وأهل الجبال وطبرستان ، وفاجأ يعقوب بن الليث الصفار ، وتمكن من قتل الكثيرين من رجاله وتشتيت جيشه ، واضطر يعقوب الى الانسحاب الى جرجان (٤٩) .

وظاهرت الطبيعة الحسن بن زيد فى حربه مع يعقوب ، فوقعت زلزلة عنيفة استمرت ثلاثة أيام فى جرجان ، فقتلت الفى انسان ، وانتهى الأمر برجوع طبرستان الى الحسن بن زيد واستعادة سلطانه على آمل وسارية وما يتصل بهما (٥٠) .

---

(٤٧) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٠٩ .
(٤٨) الطبرى : نفس المصدر ج ٩ ص ٥٠٩ .
(٤٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٤١٢ .
(٥٠) ابن خلكان : نفس المصدر ج ٦ ص ٤١٢ .

وقد تعسف يعقوب الصفار فى جمع الأموال من اهل جرجان مما حدا بأهلها الى الاستغاثة بالخليفة العباسى المعتمد على الله الذى كان ينظر بعين جازعة الى استشراء نفوذ الصفاريين ، فعزم الخليفة على قصده ليعقوب بنفسه وأمر بقراءة كتاب على الحجيج القادمين من اقاصى البلاد يبين فيها رايه فى يعقوب واساءاته ، ووزعت ثلاثون نسخة من ذلك الكتاب لتذاع فى كل مكان ، واضطر يعقوب ازاء هذه التطورات وخشية تصدى الخليفة له لأنه لم يجد عدة تصلح للقاء الخليفة (٥١) ، الى العودة الى نيسابور .

وهكذا لم يحقق يعقوب الصفار غير غضب الخلافة عليه والعودة دون تحقيق ما امله فى بلاد طبرستان ، بل انه خسر ما يزيد عن اربعين الفا من رجاله فى ممالك طبرستان الوعرة (٥٢) .

ولم يكن حصوله على عبد الله السجزى الذى سلمه اليه والى الرى عندما لجأ السجزى اليه بعد هزيمة الحسن بن زيد ليستحق كل تلك الخسائر المادية والادبية .

وهكذا كتب لدولة العلويين فى طبرستان أن تستمر فى حكمها لتلك البلاد تحت قيادة الحسن بن زيد ما يقرب من عشرين عاما (٥٣) ؛ تسرب فيها نفوذه الدينى الى بلاد الديلم التى ساعدت جارتها طبرستان فى حروبها ضد بنى طاهر ، وانضم الجميع تحت قيادة الحسن بن زيد ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر بين سكان الديلم (٥٤) .

وفى شهر رجب سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م توفى الحسن بن زيد ليلى الأمر من بعده أخوه محمد بن زيد .

محمد بن زيد :

لم تكن الدولة التى أسسها الحسن بن زيد ذات نظام ملكى (٥٥) ، ولذلك

---

(٥١) ابن خلكان : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤١٣ .
(٥٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٨٠ .
(٥٣) النويرى : نفس المصدر جـ ٢٥ ص ٣٨١ .
(٥٤) احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٣ ص ٤١٤ .
(٥٥) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ٢٧٧ .

آذنت وفاة الحسن ببداية عهد من الصراع على رئاســـة الدولة ، وكان أخـوه محمد بن زيد آنئذ فى طبرستان ، وقد أوصى الحسن بن زيد فى مرض موته صهره محمد بن ابراهيم العلوى بالكتابة الى أخيه ليحضر بسرعة ، وتباطأ محمد بن ابراهيم فى ذلك طمعا فى أن تئول الأمور اليه ، وتم له ذلك فعلا ، ونصب نفســـه مكان الحسن بن زيد بعد وفاته وتلقب بلقب القائم بالحق (٥٦) .

وعندما علم محمد بن زيد بوفاة أخيه ســارع بالعودة الى جرجان ، فأسرع محمد بن ابراهيم بالهرب الى سالوس ، فأرســـل محمد بن زيد فى أثره سرية من جنده تمكنت من اللحاق به ، وانتهى الأمر بقتله واستتباب الأمور لمحمد بن زيد الذى لقب نفســـه بالداعى (٥٧) .

واستغل محمد بن زيد غياب اذكوكين والى الرى فى قزوين ، وتقدم اليهـا ، واستولى عليها ، وسار اذكوكين فى سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م من قزوين الى الرى لملاقاة محمد بن زيد الذى التقـــاه بجيش من الديلم والطبرية والخرســـانية ولكن الهزيمة الساحقة كانت من نصيب محمد بن زيد ، وتمكن اذكوكين من دخول الرى واخذ من اهلها أموالا باهظة بلغت مائة مليون دينار ، وفرق عماله فى أعمال الرى .

رافع بن هرثمة ومحمد بن زيد :

وفى سنة ٢٧٥ هـ/٢٨٨ م استولى رافع بن هرثمة أمير خراسان على جرجان من محمد بن زيد ، واضطر محمد بن زيد الى المســـير الى استراباذ (٥٨) حيث تحصن بها ، وحاصره رافع بن هرثمة من خارج المدينـــة مـدة عامين حتى قاسى وجنوده وأهل المدينة من جراء هذا الحصار قلة الأقوات وغلاء الأسعار « بحيث لم يوجد ما يؤكل ، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة » (٥٩) .

واضطر محمد بن زيد الى الخروج متسللا من المدينة فى عدد يسير من رجاله

---

(٥٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ١٥٣ ، النويرى : نهاية الأرب ص ٨٨.
(٥٧) النويرى : نفس المرجع جـ ٢٥ ص ٨٩ .
(٥٨) استراباذ : بالفتح ثم السكون ، بلدة كبيرة مشهورة من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان ، ياقوت جـ ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٥٩) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٦٥ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٩٠ .

الى سارية (٦٠) ، فتعقبه جند رافع فتوجه الى سالوس ، فسار رافع اليه ، فاضطر الى دخول أرض الديلم ، وعاد رافع الى قاعدة ملكه (٦١) .

ويشير المسعودى الى أن محمد بن زيد دخل بلاد الديلم في سنة ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م ، وصارت فى يده ، وأن رافع بن هرثمة بايعه بعد ذلك واصبح من اتباعه وانقاد لدعوته والقول بطاعته (٦٢) .

ويبدو أن ذلك كان ضربا من السياسة فرضتها الظروف الحرجة التى أحاطت برافع فى سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م حيث عزله الخليفة المعتضد بالله عن خراسان لرفضه التخلى عن قرى السلطان بالرى ، وكتب الخليفة الى عمرو بن الليث الصفار بولاية خراسان ، وتمكن أحمد بن عبد العزيز من هزيمة رافع الذى خرج من الرى وتوجه الى جرجان ، ولكنه ما لبث أن عاد الى الرى بعد وفاة أحمد بن عبد العزيز فى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، ودخل فى قتال مع عمرو وبكر ابنى أحمد ابن عبد العزيز ، وهزمهما ففرا الى أصبهان ، وتمكن رافع من أن يظل فى الرى تلك السنة رغما عن ارادة الخلافة .

وتمكن عمرو بن الليث الوالى الشرعى لخراسان من الاستيلاء على نيسابور وعلى خراسان فى سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م ؛ واسقط فى يد رافع فلجأ الى السياسة فجمع أصحابه وقال لهم : « ان الأعداء قد أحدقوا بنا ، ولا آمن أن يتفقوا علينا ، هذا محمد بن زيد بالديلم ينتهز فرصة لينتهزها ، وهذا عمرو بن عبد العزيز قد فعلت به ما فعلت فهو يتربص الدوائر ، وهذا عمرو بن الليث قد وافى خراسان بجموعه ، وقد رأيت أن أصالح محمد بن زيد واعيد اليه خراسان ، واصالح ابن عبد العزيز ، ثم أسير الى عمرو فأخرجه عن خراسان » (٦٣) ، فوافقه أصحابه على ذلك .

ونفذ رافع بن هرثمة ذلك ، فأرسل الى ابن عبد العزيز فى شعبان سنة

---

(٦٠) ابن الأثير : نفس المصدر ج ٦ ص ٦٥ ، النويرى : نفس المصدر ج ٢٥ ص ٩٠ .
(٦١) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٣ .
(٦٢) المسعودى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٥٣ .
(٦٣) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص ٧٤ .

٢٨٠ هـ ، وصالحه ، ووصل الى طبرستان وراسل محمد بن زيد فى بلاد الديلم وصالحه ، وخطب له فى طبرستان وجرجان ، ووعده محمد بن زيد فى مقابل ذلك أن يمده بأربعة آلاف رجل من شجعان الديلم (٦٤) .

وتمكن عمرو بن الليث من الايقاع بين محمد بن زيد ورافع بن هرثمة فذكر محمد بن زيد بما فعله رافع وحذره من غدره متى استقامت له الأمور ، فتوقف محمد عن ارسال رجاله الى رافع .

أما رافع فانه كان قد غادر طبرستان وجرجان بعد اتفاقه مع محمد بن زيد وتوجه الى نيسابور ، ولما دارت اللقاءات المسلحة بينه وبين عمرو بن الليث لم ينجده محمد برجل واحد (٦٥) .

وانتهى الأمر بقتل رافع غيلة فى السابع من شوال سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م، وحمل راسه الى عمرو بن الليث بنيسابور الذى أرسله بدوره الى الخليفة المعتضد فى بغداد (٦٦) .

على اننا نستخلص مما تقدم أن رافع بن هرثمة لم ينتقد حقيقة لدعوة محمد ابن زيد ولم يدن بطاعته ، كما نستخلص ان الخطبة قد قطعت عن محمد بن زيد من طبرستان وجرجان من سنة ٢٧٧ هـ حتى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٠٠ — ٨٩٥ م) ، وهى المدة التى دانت فيها هذه البلاد ارافع بن هرثمة بالطاعة .

قتل محمد بن زيد :

فى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م دارت رحى عدة معارك بين عمرو بن الليث الطامع فى بلاد ما وراء النهر التى كانت فى يد اسماعيل بن أحمد السامانى ، وتمكن اسماعيل من عبور نهر جيحون وهزيمة محمد بن بشير قائد الصفاريين وقتله .

وصمم عمرو بن الليث على الخروج الى قتال اسماعيل بنفسه مخالفا نصيحة أصحابه له ورفض رسالة اسماعيل اليه التى قال فيها : « انك قد وليت دنيا

---

(٦٤) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٧٤ .
(٦٥) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٧٥ .
(٦٦) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٧٥ .

عريضة ، وانما فى يدى مـا وراء النهـر ،وانا فى ثغر ، فاقنع بما فى يدك ، واتركنى مقيما فى هذا الثغـر » (٦٧) . وزاده غروره فى مقدرته على هزيمة اسـماعيل رغم وعورة عبور نهـر بلخ وقال : « لو شـئت ان اسـكره ببدر الأموال واعبره لفعلت » (٦٨) .

ولكن اسـماعيل تمكن من أن يحاصره عنـد بلخ ، فندم عمرو آنئذ وطلب من اسـماعيل أن ينتهيا عن القتـال ، فرفض اسـماعيل وتمكن من هزيمـة عمـرو واسره ، ثم ارسـله اسـماعيل اسـيرا الى الخليفـة المعتضـد فى بغـداد حيث سـجنه ، وظـل فى سـجنه حتى قتل فى سـنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م (٦٩) فى عهـد الخليفة المكتفى بالله .

وعندما علم محمـد بن زيـد العلوى صـاحب طبرستان وبـلاد الديلم بأسر عمرو بن الليث الصـفار صـاحب خراسـان ، طمع فى بـلاده ، وظن أن اطماع اسماعيل ستنتهى بهزيمته لعمرو وانه لن يقصـد خراسـان ، فسـار محمـد بن زيـد الى جرجان وفى تلك الأثناء كان اسماعيل قد استولى بالفعل على خراسان ، وارسل الى مـحمد بن زيد يقـول له : « الزم عملك ولا تتجـاوزه ولا تقصـد خراسـان » (٧٠) .

وابى محمـد بن زيـد ان يمتثل لطلب اسـماعيل فارسـل اليه اسـماعيل جيشـا بقيـادة أحمد بن هارون (٧١) هزم جيش محمد بن زيـد على باب جرجـان بعد تكبيده خسائر فادحة ، واصـيب محمـد بن زيـد نفسـه — بعد أن استبسل فى القتال — جراحات متعددة مات على اثرها بعد أيام ، أما زيد بن محمد فقد اسر وعامله اسـماعيل معاملة حسنة وانزله بخارى (٧٢) .

ثم ان اسـماعيل أمر محمـد بن أحمـد بن هارون بالتوجه الى طبرسـتان

---

(٦٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٩٥ .
(٦٨) اسـكره = اغلقه .
(٦٩) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٦ ص ٩٦ .
(٧٠) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٦ ص ٩٦ .
(٧١) نائب الأثير رافع بن هرثمة الوالى السابق .
(٧٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٦ ص ٩٧ .

فدانت طبرستان بالطاعة للسامانيين من سنة ٢٨٧ هـ — ٣٠١ م (٧٣) (٩٠٠ — ٩١٤ م) .

وهكذا اتسعت املاك السامانيين لتشمل حكم المشرق كله ، وكانت قد آلت اليهم أملاك الطاهريين بموافقة الخلافة .

ولا شك ان ما منى به العلويون فى طبرستان فى عهد محمد بن زيد يعود الى ضعف شخصية محمد بن زيد ، اذا ما قورنت بشخصية أخيه التى كانت تتمتع بدرجة عالية من الكفاءة (٧٤) .

ويكتنف الفترة من سنة ٢٨٧ — ٣٠١ هـ (٩٠٠ — ٩١٤ م) من حياة دولة العلويين فى طبرستان شىء من الغموض ، ولكن يبدو مما أوجزته المصادر انها كانت فترة حافلة بالحروب الداخلية ، عملت فى النهاية على انتقال الامامة من الائمة الذين ينتمون الى الفرع الحسنى الى ائمة ينتمون الى الفرع الحسينى ، فيذكر النويرى أن الذى نصب للامامة بعد وفاة محمد بن زيد هو ابنه المهدى أبو محمد الحسن بن زيد بن محمد بن زيد ، وخطب له ببلاد الديلم ، ثم يقول : « وكانت له حروب وخطوب لم نر من دون فيها شيئا فنورده ، ولا وقفنا على تاريخ وفاته » (٧٥) . ثم يردف ذلك بقوله : « قالوا : ثم كانت بين الحسنيين والحسينيين حروب على الامارة بطبرستان والديلم ، الى أن استقرت الأمور فى بنى الحسين ، وأول من قاوم منهم : الحسن بن على الأطروش » (٧٦) .

أما كيف وصل الحسن بن على الأطروش الى منصب الامارة على دولة العلويين فى طبرستان فهو موضوع حديثنا التالى :

الحسن بن على الأطروش (٧٧) :

واول ما يلفت النظر فى سيرة الحسن بن على الأطروش انه كان شديد

---

(٧٣) حسن محمود : العالم الاسلامى ص ٤٨٥ ، وانظر النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٣٣٦ .

(٧٤) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ٢ ص ٣٤٧ .

(٧٥) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٢ .

(٧٦) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٣ .

(٧٧) هو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب . النويرى جـ ٢٥ ص ٩٤ .

الصلة بمحمد بن زيد ، وانه اشترك معه فى المعارك التى خاضها ، بل وكان معه فى المعركة التى انتهت باصابة محمد وأدت الى وفاته ، وقد ضرب الحسن ابن على الأطروش فى احدى تلك المعارك التى خاضها مع محمد بن زيد ، فأصابته بالصمم فعرف بالأطروش (٧٨) .

كما يلفت النظر فى سيرته أيضا أنه كان مجاهدا لا يهدأ ، وكان يعمل على نشر الاسلام أينما حل ، ولذلك دخل خراسان سرا ليدعو الناس اليه ، واصابه الجهد فى سبيل ذلك ، « وجرت عليه مكاره وحبس » (٧٩) ، ولكنه تمكن من الهرب من سجنه والعودة الى صحبة محمد بن زيد . أما بعد وفاة محمد بن زيد ، وتولى السامانيين الأمر فى طبرستان ، فانهم تتبعوا العلويين وطلبوهم أينما كانوا لأن اسماعيل بن احمد السامانى أمر عامله محمد بن هارون بقتل من وجده من العلويين (٨٠) ، وهرب الحسن بن على الأطروش شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من العلويين الى داخل بلاد الديام ، ورحب به ملك الديلم جستان بن وهسوزان بن المرزبان وأكرمه .

ولم ينس الحسن بن على الأطروش فى بلاد الديلم دوره فى الدعوة الى الاسلام ، حيث كان غالبية الديلم من المجوس والوثنيين فأسلم اكثرهم (٨١) ؛ وتبعه الكثيرون من بلاد الجيل حين ذهب اليهم .

وفوجىء الأطروش عند عودته من بلاد الجيل الى بلاد الديلم بتغير جستان عليه ودخل فى حرب معه ، انتهت بهزيمة جستان ودخوله فى طاعة الأطروش ، وكانت مدة اقامة الأطروش فى بلاد الديلم ثلاث عشرة سنة بعد وفاة الحسن ابن زيد (٨٢) ، وتلقب بالناصر للحق .

---

(٧٨) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٤ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ١٤٦ .
(٧٩) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٣ .
(٨٠) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٣ .
(٨١) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٤ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٣٧٣ وانظر : أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى حـ ٣ ص ٤١٤ ، ٤٢٣ .
(٨٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ١٤٦ ، محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٨٠ وانظر :
Shaban, Islamic history Vol 2, p. 148.

وتقلبت الأحوال بطبرستان الخاضعة للسامانيين ، وتولى أمرها نيابة عن اسماعيل بن احمد أبو العباس محمد بن ابراهيم صعلوك الذى أساء السيرة فى أهل طبرستان ، ومنع عن رؤساء الديلم الأجمال السنوية التي جعلتهم فترة طويلة يرفضون مناصرة العلويين ، وحرمت العلويين من ذلك النصير القوى الذى كان عماد جيوشهم (٨٣) .

كانت تولية ابن صعلوك ايذانا بالتفاف الديلم مرة أخرى حول الحسن الأطروش ، فدعاهم الحسن الى الخروج معه لمحاربة ابن صعلوك فخرجوا وتمكنوا من تحقيق النصر على ابن صعلوك وقتل أربعة آلاف من رجاله (٨٤) رغم قلة أتباع الأطروش بالمقارنة بجيش ابن صعلوك .

وقد فصل النويرى تعداد الجيشين ، وما حل بجيش ابن صعلوك حيث يقول : « وكان مع الناصر كما ذكر المكثر عشرة آلاف رجل من الديلم والجيل ، وأكثرهم رجالة ليس معهم من الخيل والأسلحة الا القليل ، وعدة الخراسانية نيف وثلاثون الف رجل على غاية القوة والمنعة ، فهزمهم الناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة ، والجاهم الى بحر طبرستان ، فكان من غرق أمثال من قتل ، قال الصابى فى الكتاب التاجى : يقال أن المفقودين كانوا نيفا على عشرين الفا ، وقال حمزة ابن الحسن الأصفهانى : كانوا سبعة آلاف رجل ، وكانت الوقعة فى سنة ثلاثمائة » (٨٥) .

وقد دخل الحسن الأطروش مدينة آمل فى جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ ٩١٤ م (٨٦) .

الحسن الأطروش فى طبرستان :

بعد أن دخل الحسن الأطروش طبرستان منتصرا ليعيد فيها الدولة العلوية من جديد بعد أن انقطعت منها منذ وفاة محمد بن زيد سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م حتى

---

(٨٣) حسن محمود الشريف : العالم الاسلامى ص ٤٨٥ .

(٨٤) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ١٤٦ ونوروز على شاطىء البحر على يوم من سالوس .

(٨٥) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٥ .

(٨٦) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٥ ، الكامل هـ ٦ ص ١٤٦ .

سنة ٣٠١ هـ / ٩١٤ م استعان بالحسن بن القاسم (٨٧) ، وفوض اليه أمر الجيش ، ولكن الحسن بن القاسم عمل لنفسه وقرب اليه الرجال وأفاض عليهم العطاء ، وانتهى به الأمر — وقد استشعر قوته — الى القبض على الحسن الأطروش نفسه ووضعه فى السجن (٨٨) .

وساء ذلك رجال الديلم ، وهددوا القاسم على يدى قائدين من أكبر قوادهما هما ليلى بن النعمان وأخوه حيث قالا له : « ان افرجت عنه الساعة والا قتلناك » (٨٩) ا فاضطر الحسن بن القاسم الى اخراج الحسن الأطروش من السجن ، وهرب هو الى بلاد الجيل حيث أطاعه أهلها ولقب نفسه « الداعى » (٩٠) .

وأراد الديلم جمع الكلمة فكلموا الحسن الأطروش فى اعادة الحسن بن القاسم الى قيادة الجيش كما كان ، ورأى الحسن الأطروش رأيهم فأعاده ، وحسنت له بعد ذلك طاعته ، ثم ان الحسن الأطروش زوجه ابنته أو ابنة ولده على ليضمن استمراره فى الطاعة .

وهكذا استقرت الحال للحسن الأطروش فى ملك الدولة العلوية التى أعادها الى الوجود بفضل شخصيته القوية وجهاده المستمر وحسمه الأمور حتى قيل فى حسمه انه قال لأصحابه : « من قتل منكم مقبلا فهو مؤمن ، ومن قتل منكم مدبرا فهو كافر » ، وكان اذا أتى اليه بجريح جرح مقبلا نثر عليه الكافور المسحوق فيجد راحة ويسكن المه ، واذا أتى اليه بجريح مدبرا نثر عليه ملحا فيشتد أمره ، فيقول قد بان لكم أن المؤمن ينتفع بالدواء لايمانه ، والكافر لا ينتفع به لكفره (٩١) .

---

(٨٧) هو الحسن بن القاسم بن على بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحانى بن القاسم بن الحسن بن زيد الأمير بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٧ هامش ١ .

(٨٨) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٦ .

(٨٩) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٦ .

(٩٠) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٦ .

(٩١) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وفى شعبان سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٧ م توفى الحسن الأطروش عن تسع وسبعين سنة « وكانت مدة مملكته المستقيمة الدائمة الى حين وفاته ثلاث سنين وثلاثة اشهر واياما » (٩٢) ، واشتهر بحسن سيرته واقامته للحق « ولم ير الناس مثل عدل الأطروش وحسن سيرته » (٩٣) .

الحسن بن القاسم « الداعى العلوى » :

كانت وفاة الحسن الأطروش وولاية الحسن بن القاسم بداية لتفتت الدولة وايذانا بقرب نهايتها حيث بدأ التنازع على الامامة ، ودارت رحى الحروب الداخلية، ولحقت بدولتهم الهزائم من دولة السامانيين التى كانت تتربص بهم (٩٤) .

وقد بدأ الحسن بن القاسم عهده بمحاولة انتزاع جرجان من أيدى السامانيين، فأرسل جيشا بقيادة أبى القاسم جعفر وابى الحسين احمد ولدى الحسن الأطروش ، وتمكن جعفر وأحمد من الحاق الهزيمة بجيش للسامانيين غير أن سيجمور أحد قادة السامانيين تمكن فى معركة أخرى من هزيمتهما وقتل الكثير من رجال الديلم ؛ وقر راى الديلم على خلع القاسم الداعى وتولية أحد ولدى الحسن الأطروش جعفر أو أحمد (٩٥) .

وكان من نتيجة ذلك أن فر الحسن بن القاسم الى بلاد الجيل ليجمع الأنصار ويستجمع قوته وعاد بعد قليل وتمكن من هزيمة ولدى الأطروش ففرا الي بلاد الجيل ثم عادا الى حربه فهزماه فهرب مرة أخرى الى بلاد الجيل ليستقر فيها الى حين .

أمـا جعفر وأحمد فلم يلبثا ان ماتا بعد قليل الواحد تلو الآخر « وبقى أمر طبرستان بغير مدبر » (٩٦) .

وآلت الأمور فى النهاية الى أن تعقد الامارة لليلى بن النعمان القائد السابق لجيش الأطروش ، فقام بالأمر وكان يخطب للداعى ثم لم يلبث أن قتل ليلى بن

---

(٩٢) النويرى : نفس المصدر حـ ٢٥ ص ٩٦ .
(٩٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٩٤) كان أمير السامانيين آنذاك نصر بن أحمد السامانى .
(٩٥) النويرى : المصدر السابق ص ٩٨ .
(٩٦) النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٥ ص ٩٩ .

النعمان فى نيسابور على يد حمويه بن على قائد جيش نصر بن احمد السامانى فقام بالأمر بعده على بن خورشيد فمات بعد قليل ، فتولى الأمر ماكان بن كالى واتفق مع اخيه الحسن على تنصيب ابى على محمد بن أبى الحسين بن الحسن الأطروش ، وفتك ابو على بالحسن بن ماكالى ثم ما لبث هو نفسه أن قتل وذلك فى اثناء وجود ماكان بن كالى فى آمل .

الداعى مرة اخرى :

اتصل ماكان بن كالى بالحسن بن القاسم الداعى ، وانضم اليه فملك الحسن بن القاسم طبرستان من جديد ، ثم توجه وحليفه ماكان بن كالى الى جرجان فملكها واقام بها .

ووقع الحسن فى خطأ كبير عندما تملكته رغبة الانتقام من الديلم لمناصرتهم لأولاد الناصر عليه فدعا زعماءهم واحدا واحدا وكل من دخل اليه قتله ، وفطن الديلم الى خطته فهربوآ الى خراسان واتصلوا بنصر السامانى ودخلوا فى طاعته .

وهكذا اتاح الحسن بن القاسم بسوء تصرفه الفرصة لخصم الدولة العلوية اللدود لبسط نفوذه من جديد على طبرستان وجرجان ؛ حيث استجاب نصر للديلم وسير معهم قائده اسفار بن شيرويه على راس جيش كبير فتمكنوا من دخول جرجان ثم طبرستان وفر الحسن بن القاسم الى الرى حيث كان يقيم قائده ماكان بن كالى فتخاذل عنه عند ما راى شمس امامته مؤذنة بالزوال وقال له : « الرأى أن تمضى أنت فانك الامام ،ولو قد راتك الديلم لانفضوا آليك » .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الخلافة العباسية نفسها اقلقها ما قام به الحسن ابن القاسم وماكان بن كالى فطالبت نصرا السامانى بتدارك الأمر وتصحيحه (٩٧) .

وكان ينبغى على الحسن بن القاسم ان يفطن الى مدى الخطر الذى يوقع فيه نفسه بتعسفه مع الديلم وكيف كان يطمع فى تأييدهم له او انحيازهم اليه بعد ما كان منه فى حقهم ؟!

ولكنه سار اليهم متعلقا بوهم كاذب سرعان ما تبدد على صخرة اللقاء

---

(٩٧) المسعودي : مروج الذهب ﺣ ٤ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

بينه وبين الجيش السامانى فهزم جيشه وهرب مصابا الى آمل آملا ان يستتر بها ولكن الديلم تمكنوا من الوصول اليه وقتلوه فى يوم الثلاثاء ٢٤ رمضان سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، وبذلك تكون دولة الحسن بن القاسم الداعى اثنتى عشرة سنة وشهرا وأياما « على ما فيها من الاختلاف عليه » (٩٨) .

الدولة العلوية بعد وفاة الحسن بن القاسم الداعى :

ملك أسفار بن شيرويه جرجان وتملك ابو موسى هارون بن بهرام طبرستان ، وصارت الخطبة فيهما لنصر بن احمد السامانى ، ورأى هذان الرجلان أن يجعلا الامامة بعد وفاة الحسن بن القاسم الى ابى جعفر محمد بن أحمد الناصر ، وفعلا ذلك ، وان لم يقطعا الخطبة لنصر بن احمد السامانى ، ولم يرض ذلك التصرف نصرا فطالب من اسفار القبض على ابى جعفر وارساله اليه ففعل ذلك .

توجه ماكان بن كالى من الرى الى طبرستان ، ففر أبو موسى هارون الى الديلم – وكان يتشيع – وخطب لاسماعيل بن جعفر الناصر غير انه توفى بعد مدة .

ثم انقضت فترة لم يل الامر احد من العلويين حتى تخلص ابو جعفر محمد من حبس السامانيين له ، ودعا لنفسه فى بلاد الجيل فى سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، وتلقب بالثائر فى الله .

وتمكن الثائر فى الله الذى كان يتميز بالحزم وحسن التدبير من الخروج من بلاد الجيل والاستيلاء على طبرستان ، وتقلبت به الأمور فى ملكها بين الدخول اليها والخروج منها ، حتى استقر به المطاف فى بلاد الجيل وتوفى بها فى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م (٩٩) .

وبذلك يمكن القول أن دولة العلويين قد انتهت عمليا فى سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م ، حيث ملك بعد الثائر فى الله جماعة من العلويين الذين لا يؤبه بهم ، وفى ذلك يقول النويرى : « وملك بعده جماعة من العلويين بلاد الجيل ، ولم يكن لأحد

---

(٩٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ١٠٠ .

(٩٩) النويرى : نفس المصدر جـ ٢٥ ص ١٠١ .

منهم دولة قائمة فى بلد مشهور فيعتنى بأمرهم وتدون اخبارهم ، وانما كان بتلك الناحية شبه الأعيان والأكابر لا كالملوك والخلفاء » (١٠٠) .

وهكذا انتهت دولة العلويين فى طبرستان وجرجان وبلاد الديلم بعد أن اثرت فى المنطقة تأثيرات قوية فى عهد رجالها الأقوياء كالحسن بن زيد ومحمد ابنه ثم الحسن الأطروش ، وكان لها الفضل الأكبر فى نشر تعاليم الاسلام بين مجوس هذه البلاد على المذهب الزيدى الشيعى (١٠١) ، ولكن وقوع الخلافات بين امرائها المتأخرين وضعف شخصياتهم سار بدولتهم نحو مصيرها المحتوم ليودى بها فى النهاية .

---

(١٠٠) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ١٠١ .
(١٠١) الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ٢٧٧ .

٢- الدولة الصّفارية

تنتسب دولة الصفاريين الى مؤسسها يعقوب بن الليث المعروف بالصفار الذى لصق به هذا اللقب لاشتغاله فى صغره بصناعة الصفر أى النحاس (١) .

وكان يعقوب بن الليث رغم نشأته المتواضعة يملك نفسا طموحة ارتقت به الى دور السياسى والقائد ومؤسسى الدول .

واول ما نسمع بيعقوب فى عهد الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ ــ ٨٦١ م) حيث انضم الى رجل يسمى صالح بن النضر الكنانى الذى كان يعرف بنصر المطوعى لتطوعه بقتال الخوارج (٢) ، وتغلب معه على سجستان مستغلين ضعف الأسرة الطاهرية ، وان تمكن عبد الله بن طاهر من استردادها منهما (٣) .

وحاز يعقوب ثقة صالح بن النضر حتى انه جعله نائبه وفى مقام الخليفة عنه .

وبعد موت صالح انضم يعقوب الى درهم بن الحسين وصار قائد جنده، وطغت شخصية يعقوب على شخصية درهم فانحاز اليه الجنود « وملكوه امرهم لما راوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمورهم » (٤) ، بل أن درهم بن الحسين نفسه اعترف له بهذه القيادة ولم ينازعه فى الأمر (٥) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ﺟ ٤ ص ٢٠٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ﺟ ٦ ص ٤٠٢ وانظر :

AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 293 & Brokelman, History of Islamic people, p. 135.

(٢) ابن الأثير : الكامل ﺟ ٥ ص ٣٣٧ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر ﺟ ٥ ص ٢٩١ ،

AMIR Ali, op. cit, p. 293.

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر ﺟ ٥ ص ٢٩١ .

(٥) ابن الأثير : نفس المصدر ﺟ ٥ ص ٢٩١ .

على أن ابن الأثير يذكر فى أحداث سنة ٢٥٣ هـ أن صاحب خراسان تمكن من الظفر بدرهم بن الحسين وحمله الى بغداد حيث سجن فيها ، ثم أطلق وخدم الخليفة فى بغداد ، وانه فى خلال هذه المدة تمكن الأمر ليعقوب وصار متولى أمر المطوعة مكان درهم (٦) .

ولعل هذا هو الأقرب للصواب ، ولو كان غير ذلك لقام بالأمر فورا بعد وفاة صالح بن النضر حيث كان ، وكما ذكر ابن الأثير فى مقام خليفته .

ولعل مما زاد فى قدره بين جنوده رضاؤه بالانضواء تحت لواء درهم بعد وفاة صالح مع مقدرته وكفاءته وقوة شخصيته .

وهكذا ، بدأ يعقوب بن الليث أولى خطواته الواسعة لتأسيس دولة تحمل اسمه ، وبدأت تتوافد عليه العساكر من كل ناحية .

وكان يعقوب يتمتع - لقوته وقيادته الحكيمة - بالاحترام بين جنده ، وفى نفس الوقت يتمتع بمكانة عظيمة فى نفوس العناصر المتدينة فى تلك المنطقة من القسم الشرقى لبلدان الخلافة العباسية لدوره فى محاربة الشراة (٧) ، وصيانة وحدة الدولة من أذى المهاجمين للممتلكات الشرقية للخلافة (٨) .

ويستبين من هذا أن يعقوب بدأ حياته جنديا متطوعا من جنود الخلافة يقاتل الخارجين عليها ، ولكن هل سيستمر يعقوب فى هذا الاتجاه ؟

الدولة الصفارية (التأسيس والاتساع) :

رأى يعقوب بن الليث أن فرصة تحقيق طموحه باتت وشيكة بعد أن حل محل درهم ، وصارت اليه قيادة المطوعة ، وسار لذلك على ثلاثة طرق : أولها : محاربة الشراة حربا لا هوادة فيها ليثبت مقدرته الحربية ويعلى من قدر زعامته ،

---

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٣٨ ، وفيات الأعيان ، جـ ٦ ص ٤٠٢ ، ويضيف ابن خلكان أن درهم بن الحسين بعد ذلك لزم بيته بظهر النسك والحج والاقتصاد ، حتى غلظ أمر يعقوب جـ ٦ ص ٤٠٢ .

(٧) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية جـ ١ ص ١٩١ وانظر : عصام عبد الرءوف الدولة المستقلة فى الشرق ص ١٧ .

(٨) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٣١ .

وثانيها : اعلان الطاعة للخلافة ، واظهار نفسه بصورة المدافع عن وحدتها بأمر الخليفة بنفسه ، وثالثها : الحزم والتمسك بالمظهر الدينى .

ويوجز ابن الأثير تلك السياسة فيبين أنه قام فى المجال الأول بمحاربة الشراة حربا شرسة ضارية « فظفر بهم واكثر القتل فيهم حتى كاد يفنيهم وخرب قراهم » (٩) ، وفى المجال الثانى « أظهر التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه وصدر عن أمره واظهر أنه هو أمره بقتال الشراة » (١٠) وفى المجال الثالث : « ضبط الطرق وحفظها وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر » (١١) وقد بوأته هذه السياسة مكانة عالية فى نفوس جنده « وأطاعه أصحابه بمكره وحسن حاله ورأيه طاعة لم يطيعوها أحدا كان من قبله » (١٢) ، كما حاز رضا الخليفة الظاهرى ، واقتنع به الناس .

وكان أن امتد ببصره بعد ذلك الى اسقاط الطاهريين (١٣) الضعفاء ، وأن يستبدل بهم دولة تستند الى قوة وجيش على أن يكون هو رئيس هذه الدولة (١٤) .

على أنه بالنظر الى نشأة دولة الصفاريين نجد انها فى بدايتها أخذت شكل حركة دينية هدفها قتال الخوارج وحفظ الدولة من خطرهم ، ولكنها لن تستمر فى هذا الاتجاه طويلا ، بل ستتحول الى حركة سياسية تثمر قيام دولة من الدول الاقليمية (١٥) التى مثلت ظاهرة فى العصر العباسى .

وعلى الجملة ، فقد تمكن يعقوب فى سنة ٢٥٣ هـ / ٨٧٣ م أن يستولى على

---

(٩) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٣٨ .
(١٠) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٥ ص ٣٣٨ .
(١١) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٣٨ .
(١٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٣٨ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٦ .
(١٣) وكانت خراسان آنئذ خاضعة للأتراك الطاهرية التى استقلت بها الى حد ما منذ أيام المأمون ، ولكنها رغم استقلالها بخراسان كانت على صلة طيبة بالخلافة ، كما كانت تجمع الى خراسان رئاسة الشرطة ببغداد ، وقد استمرت الأسرة الطاهرية ما بين سنتى (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ = ٨٢٠ — ٨٧٢ م) . محمد حلمى احمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٣١ .
(١٤) محمد حلمى احمد : نفس المصدر ص ١٣٣ .
(١٥) حامد غنيم : عصر الدولة الاقليمية جـ ١ ص ١٩٢ .

سجستان من أملاك الطاهريين (١٦) ، وأخــذ يحتال للتمهيد لامتلاك أملاك الدولة الطاهرية فراح « يتناول أصحاب أمير خراسان للخليفة » (١٧) .

وتمكن يعقوب بن الليث من هزيمة محمد بن أوس الأنبارى والى هراة من قبل محمد بن عبد الله بن طاهر وهزمه ، ثم اســتولى على بوشــنج (١٨) ، وكان من نتيجة ذلك أن هابه محمد بن عبد الله بن طاهر أمير خراســـان كما هابه غيره من أصحاب الأطراف .

وبرغم الود الطاهرى الذى أظهره الخليفة المعتز (٢٥١ — ٢٥٥ هـ = ٨٦٥ — ٨٦٩ م) تجاه يعقوب فانه كان ينظر بعين جازعة الى قوته الصاعدة ، ويخشى توسعة المنتظر فهو لم يزد فى نظر الخلافة عن أن يكون أحد المتغلبين الذين استغلوا سوء حالة الخلافة العباسية آنذاك وتدهور سلطانها فأخذوا يقتطعون أجزاء غالية.

ويدل تصرف الخليفة عنــدما طاب منــه كل من يعقــوب بن الليث وعلى بن الحسين بن شبل الذى كان مستبدا بالسيطرة على فارس (١٩) أن يوليه كرمان من أملاك الدولة الطاهرية لضــعف الطاهريين وعدم غنائهم ، يدل تصرفه على رغبته فى ضرب كل منهما بالآخر حيث أرسل الى كل منهما يوليــه اياها ، قال الطبرى : «أن هدفه كان اغراء كل واحد منهما بصاحبه ليسقط مؤنة الهالك منهما عنه ويتفرد بمؤنة الآخر » (٢٠) ، وبين كل من الطبرى وابن الأثير أن الخليفة كان يدرك منهمــا عــدم اخلاص النوايا فقال الطبرى : « كان كل واحــد منهما حــربا له وفى غــير طاعته » (٢١) ، وقال ابن الأثير : « وكان كل واحد منهما يظهر طاعة لا حقيقة لها ، والمعتز يعلم ذلك منهما » (٢٢) .

---

(١٦) Saunders, History of medieval, Islam, p. 118 & AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 293.

(١٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٣٨ .

(١٨) بوشنج : بينها وبين هراة عشرة فراسخ . ياقوت جـ ١ ص ٥٠١ .

(١٩) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية جـ ١ ص ٢٨٤ ، وكان قبل من عمــال آل طاهر . الطبرى جـ ٩ ص ٣٨٢ .

(٢٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٣٨٢ .

(٢١) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٣٨٢ .

(٢٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٤٠ .

وكان النتيجة أن توجـه يعقوب الى كرمان ليمتلكها بتفويض من الخليفـة ، وكذلك أرسل على بن الحسين قائده طوق بن المغلس للاستيلاء عليها (٢٣) .

وتمكن يعقوب بن الليث من هزيمة جيش طوق بن المغلس وأسره ، واستولى على كرمان .

ولم يقف يعقوب عند هذا الحد فصمم على هزيمة على بن الحسين نفسـه وفى مقر داره فى فارس ، وتم له ذلك فهزمه هزيمة ساحقة قرب شيراز ، ووقع على بن الحسين فى أسر يعقوب بعد ان أصيب بثلاث ضربات ، وقد عذبه يعقـوب بشتى انواع العذاب ووضعه فى الأسر مع طوق بن المغلس (٢٤) .

ولم ينس يعقوب بن الليث — فى هذه المرحلة — رغم اتضاح نيات الخليفة له ان يؤكد طاعته للخلافة فكتب الى المعتز بذلك واهدى اليه هدية جليلة « منها عشر بازات بيض ، وباز أبلق صينى ، ومائة من مسك ، وغيرها من الطرائف » (٢٥) .

على انه بالاضافة الى كل ذلك أتى بخطوة سياسية بارعة ليعلو فى نظـر الناس ويظهر الود للخلافة حين ترك لها فارس فى الوقت الذى كان فى وسـعه أن يبسـط سلطانه عليها دون منازع .

وهكذا انتصر يعقوب فى فارس وعاد عنها بصاحبها أسـيرا معه تاركا اياها للخليفة المعتز بالله يرسل اليها عماله (٢٦) .

ويتضح من اسـتقراء الأحداث فى تلك الفترة أن يعقـوب بن الليث ارتقى بمهاراته وشـخصيته من مجرد رجل من الدهماء الى رجل دولة يشـمل نفوذه سجستان وكرمان ووضحت قوته ظاهرة فى فارس التى تخلى عنها بعد دخولهـا للخلافة العباسية ، اظهارا لود يقابله عداء ومطامع فى الباطن (٢٧) ، كما يتضح أن

---

(٢٣) الطبرى : تاريخ الرسـل والملوك جـ ٩ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، والكامل جـ ٥ ص ٣٤٠ .

(٢٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤٠٦ .

(٢٥) ابن خلكان : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٠٩ ، أنظر :
BROKELMAN, History of Islamic people, p. 135.

(٢٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٤٠ .

(٢٧) حامد غنيم : عصر الدولة الاقليمية جـ ١ ص ٢٨٦ .

هذه المكاسب كانت على حساب الدولة الطاهرية المتداعية ورغما عن الخلافة التى كانت تمر بمرحلة تكاد تصل الى درجـــة الانهيار تحت تجبر الأتراك الذين كانوا يمرون بمرحلة من الانقســام والضعف الخطيرين .

ولكن الخلافة ما لبثت أن دبت فيها روح الانتعاش فى مرحلة اليقظة العباسية المؤقتة التى شهد بدايتها عصر المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٦٩ — ٨٩٢ م) بفضل اخيه البطل الموفق طلحة ، وكان لابد نتيجة لذلك أن تتطور علاقة الصفاريين بالدولة فى ظل هذا التطور الجديد .

الصفاريون والخلافة فى عهد اليقظة العباسية :

كانت الخلافة العباسية فى عهد المعتمد على الله فى فترة انتعاش بفضل جهود الموفق طلحـــة أخى الخليفة الذى بعث فى الخلافة روحا قوية بفضل شـــخصيته القوية ، ومن ثم فان كل ما تم فى عهـــد هذا الخليفة من انجازات يعزى الى اخيـــه الموفق الذى كان الحاكم الفعلى فى حين لم يكن للمعتمد الا الاسم (٢٨) .

وبدا اول احتكاك بين يعقوب بن الليث والخليفة الجديد فى ســـنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م عندما توجه يعقوب الى فارس بهـــدف انتزاعها لنفســـه ، واغضـــب هذا التصرف الخليفة المعتمد واخـــاه الموفق ، فارســـل المعتمد رســـله الى يعقوب يســـتنكر ذلك .

وراى الموفق فى هذه المرحلة — رغم عدم رضـــاه عن تصرف يعقوب — عـــدم مواجهة الأمر بالقوة ، والاســـتفادة من شـــخصية يعقوب ، فكتب اليه بولاية بلخ وطخارستان الى ما يلى ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها (٢٩) .

ورضى يعقوب بذلك ، وانصرف عن بلاد فارس ، وكان يعقوب ما يزال حتى هذا الوقت يرغب فى اقامة جســـور العلاقات الودية الظاهرية مع الخلافة ، ولذلك

---

(٢٨) انظر كتابنا : الخلافة العباسية فى العصر التركى الأول .
(٢٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٤٧٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٣ .

أرســل الى الخليفة المعتمد هدية ترضــية وصــفها ابن الأثير بأنها « هدية جليلة المقدار » (٣٠) .

كان حلم يعقوب الكبير يكمن فى الاستيلاء على خراسان من أيدى الطاهريين الذى كانوا وصــلوا آنذاك الى قمة ضــعفهم وعجز محمد بن طاهر عجزا ظاهرا وانتقضت كثير من الأعمــال التى كان يجبى خراجهــا عليــه « فلم يبق فى يده الا بعض خراســان ، وأكثر ذلك متون منتقض بالمتغلبين فى نواحيهــا والشراة الذين يعيثون فى عمله فلا يمكنه دفعهم » (٣١) .

وعلى هذا الأســاس اسـتغل يعقوب ضــعف محمد بن طاهر ، وتوجه فى شــوال سنة ٢٥٧ هـ / أغسطس ٨٨٣ م الى نيســابور عاصــمة الطاهريين حيث دخلها من غير كثير عناء (٣٢) ؛ حتى قيل أن بعض خاصـــة محمد بن طاهر وبعض أهله هم الذين كاتبوا يعقوب بن الليث يهونون عليه دخــول بلدهم ، كمــا أنهم من ناحية أخرى ثبطوا عزيمة محمد بن طاهر عن لقاء يعقوب .

وبلغ من ســهولة دخول يعقوب نيســابور أنه أرســل أخاه عمرو بن الليث الى محمد بن طاهر فأحضره عنده فقبض عليه وعنفه على اهمال عمله وعجزه عن حفظه ، ثم قبض على جميع أهل بيته ، وكانوا نحوا من مائة وســتين رجلا وحملهم معه الى سجستان » (٣٣) .

وهكذا تم ليعقوب تحقيق حلمه بالاســتيلاء على خراســان — حلمه — وولى نوابه على أعمالها (٣٤) .

وبهذا ســقطت أسرة الطاهريين التى كانت تســيطر على خراســـان منذ السنوات الأولى للقرن الثالث الهجرى (٣٥) .

---

(٣٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٣ .
(٣١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٣ .
(٣٢) BROKELMAN, History of Islamic, people, p. 135.
(٣٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٠٧ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣٦٩ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٠٠ .
(٣٤) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٥٠٧ .
(٣٥) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 99 & Saunders, History of Medieval Islam, p. 118 & AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 293.

ولم يكن ذلك ليعجب الخلافة حيث خشى رجال الدولة ما وراء ذلك من استقلال يعقوب او غلبته على حاضرة الخلافة نفسها (٣٦) ، وكانت الخلافة ـ بجهود الموفق ـ تصر على أن تشعر ولاة الأقاليم بخضوعهم المباشر لها فى كل تصرفاتهم الرئيسية ، وأن هذه التصرفات يجب أن تكون بتوجيهها (٣٧) .

لذلك حاولت الخلافة ان تتخذ موقفا صلبا تجاه هذا التصرف رغم ما حاوله يعقوب لتبرير استيلائه على خراسان وانهاء حكم الطاهريين حيث أرسل برسل الى الخليفة القوا بحجج يعقوب فى مجلس حضره الموفق وجعفر بن المعتمد والقواد فى ايوان الجوسق فذكروا « ما تناهى الى يعقوب من حال اهل خراسان ، وأن الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها ، وضعف محمد بن طاهر ، وذكروا مكاتبة اهل خراسان ليعقوب ومسألتهم اياه قدومه عليهم واستعانتهم ، وانه صار اليها ، فلما كان على عشرة فراسخ من نيسابور ، سار اليه اهلها فدفعوها اليه فدخلها » (٣٨) .

وكان الرسل فى نفس الوقت قد ايدوا حججهم بدليل عملى على ضعف محمد ابن طاهر وقوة يعقوب فى خدمة الخلافة حيث احضروا راسا على قناة فيها رقعة فيها : « هذا رأس عدو الله عبد الرحمن الخارجى بهراة ، ينتحل الخلافة منذ ثلاثين سنة ، قتله يعقوب بن الليث » (٣٩) .

وكان جواب الخلافة حاسما على لسان الموفق الذى قال لرسل يعقوب : « ان أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل ، وأنه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه اياه ، وانه لم يكن له ان يفعل غير ذلك بغير أمره فليرجع ، فانه ان فعل كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين » (٤٠) .

ولم يطع يعقوب أمر الخلافة بل مضى فى نفس الاتجاه الذى أثار الخلافة ضده

---

(٣٦) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(٣٧) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٣٦ .
(٣٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٠٧ .
(٣٩) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٥٠٧ .
(٤٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٠٧ ، وانظر :
Saunders, A history of medival Islam, p. 118.

فتوجه لحرب الحسن بن زيد فى طبرستان فى سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م (٤١) ، وتمكن من تحقيق عدة انتصارات عليه ، ثم أرسل الى الخلافة بذكر كيف الحق الهزائم بالحسن بن زيد ، وقال فى رسالته الى الخلافة : « فهزمته ، وقتلت عدة لم يبلغها بعهدى عدة ، وأسرت سبعين من الطالبيين » (٤٣) .

ورغم أن يعقوب بن الليث قد حارب خارجا آخر على الدولة العباسية الا أن رسالته الى الخليفة كانت توحى بأنه لا يلقى بالا الى أوامر الخلافة ، وأنه منح نفسه سلطات ينفذ بها ما يتفق مع مصالحه ، فكانت — رسالته مفجرا لرد فعل عكسى غاضب من الخلافة ضده ، وكان لابد لها من أن تقف من يعقوب موقفا أكثر حزما وحسما .

المواجهة بين الخلافة ويعقوب :

فى شهر صفر سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م أمر الخليفة المعتمد بتدبير الموفق بجمع الحجاج العائدين الى خراسان والرى وطبرستان وجرجان فى بغداد ، وقرأ عليهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أميرها كتابا من المعتمد يعلمهم فيه أن الخلافة لم تول يعقوب بن الليث الصفار خراسان ، وأنه دخلها دون أمر من الخلافة وحبس أميرها ، مما يعد عصيانا صريحا لأوامر الخليفة ، ومن ثم فانه يأمرهم بالبراءة منه (٤٤) .

ولا شك أن الخليفة بهذا التصريح كان يرمى الى اظهار يعقوب أمام العامة فى الأقاليم الشرقية بمظهر المتمرد الذى يجب محاربته (٤٥) .

وأدرك يعقوب مدى خطورة هذا التصريح على دولته ، وعليه ولا سيما أن الخليفة له من السلطة الروحية ما هو كفيل بتكتيل الرأى العام الشعبى ضده بل ما يدخل الوهن فى صفوف جيشه نفسه عندما يدرك أفراد هذا الجيش أن قائدهم يحارب خليفة المسلمين ، وكان له الحق فى هذا التفكير ، ولا شك أن

---

(٤١) أنظر تفصيلات ذلك فى البحث السابق « دولة العلويين فى طبرستان » .
(٤٢) Shaban, Islamic history Vol 2, p. 99.
(٤٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٩ ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .
(٤٤) الطبرى : نفس المصدر جـ ٩ ص ٥١٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤١٣ .
(٤٥) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية جـ ١ ص ٢٩٠ .

تصريح الخليفة كان ذا أثر خطير أو على الأقل مهد لما سيكون خطيرا بالنسبة ليعقوب ، ولكن شخصية يعقوب القوية لدى رجاله وجنده حالت — الى حين — دون تفجر الموقف ضده .

لم يجنح يعقوب — رغم ذلك — الى مهادنة الخلافة فأرسل الى الخليفة كتابا يسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وما كان مضموما الى آل طاهر من الكور وشرطتى بغداد وسر من راى ، وأن يعقد له على طبرستان وجرجان والرى وآذربيجان وقزوين ، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند ، بل ويحضر من قرئت عليهم الكتب التى نسخت فى دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ويقرأ عليهم خلاف ما قرىء عليهم أولا من ذكره ، ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب ، ووافق الموفق طلحة على ذلك ، وأجابه الى ما طلبه ، وجمع الناس وقرأ عليهم ما طلبه يعقوب وأجابه الى الولاية التى طلبها (٤٦) .

ورغم ذلك فان يعقوب وقد أسكرته نشوة الاستجابة لمطالبه قرر أمرا خطيرا وكشف عن وجه العداء للخلافة ، وقرر المسير الى العراق نفسه لغزوه والاستيلاء على مدينة بغداد .

وجها لوجه :

كانت الخلافة آنذاك تواجه الكثير من المشكلات ، وخاصة محاربة الزنج الذين أخذ الموفق على عاتقه مهمة القضاء عليهم ، ومن ثم لم ترد الخلافة فتح جبهة قتال جديدة ، ولاسيما أن الموفق كان على أهبة المسير لحرب الزنج (٤٧) ، ومن ثم مالت الى المهادنة مع الصفار فكان موقف الخلافة المتقدم من اجابة طلبات يعقوب .

وقد أطمع هذا الموقف من الخلافة يعقوب بن الليث ، واعتقد أن هذا كل ما فى وسع الخلافة ، ولو كان فى قدرتها أكثر لفعلت ، وأن عليه استغلال الفرصة لاسيما وشوكة الزنج تدمى جسد الخلافة ، فأعاد رسل الخليفة يحملون اليه رسالة تهديد ووعيد ، مؤداها أنه لا يرضى الا بتنفيذ ما هدد به ليثبت لها

---

(٤٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ٦ ص ٤١٢ .
(٤٧) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٧ .

انه كان يعنى ما يريد ، وانه قدير على فعله ، ومن ثم فانه مصمم على المسير الى حاضرة الخلافة ، بل والى حضرة الخليفة نفسه (٤٨) .

وادرك المعتمد والموفق أن تقرير الأمر بالقوة العسكرية هو الخيار الوحيد ، فخرج الخليفة المعتمد الى سيب بنى كوما بالقرب من الزعفرانية ، وتجمعت جيوش الخلافة فيها ، فى حين زحف يعقوب بعد أن وصل الى واسط الى دير العاقول ثم زحف لملاقاة جيش الخلافة ؛ ونهض الموفق بحرب يعقوب ، وكان اللقاء فى موضع يسمى اصطربد بين سيب كوما ودير العاقول ، ودارت الحرب ضارية بين الفريقين ، وبدا أن الغلبة للصفاريين ، ولكن ميزان المعركة ما لبث أن مال لصالح الموفق فتمكن جيشه من قتل عدد من قواد يعقوب ، بل ان يعقوب نفسه أصيب بثلاثة أسهم فى حلقه ويديه (٤٩) .

وحدث — آنذاك — تحول خطير فى معسكر يعقوب حيث أنف كثير من رجاله محاربة الخليفة رأس السلطة الروحية ، فانقلبوا على من بقى مع يعقوب يحاربونهم ويقتلونهم ، وفى وصف هذا التحول الخطير يقول الطبرى : « وقد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهة القتال معه اذ رأوا السلطان قد حضر لقتاله ، فحملوا على يعقوب ، ومن ثبت معه للقتال » (٥٠) .

وهكذا انتهى الأمر بهزيمة يعقوب هزيمة ثقيلة ونيقاسى أول هزيمة خطيرة فى حياته (٥١) ، وقد خلص الموفق محمد بن طاهر من قيده وخلع عليه وولاه الشرطة ببغداد بعد ذلك (٥٢) .

---

(٤٨) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٨ انظر :
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 93.

(٤٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥١٧ ، وابن الأثير : المصدر السابق حـ ٦ ص ٨ وانظر :
AMIR Ali, Ibid, p. 292.

(٥٠) الطبرى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٥١٨ ، ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٨ .

(٥١) Saunders, History of medieval Islam, p. 118 & Shaban, Islamic history Vol 2, p. 100 & AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 293, & Brokelman, history of Islamic people p. 136.

(٥٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٨ ، المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٢٠١ .

ويتبدى من موقف جند يعقوب منه ما كان للخلافة من منزلة روحية فى قلوب الناس وما كان للخليفة باعتباره رأس السلطة الروحية ، كما يتبدى مدى سطوة القوة الدينية على النزعة القومية (٥٣) .

ولقد كان يعقوب بنفسه يدرك مدى قوة الوازع الدينى ، ولذا حاول فى خروجه أن يقنع أصحابه أن سبب خروجه هو انكاره على المعتمد ومن معه اضاعتهم الدين واهمالهم أمر صاحب الزنج (٥٤) ، ويذكر المسعودى فى مروجه أنه يقال انه قال فى ذلك :

خراسان أحويها واعمال فارس	وما أنا من ملك العراق بآيس
اذا ما أمور الدين ضاعت واهملت	ورثت فصارت كالرسوم الدوارس
خرجت بعون الله يمنا ونصرة	وصاحب رايات الهوى غير حارس (٥٥)

ومع ذلك فان مواجهته للخليفة كانت كفيلة بابطال ادعائه ، وانصراف الكثير من اتباعه عنه وانضمامهم الى الخليفة رأس الدولة الروحى وامامها .

هذا ، وقد صور أحد الشعراء المعركة تصويرا دقيقا مهيبا بطلعة الامام برايته المنصورة وكيف ابلى الموفق فيها فأحسن البلاء :

وبدا الامام براية منصورة	لمحمد سيف الاله القاضب
وولى عهد المسلمين موفق	بالله أمضى من شهاب ثاقب
وكأنه فى الناس بدر طالع	متهلل بالنور بين كواكب
فل الجموع بحزم رأى ثاقب	منه وأفرد صاحبا عن صاحب
لله در موفق ذى بهجة	ثبت المقام لدى الهياج مواثب
يا فارس العرب الذى لا مثله	فى الناس يعرف آخر لنوائب (٥٦)

على أنه من الجدير بالذكر أنه رغم هزيمة الصفاريين أمام الخلافة فانهم ظلوا مسيطرين على جزء كبير من جنوب شرقى فارس حتى نهاية القرن التاسع الميلادى (٥٧) (الثالث الهجرى) .

---

(٥٣) حامد غنيم : عصر الدول الاقليمية حـ ١ ص ٢٩٢ .
(٥٤) المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٢٠١ .
(٥٥) المسعودى : نفس المصدر حـ ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٥٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥١٩ ، ٥٢٠ .
(٥٧) Saundors, History of medieval Islam, p. 118.

الخلافة ويعقوب بعد هزيمته :

أثبتت الخلافة نفسها أمام قوة يعقوب ، وأظهرته على مدى السلطة الروحية التى تتمتع بها فى نفوس المسلمين وانها أقوى من النزعات القومية ، وكانت الخلافة على صواب فى موقف التصدى لطموحات يعقوب ، فلو تقبلت منه محاولات التودد التى اظهرها فى أعقاب استيلائه على نيسابور ، وفى أعقاب انتصاره على الحسن بن زيد ، لزادت طموحاته وتطلعاته ولما فسر تقبل الخلافة لذلك الا على انه دليل على ضعفها .

ومع ذلك ، ومن موقف القوة رأت الخلافة أن تستميل يعقوب بن الليث اعترافا منها بقوته رغم ما أصابه من هزيمة امامها حتى تحتفظ بولائه (٥٨) ما دام قد تحقق لها الخط السياسى الذى رسمه لها الموفق وهو اشعار ولاة الأقاليم بأنهم انما يخضعون للخلافة خضوعا مباشرا فى كل تصرفاتهم الرئيسية التى يجب أن تكون بتوجيه منها .

ومن هذا المنطلق أرسل المعتمد الى يعقوب رسولا خاصا فى سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م يجدد ولايته على فارس ، ويهدىء من روعه ، ويطلعه على رضا الخلافة عنه ، ووصل هذا الرسول ويعقوب فى مرض موته ، فأظهر التماسك والصلابة وجلس لاستقباله وجعل عنده سيفا ورغيفا ومعه بصل ، وقال للرسول بعد أن سمع منه رسالة المعتمد مهددا : « قل للخليفة أننى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا السيف حتى آخذ بثارى أو تكسرنى وتعقرنى وأعود الى هذا الخبز والبصل » (٥٩) .

وهكذا ، عاد رسول الخليفة اليه بهذه الرسالة المتحدية من رجل على فراش الموت ليثبت أن تلك الوقفة الجادة من الخلافة أمام رجل من هذا الطراز كانت وقفة لازمة . على أن القدر لم يمهل يعقوب ليعود الى حرب الخلافة او يعود

---

(٥٨) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٣٨ .
(٥٩) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٢١ .

الى خبزه وبصله حيث وافته المنية بعد قليل فى جند نيسابور فى ٩ شوال سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م (٦٠) .

الصفاريون بعد موت يعقوب :

بويع عمرو بن الليث (٦١) لرئاسة دولة الصفاريين بعد وفاة يعقوب ، وأقرت الخلافة العباسية تلك المبايعة (٦٢) بعد أن استهل عمرو قيادته للدولة بسياسة تخالف ما كان ينتويه أخوه فأرسل للخليفة بأنه سامع له ومطيع (٦٣) .

وصدر كتاب الموفق اليه بتوليته خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وسامراء معا وخلع علية ؛ واختار عمرو بن الليث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر من الأسرة الطاهرية نائبا عنه على الشرطة فى المدينتين (٦٤) .

وقد شهدت السنوات منذ سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م الى سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م تحسنا فى العلاقات بين الصفاريين بقيادة عمرو بن الليث وبين الخلافة العباسية ، وكان عمرو يؤكد هذه العلاقات الطيبة بهداياه المتواصلة الى المعتمد وأخيه الموفق ، وكان يرمى من وراء ذلك ايضا الى تأكيد سلطانه على جنوده الذين دخل نفوسهم شىء لموقف اخيه يعقوب من الخليفة (٦٥) .

---

(٦٠) ابن الأثير : نفس المصدر حـ ٦ ص ٢١ وأنظر وفيات الأعيان حـ ٦ ص ٤١٩ ،
AMIR Ali, A short history of the Saracenes, p. 293 & BROKEL-man, p. 136.

(٦١) كان عمرو بن الليث صفارا مع أخيه ، وقيل كان مكاريا يكرى الحمير . ابو الفلاح : شذرات الذهب حـ ٢ ص ١٥٠ وانظر وفيات الأعيان حـ ٦ ص ٤٠٢ ، ٤٣٠ ،
BROKELMAN, j. 136.

(٦٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ٦ ص ٤١٩ .

(٦٣) ابن خلكان : نفس المصدر حـ ٦ ص ٤١٩ ، الطبرى : حـ ٩ ص ٥٤٤ ، الكامل حـ ٦ ص ٢١ .

(٦٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ٩ ص ٥٤٩ .

(٦٥) محمد حلمي احمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسي ص ١٣٩ .

كما ان عمرا عمل على توسيع نفوذه بضم مناطق أخرى لبلاده متجها الى الناحية الأخرى من بلاد الدولة وركز جهوده الحربية فى الشرق والشمال (٦٦) .

ولكن سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م شهدت تطورا مفاجئا فى تلك العلاقة حيث ادخل المعتمد اليه حجاج خراسان واعلمهم أنه قد عزل عمرو بن الليث عما كان قلده ثم لعنه بحضرتهم ، واخبرهم انه قلد خراسان محمد بن طاهر ، كما امر المعتمد كذلك بلعن عمرو على المنابر فلعن (٦٧) .

ولعل الغرابة تزول ازاء هذا التصرف المفاجىء من الخلافة تجاه عمرو اذا ربطنا بينه وبين ما حدث فى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ونعنى به قضاء الموفق على ثورة الزنج التى اقلقت الخلافة ردحا طويلا وجعلتها تغضى على الكثير من القذى . أما وقد نزعت تلك الشوكة الدامية من جسدها ، فقد آن للخلافة أن تكشف القناع عن وجهها الحقيقى تجاه دولة الصفاريين .

وتطورت الأمور الى القتال بين الطرفين حيث سار صاعد بن مخلد الى فارس لحرب الصفاريين بأمر من الموفق ، ثم كانت الحرب بين عمرو بن الليث وعسكر الخليفة بقيادة أحمد بن عبد العزيز بن أبى دلف ، وتمت الهزيمة على عمرو بن الليث ، ولحقت به الخسائر الفادحة التى لا تقع تحت الاحصاء (٦٨) . بل ان الموفق نفسه خرج فى سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م لحرب عمرو بغرض الاستيلاء منه على كرمان وسجستان ولكن ذلك لم يتيسر له (٦٩) .

وهكذا يتضح أنه منذ عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م تدهورت العلاقات بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، وأن مبادرة العداء جاءت من ناحية الخلافة واستمر ذلك حتى سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م .

---

(٦٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٢٣٧ ، محمد حلمى أحمد : نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٦٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٥٨ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ١٠ ص ٧ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٨٦ .
(٦٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٢٨٧ .
(٦٩) النويرى : نفس المصدر جـ ٢٥ ص ٢٨٧ ، الكامل جـ ٦ ص ٦٢ والطبرى جـ ١٠ ص ١٣ .

وفى شهر المحرم سنة ٢٧٦ هـ جعلت شرطة بغداد الى عمرو بن الليث وكتب اسمه على الأعلام والترسة التى تكون فى مجلس السمر ، ولكن الخلافة ما لبثت أن أمرت بطرح المطارد والأعلام والترسة التى كان اسمه مكتوبا عليها وصدرت الأوامر باسقاط اسمه ، وكان ذلك فى شوال من نفس السنة (٧٠)

ويصعب فهم تصرف الخلافة هذا مع عمرو بن الليث ولاسيما ان المدة بين الاتجاه الودى الذى حاولت الخلافة سلوكه معه وعدولها عنه لم يعد سوى بضعة أشهر .

واستمر الوضع على ما هو عليه بين الخلافة وبين عمرو بن الليث حتى توفى الخليفة المعتمد على الله فى ١٣ رجب سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ، وتولى الخلافة بعده المعتضد بالله ابن أخيه الموفق (٧١) .

المعتضد وعمرو بن الليث :

أراد عمرو بن الليث فتح صفحة جديدة فى علاقته مع الخلافة فى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) فأرسل فى شعبان سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م — بعد أن تولى المعتضد بأقل من شهر — رسولا اليه محملا بالهدايا الكثيرة ، وسأله أن يوليه خراسان فاستجاب المعتضد لرغبته وعقد له عليها (٧٢) .

وواصل عمرو بن الليث سياسة مواصلة الخليفة ، فأرسل اليه فى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م هدايا منها « مائة دابة من مهارى خراسان وجمازات كثيرة وصناديق كثيرة واربعة آلاف درهم ، وكان معها صنم صغير من صفر على مثال امراة لها اربعة أيد وعليها وشاحان من فضة مرصعان بالجوهر الأحمر والأبيض ، وبين يدى هذا التمثال أصنام صغار لها أيد ووجوه وعليها الحلى والجوهر ، وكان هذا التمثال على عجل قد عمل على مقدارها تحت الجمازات » (٧٣) .

---

(٧٠) الطبرى : حـ ١٠ ص ١٧ ، الكامل حـ ٦ ص ٦٦ .
(٧١) الطبرى : حـ ١٠ ص ٢٠ .
(٧٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ١٠ ص ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٧٤ .
(٧٣) المسعودى : مروج الذهب حـ ٤ ص ٢٣٧ .

وبلغ من اعجاب المعتضد بالتمثال أن أمر بنصبة للناس ثلاثة أيام شغل الناس خلالها بالنظر اليه حتى سمته العامة شغلا (٧٤) .

ولم يكتف عمرو بن الليث لتأكيد ولائه للخلافة العباسية عند حد التودد اليها ومواصلتها بالهدايا ، بل أراد أن يبرهن لها بطريقة عملية عن مدى اخلاصه ، فتصدى لمحاربة رافع بن هرثمة المنشق على الخلافة وتمكن من هزيمته هزيمة ساحقة فى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م ، وأرسل راس رافع — بعد أن قتله فى خوارزم — الى الخليفة المعتضد الذى سر لذلك وامر بنصب الراس لتراه العامة ، وخلع على رسول عمرو بن الليث اليه وأرسل بالخلع والهدايا الى عمرو (٧٥) .

وفى سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ولى المعتضد عمرو بن الليث ما وراء نهر بلخ وعزل اسماعيل بن احمد السامانى استجابة لطلب عمرو فى ولاية هذه البلاد (٧٦)، فكانت تلك الولاية خاتمة عزه .

وبادر عمرو بن الليث باظهار امتنانه للخلافة فارسل الى المعتضد ببغداد هدية جليلة « فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف ألف درهم ، وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة مفرقة ومائة وخمسين دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة » (٧٧) .

وبالنظر الى العلاقات الحميمة التى كانت قائمة بين الدولة السامانية والخلافة العباسية فان اسناد ولاية بلاد ما وراء النهر الى عمرو بن الليث وعزل اسماعيل ابن أحمد السامانى عنها يحمل علامة استفهام تجيب عليها سياسة المعتضد التى كانت ترمى الى محاولات التخلص من بعض الدول الاقليمية مستخدما فى ذلك دولة

---

(٧٤) المسعودى : نفس المرجع حـ ٤ ص ٢٣٧ .
(٧٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك حـ ١٠ ص ٦٧ .
(٧٦) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الأسلامية حـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٧٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ١٠ ص ٧١، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٩٢ .

اقليمية صديقة هى الدولة السامانية (٧٨) التى يبدو أنها أقيمت فى أقصى شرق الدولة العباسية بهدف ابتلاع الدول الاقليمية المعادية (٧٩) .

الصفاريون والسامانيون :

كأنما كان عمرو بن الليث بطلبه ولاية ما وراء النهر يسعى بظلفه الى حتفه ، وكان المعتضد بقبوله لطلبه ذلك يعجل به وبدولته الى النهاية ، فقد كان المعتضد يعلم أن اسماعيل بن أحمد السامانى لن يقبل أن تئول بلاد ما وراء النهر الى عمرو ابن الليث .

وعلى هذا ، سرعان ما بدأت المواجهة بين الطرفين ، فبدأ عمرو فأرسل محمد بن بشير — خليفته وحاجبه — مع مجموعة من قواده على راس جيش الى آمل ، فعبر اليهم اسماعيل نهر جيحون وتمكن من هزيمة ابن بشير وقتله ، وقتل معه ستة آلاف من أصحابه (٨٠) .

وبدلا من أن يراجع عمرو بن الليث حساباته فانه صمم على التوجه لحرب اسماعيل بنفسه مخالفا رأى من أشار عليه بالاكتفاء بارسال الجيوش دون المخاطرة بنفسه ، فخرج من نيسابور وتوجه الى بلخ ، وكان اسماعيل أحكم منه حين دعاه الى ترك الحرب والاكتفاء بما فى يده ، ولكن عمرا أبى فهزم جيشه ووقع فى الأسر ، وكان من الغريب أن ينهزم عمرو وهو فى جيش يبلغ عدده خمسين ألفا (٨١) .

وكان اسماعيل كريما معه بعد القبض عليه ، فخيره بين المقام معه أو ارساله الى الخليفة المعتضد ، فآثر عمرو التوجه الى الخليفة .

---

(٧٨) كان السامانيون قد أسسوا دولهم فى بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ بعد أن كانوا فى أول أمرهم نوابا عن الطاهريين ، واستمرت دولتهم نحو ١٣٠ سنة بين سنتى ٢٥١ — ٣٨٩ . محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة ج ١ ص ١٤٠ .

(٧٩) حامد غنيم : عصر الدولة الاقليمية ج ١ ص ٣٢٤ .

(٨٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٩٥ .

(٨١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٦٣ ، ج ٦ ص ٤٣٠ وانظر : عصام عبد الرءوف : الدولة الاسلامية المستقلة فى الشرق ص ٢٠ .

وفى بغداد لم يلق عمرو ما كان يؤمله ، بل انه أدخل المدينة نشهر واركب على جمل فالج (٨٢) ، ثم أدخل على الخليفة المعتضد ، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا ، وقال له المعتضد : « هذا ببغيك يا عمرو » (٨٣) .

وكان هذا الجمل الذى حمل عليه عمرو احد الجمال التى أهداها عمرو الى الخليفة منذ ثلاثة أعوام ، فقال فى ذلك أحد الشعراء :

وحسبك بالصفار نبلا وعزة ... يروح ويغدو فى الجيوش اميرا
حباهم بأجمال ولم يدر أنه ... على جمل منها يقاد أسيرا (٨٤)

ثم ان عمرا البس دراعة ديباج وبرنس السخط ثم أدخل المطامير التى كان المعتضد أعدها لأهل الجرائم (٨٥) .

وكان المعتضد مسرورا لهزيمة عمرو فذمه ومدح اسماعيل ثم أسند الى الزعيم السامانى ولاية البلاد التى كانت تحت سيطرة عمرو الصفار ، وارسل الى اسماعيل بالخلع (٨٦) .

وكان المعتضد شديدا فى موقفه من عمرو بن الليث حتى آخر لحظة من حياته ، وفى ذلك يقول الطبرى : « وقد كان المعتضد — فيما ذكر — عند موته بعدما امتنع من الكلام أمر صافيا الحرمى بقتل عمرو بالايماء والاشارة ، ووضع يده على رقبته وعلى عينيه ، أراد ذبح الأعور » (٨٧) ، ولكن صافيا لم يفعل ذلك لعلمه بحال المعتضد وقرب وفاته وكره قتل عمرو (٨٨) .

ولم تمهل المنية عمرا فتوفى فى أول عهد الخليفة المكتفى بالله .

---

(٨٢) يقال للجمل ذى السنامين اذا كان ضخما « الفالج » ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤٢٨ .
(٨٣) ابن خلكان : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٢٩ .
(٨٤) ابن خلكان : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٥٩ .
(٨٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ١٠ ص ٨٨ .
(٨٦) الطبرى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٨٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٩٦ .
(٨٧) الطبرى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٨٨ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٨٨ .
(٨٨) الطبرى: نفس المصدر جـ ١٠ ص ٨٨ .

وكان المكتفى يزمع الاحسان اليه ، لسابق احسان عمرو اليه حيث كان يهدى انيه الهدايا ، ويبره كثيرا أيام مقامه بالرى .

وقيل أن شخصا يسمى القاسم بن عبد الله علم برغبة المكتفى فى الاحسان الى عمرو فكره ذلك ، ودس الى عمرو من قتله (٨٩) .

الدولة الصفارية بعد اسر عمرو :

أضطرب أمر الدولة الصفارية بعد اسر عمرو بن الليث حيث قام بالأمر بعده حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الذى غضب لأسر جده وتمكن بمعاونة ابن عم له من التغلب على فارس ، فولى المعتضد مولاه بدرا فارس وامره بالتوجه اليها وأمده بجماعة من القواد وبجيش عظيم ، كما ارسل الى اسماعيل بن أحمد بهدايا قيمة بالاضافة الى ثلاثمائة الف دينار ليفرقها فى أصحابه ، ويبعثهم الى بلاد سجستان لحرب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، وأمر عبد الله بن الفتح أن يحمل فى طريقه من خراج ما يجتاز من بلاد الجبل عشرة ملايين درهم ليضيفها الى الثلاثمائة الف دينار (٩٠) ، وتمكن بدر من دخول بلاد فارس وجبى عماله الخراج بها (٩١) .

وبذلك يمكننا القول بأن وفاة عمرو بن الليث كان ايذانا بانتهاء دولة الصفاريين التى كان آخر ما ورد عن أخبارها فى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م حيث انشق غلام لطاهر يسمى سبكرى عليه وأسره ووجهه مع اخيه يعقوب بن محمد الى الخليفة المقتدر بالله فى بغداد لتنتهى بذلك اخباره واخبار الدولة الصفارية جميعا (٩٢) .

وبذلك نرى أن عمر دولة الصفاريين لم يتجاوز خمسة وثلاثين عاما رغم قوة

---

(٨٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ١٠ ص ٨٨ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٨٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤٣٠ .

(٩٠) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ص ٢٦٩ .

(٩١) الطبرى: المصدر السابق جـ ١٠ ص ٨٤ .

(٩٢) الطبرى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ١٤١ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ١٣٥، مسكويه : المجلد الأول ص ١٦ ، وانظر : عصام عبد الرءوف : الدولة الاسلامية المستقلة فى الشرق ص ٢١ .

جيشهم وحسن تدريبه وتسليحه ورغم امتلاء خزانتهم التى بلغت ثمانين مليونا من الدنانير وخمسين مليونا من الدراهم فى عهد يعقوب .

ويكمن سقوط دولتهم المبكر فى خطئهم السياسى بمحاربة دولة الطاهريين الموالية للخلافة والتى كانت تقوم بمهمة ثغرية كبيرة فى المشرق ، وبتحدى الخلافة العباسية نفسها ومحاربة الخليفة رغم ما له من سلطان روحى فى وقت كانت الخلافة العباسية قد بدأت فيه تكتسب قوتها بفضل شخصية الموفق طلحة .

ولو واصلت دولة الصفاريين جهودها فى الثغر الذى يليهم من ناحية الهند لاكتسبوا عطف الخلافة ، واحترام العالم الاسلامى ، ولحظوا بتقدير الخلافة لهم ومعونتها اياهم (٩٣) .

---

(٩٣) احمد ابراهيم الشريف : العالم الإسلامى ص ٤٦٥ .

المصادر والمراجع

اولا ــ المصــــادر :

١ ــ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) على بن أحمد الكرم ــ الكامل ــ طبع بيروت

٢ ــ الاصطخرى (ت فى منتصف القرن الرابع الهجــرى / العــاشر الميلادى) ــ ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى ــ المســالك والممــالك ــ القــاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦٠ م .

٢ ــ الجهشـــــيارى (ت ٣٢١ هـ / ٩٤١ م) أبو عبد الله محمـــــد بن عبدوس كتاب الوزارة والكتاب .

٤ ــ ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ ــ ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس احمد ابن ابراهيم ابى بكر الشافعى وفيات الأعيان وأنباء الزمان ــ ط. بيروت ١٩٧٢ م .

٥ ــ الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) الحافظ شمس الدين ــ دول الاســلام ــ تحقيق فهيم محمد مصطفى ابراهيم .

٦ ــ الطبرى (٢٢١ هـ / ٣١٠ م) أبو جعفر محمـد بن جرير ــ تاريخ الرســل والملوك ــ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٧ ــ الطقطقي (محمد بن على بن طباطبا) الفخرى فى الآداب السلطانية والممالك الاســلامية ــ بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٨ ــ ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس ابو الفــرج بن هــارون الطبيب الملطى المعــروف بابن العبرى ــ مختصر تاريخ الدول ــ ط . بيروت ١٨٩٠ م .

٩ ــ عريب بن ســعيد القرطبى ــ صــلة تاريخ الطبرى (فى ذيول تاريخ الطبرى جـ ١١ ط . دار المعارف بمصر) .

١٠ــ ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٤٠٤ م) شذرات الذهب فى أخبــار من ذهب ــ بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١١ـ ابو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) عماد الدين اسماعيل ابو المظفر صاحب حماه .
(أ) المختصر فى أخبار البشر ــ ط . بيروت .
(ب) تقويم البلدان ــ ط . باريس ١٨٤٠ م .

١٢ـ ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة .

١٣ـ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٢٧ م) الحافظ عماد الدين ابو الفدا بن اسماعيل القرشى ــ البداية والنهاية ــ ط. بيروت .

١٤ـ الكندى (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى ــ الولاة والقضاة .

١٥ـ مجهول : العيون والحدائق ــ ط . بريل ١٨٧١ م .

١٦ـ أبو المحاسن (ت ٨٤٧ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ ط . التأليف والترجمة والنشر .

١٧ـ المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ١٩٥١ م) ابو الحسن على بن الحسن بن علي المسعودى ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ ط . خامسة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

١٨ـ مسكويه « أبو على أحمد » تجارب الأمم ـ اعتنى بنسخه وتصحيحه هـ.ف. آمدروز .

١٩ـ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ ــ ١٤٤٢ م) تقى الدين أحمد بن علي .
(أ) اتعاظ الحنفا واخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ـ تحقيق جمال الدين الشيال ــ ط . مصر .
(ب) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ ط . بيروت .

٢٠ـ ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) الأسعد الوزير الأيوبى جمعه ــ وحققه عزيز سوريال عطية ــ مطبعة مصر ١٩٤٣ .

٢١ـ النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى نهاية الأرب وفنون الأدب ـ ط . مصر ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

٢٢ـ الهمذانى (محمد بن عبد الملك) تكملة تاريخ الطبرى فى الجزء العاشر من تاريخ الطبرى ـ ط . دار المعارف .

٢٣ـ ابن الوردى (الشيخ زين الدين عمر) تتمة المختصر فى أخبار البشر ـ ط . مصر ١٢٥٨ هـ / ١٨٦٦ م .

٢٤ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى) .

(أ) معجم البلدان ـ ط . بيروت .

(ب) المشترك وضعا والمفترق صقعا ـ ط . جوتنجن ١٨٩٤ م .

٢٥ـ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن دهب بن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى) ـ تاريخ اليعقوبى ـ ط. دار صادر بيروت .

ثانيا ـ المراجع العربية :

١ ـ أحمد ابراهيم الشريف (الدكتور) العالم الاسلامى فى العصر العباسى ـ بالاشتراك مع الدكتور حسن احمد محمود ـ القاهرة . الطبعة الخامسة .

٢ ـ أحمد احمد شلبى (الدكتور) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

٣ ـ البقلى (محمد قنديل) التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ـ القاهرة ١٩٨٤ م.

٤ ـ حامد غنيم (الدكتور) عصر الدول الاقليمية ـ القاهرة ١٩٧٠ م .

٥ ـ حسن ابراهيم (الدكتور) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والاجتماعى والثقافى ـ القاهرة ١٩٦٢ م .

٦ ـ حسن أحمد محمود (الدكتور) .

(أ) الطولونيون والأخشيديون ـ بالاشتراك مع الدكتورة سيدة كاشف ـ القاهرة .

(ب) العالم الاسلامى فى العصر العباسى ـ بالاشتراك مع الدكتور احمد ابراهيم الشريف ـ القاهرة .

٧ ـ حسين مؤنس (الدكتور) تاريخ مصر من الفتح العربى الى أن دخلها الفاطميون ـ فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية (العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى) تأليف نخبة من العلماء ـ بدون تاريخ .

٨ ـ الخضرى (محمد) تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

٩ ـ الريس (محمد ضياء الدين) الدكتور ـ الخراج فى الدولة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

١٠ـ سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) مصر فى العصور الوسطى منذ الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ـ بالاشتراك مع عبد الرحمن الرافعى ـ (الطبعة الأولى) .

١١- سيدة كاشف (الدكتورة) مصر فى عصر الأخشيديين - القاهرة ١٩٥٠ .

١٢- سيديو - خلاصة تاريخ العرب - ط . بيروت .

١٣- السيوطى (ت ٩١١ هـ) الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطى - تاريخ الخلفاء - الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

١٤- عبد الرحمن الرافعى : مصر فى العصور الوسطى منذ الفتح الاسلامى حتى الغزو العثمانى - بالاشتراك مع الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - (الطبعة الأولى) .

١٥- عصام الدين عبد الرءوف (الدكتور) الدولة الاسلامية المستقلة فى الشرق - القاهرة .

١٦- على ابراهيم (الدكتور) مصر فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٧ م .

١٧- على حبيبة (الدكتور) العباسيون فى التاريخ - القاهرة ١٩٨٠ م .

١٨- لينبول The Story of Cairo الدكتوران حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن بعنوان « سيرة القاهرة » القاهرة ١٩٥٠ .

١٩- ماجد (عبد المنعم) الدكتور .

(أ) العصر العباسى الأول - القاهرة ١٩٧٦ .

(ب) تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م .

٢٠- متز (آدم) تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

٢١- محمد جمال الدين سرور (الدكتور) الدولة الفاطمية فى مصر - القاهرة القاهرة ١٩٧٩ .

٢٢- محمد حلمى أحمد (الدكتور) الخلافة والدولة فى العصر العباسى - القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٨ م .

٢٣- مصطفى طه بدر (الدكتور) مصر الاسلامية - القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٩ .

٢٤- وفاء محمد على (الدكتور) الخلافة العباسية فى العصر التركى الأول - القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ثالثا ــ المراجــــع الأجنبيــــة :

1. AMIR Ali, (Sayed), A short history of the Saracenes. London 1981.
2. BRokelman (Carl), History of Islamic people (London 1981).
3. Ency de L'Isl 2 edition.
4. HASSAN IBRAHIM, Islamic and history culture.
5. Lane-Poole (Stanley), A History of Egypt in the middle ages.
6. Muir (Wiliam) The Caliphate, its rise, decline and fall (Edinbourg 1948).
7. Saunders (J.J). A history of Medieval Islam (London 1972).
8. Shaban (H.A), Islamic history Vol 2 (Cambridge 1986).
9. ZAKI HASSAN, Les Tulunides (Paris 1933).

كشـــاف الموضـــوعات

صفحة

صفحة

صفحة